
3 me Année, No. 93.

Lundi-15-4-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٩٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٢ محرم سنة ١٣٥٤ — ١٥ ابريل سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

فهرس العـــدد

العام الهجرى

١٣٥٤

ها هو ذا العام الجديد يُهِلُّ ، فأين السجل ؟ تعال نقرأ ما خطه التاريخ فى صفحتنا التى طواها الدهر أمس ! هل انفرجت خوانق الأغلال قليلا عن الرقاب العانية ؟ هل انجلت غواشى الغفلة عن العيون السادرة ؟ هل انجاب قتام الذل عن النفوس العزيزة ؟ هل ائتلفت على عوادى الخطوب هذه القلوب الشتيتة ؟ هل اقتنع المتمدون والمستبدون أننا ماض ينبعث ، ومجد يستيقظ ، وأمة تريد أن تستأنف بلاءها فى جهاد الناس ، وتستعيد مكانها من صدر الوجود ؟

رويدك لاتطل النظر فلن تجد فيه وا أسفاه إلا عَبْرَ عينيك !! لقد طُويت هذه الصفحة كما طويت قبلها تلك الصفحات على بياض غير ناصع ! وإن تاريخنا لا يزال يكتب عرضاً فى تاريخ الدول ، أو لحقا فى تاريخ انجلترا ! فليس له فى التقويم العربى حساب جار ، ولا فى سفر العالم فصل مستقل !

لو كنا نسير إلى الوراء لعثرنا يوماً بمجد المصريين والعرب ،

ولو كنا نسير إلى الأمام لظفرنا يوماً بمجد الفرنسيين والانجليز ، ولكننا سقطنا من الونى والوهن فى طريق الانسانية ، يخطو فوقنا الركب ، ويدور علينا الفلك ، حتى رن فى أسماعنا صوت الأجداد يُهيب صارخاً بالرقود ، فنهضنا نهضة المُنْبَتّ الحائر نستلهم الأعراق ، ونستنبئ الدلائل ، وتملق الأحداث ، ونستحث القادة ؛ ثم انقضى على هذه النهضة المتلكئة قرن ؛ وما نزال شملا يتجمع ، وأملا يتطلع ، وعزماً يشبّ

متى السير إذن يا هادى المحجة ؟ ! لقد مللنا قرع الطبول ودَقَّ البشائر ، وقتلنا الزمن فى تأييد رأى وتفنيد رأى ، وأضعنا الجهد فى عقد لواء وحل لواء ، وخجلنا من هذا الموقف السلبى الذى يرصد الأهب فى الخيال ، ويصور الخطط بالشعر ، ويطلب النصر فى أحلام المنى !

***

انطوت صفحة العام المنصرم ولم تسجل فى أوطان العروبة غير الأسى والألم : سجلت فى مصر كما سجلت من قبلُ أهواء تتصارع ، وأطماعا تتعارض ، وفردية تطغى ، وأثرة تسف ، وخصومة تكيد ، وشعباً يكابد داء الضرائر فى زعمائه ، ويكاد يستجير بعدوه من أوليائه ، وينظر فيرى فى يده العتاد وفى طبعه الاستعداد ، ثم لا يزال برغم ذلك وضيع الشأن فى الحياة ، مسلوب الارادة فى الحكم ، مبذول المقادة للغاصب

وفى العراق سجلت أحداثاً ترمض القلوب وتثير دفائن الهم ، من دبيب العقارب بين الجيرة ، وسعى النمائم بين الاخوة ، وتمكين الطائفية للنفوذ الدخيل !

وفى الشام سجلت تفريق الكلمة بالوعود ، وتمزيق الجسم بالحيلة ، وتسكين الألم بالمرقد ؛ كذلك سجلت فى المغرب دموعا يمسحها اللاطم بكفه ، ووشائج يقطعها الظالم بسيفه ، ونفوساً ينزو بها الحفاظ للجنس والدين فترتكض فى القيد ، وتضطرب اضطراب المهيض فى القفص

ثم سجلت فى شبه الجزيرة فعل الفقر البئيس فى دار الهجرة وملاذ الدعوة ، ومُطَّأَنّ الضريح المقدس

أما السطور الحمر التى خطتها لفلسطين البائسة ، فمن صبيب دمائها كان المداد ، ومن نشيج بكائها كان الكلم : هى اعلان يبيعها القهرى فى سوق السياسة ، يتزايد فيه أهلها العرب بالحق - والحق رأى واجتهاد ، وبالقانون - والقانون ورق ومداد ؛ ثم يهود العالم كله بالذهب - والذهب إله وشيطان ، وبانجلترا - وانجلترا أسطول وبرلمان ! فالعرب فى فلسطين مقضى عليهم بالقتل والتشريد ، وإخوانهم فى الأوطان الأخرى ينظرون إليهم نظر العواد إلى المريض المشفى ، يسعفونه بالدعاء ، ويؤاسونه بالبكاء ، والدعاء لا يرفع الواقع ، والبكاء لا يدفع الموت

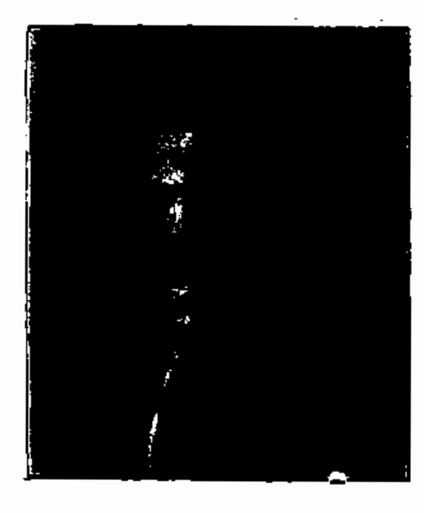
***

هذه عناوين الصفحة المطوية ليس بينها عنوان جميل ، فليت شعرى ماذا تخط أقلام القدر فى صفحة العام الجديد ؟ !

لو كنا ننتفع بالذكريات ، ونستفيد من العظات ، لما بددنا الجهود فى التجارب ، وأفسدنا الأمور بالتردد ؛ إن لنا تاريخاً إنسانياً حافلا فيه لكل عظيمة ذكرى ، ولكل ملمة تجربة ؛ وأن لنا دستوراً إلهياً كاملا فيه لكل مضلة هدى ، ولكل قضية بينة ؛ فاذا التمسنا دليلنا من روح السلف ، واقتبسنا هدانا من وحى الله ، استقمنا على الطريقة التى نهجها الرسول ، فتوافينا معاً على الغاية ، وانتهينا جميعاً عندها إلى الوحدة

إن الرسالة العربية التى هاجرت مغلوبة من مكة إلى المدينة ، سافرت غالبة من الشرق إلى الغرب ، بفضل مبدئها الإلهى الذى قامت عليه ودعت إليه وفازت به ، وهو توحيد الله ، وتوحيد الكلمة ، وتوحيد القوى ، وتوحيد الغاية

وقد استوثق الأمر لأهلها ما استمسكوا به ؛ فلما تراخت العرى بينهم وبينه تفاذفتهم السبل ، وتقاسمتهم الأطماع ، وصار بهم التخاذل والتواكل إلى ما هم عليه اليوم



احمد حسن الزيات

مساجلة الرمال

للآنسة النابغة «مى»

[أمواج عديدة من الرمل تتململ شيئاً فشيئاً ، فوجاً بعد فوج ، وتتحدث فى أواخر الغلس]

— الظلام يولّى هارباً ، وعمود الفجر يكاد ينشقّ . عما قليل تشرق الشمس فلا يلبث قرصها أن ينقلب أتوناً يصلينا نار السعير .

— سيان لدينا الليل والنهار . كل يوم ننتظر من الظلام عذوبةً تحت أنوار الكواكب الواهية . ولكن حرارة الشمس تظلُّ مستودعة فى كياننا فنلبث فى اتقادٍ واضطرام يوماً بعد يوم ، وليلةً بعد ليلة

— إنما جعلتنا الأقدار متحاذيات متلاصقات لنفرش هذه الأرض ونكوِّن منها الصدأة المحترقة . يتهموننا بأن لمسنا يشوى اليد والقدم شيًّا ، ولكن ألسنا نعانى فى كياننا المقدورَ علينا من عذاب السعير ؟ وددتُ لو أنّ لى دمعاً أذرفهُ من فرط السآمة والحنق والألم !

— طالما شهدنا الخلائق تهبط علينا وقد أضناها التعب والوصب ، فنفق الحيوان على صدرنا ، ومات الانسان بين يدينا ، ووجد كل منهما عندنا ملجأً طبيعيًّا يتلقاهما ويضمهما اليه . ونحن الجاثمات الظامئات المتعبات على الدوام ، ليس لنا من يرثى لحالنا و يسعفنا . نحن التائقات الى التفلت من حالتنا الراهنة ، ليس لنا أن نمضى فى علوّ ما ونهبط فى مستقرٍّ غير هذا . وانمى من هذا الوجود القاحل فى ديمومة السكوت والجمود !

— أو لا تتحركين وتتنقلين عند ما تطؤك سنابك الخيل وأخفاف البعير أقدام الانسان ، لدن مرور هاتيك القوافل التى ما فتئت تطوِّينا منذ أن كان الدهرُ وليداً ؟

— ليست هذه هى الحركة التى ننشد . إن شوقاً عميقاً فينا يتلهّف على حركة من نوع آخر

— كم من حركةٍ مفاجئة خبرتُ عند ما عصفت بى السموم فى النهار أو الحَرور فى الليل ! زعازع وأنواء انتزعتنى فى عنفٍ من مقرّى إلى مقرّ آخر ، فما كنتُ منتقلةً إلاَّ من الرمضاء إلى الرمضاء ، حيث السعيرُ دائمٌ والأوارُ مقيم !

— وأنا تلقّفتنى العواصف غير مرة . فحطت بى يوماً عند ساحل البحر فامتزجتُ بالماء ورسبتُ فى القعر . وأغفلنى هناك زمناً الدهرُ الوسنان . ثم قذفت بى الأمواج على الشاطئ ، فتناولتنى الزوبعة الهوجاء ، وردّتنى إلى مستقرى فى هذه البطحاء !

— وأنا كم حدت بى الريح إلى حيث الينابيع تتفجّر والمياه تجرى ! إلى حيث الأرض كريمة والأشجار ظليلة ، وقد نوّرت الأزهار هنا وهناك وهنالك على صفحة الروض ، وتشابكت الرياحين بخميلاتها من شذىّ النباتات فعبق الهواء بأريج العطور ! ..

— لا تذكرنَ الماء والعطر والظلال لرمالٍ شقية قضى عليها بالمحل والاضطرام والصدى ، لا توقظن فينا أشواقاً تأبى التحقيق !

— أتوق إلى الذوبان فى سائلٍ ما ، ولو كان ذياك السائل القانى الذى رأيناه أحياناً على جسد الانسان والحيوان ! ولكننا غير قابلات للجرح الذى يغسل لحلنا بنجيع الدماء ، ولن نكون يوماً قمينات بابتسامة الحياة وعذوبة الحنان . قضى علينا بأن نكون دواماً فى حكم الموتى ، وقد حُرمنا نِعَماً يجنيها غيرنا فى جنّةِ الأرض .

— أنكون فى حكم الموتى ونحن نشتاق ونتعذّب ؟ ألا ليت كلّ قافلة عابرةٍ تسير بى إلى حيث ينيخ الركبُ ! حيث الخيمة المضيافة والناس يضرمون النار و يأكلون ، وينهلون الماء و يرتوون ! وا حنينى إلى هناء المضارب ! وا حنينى إلى كيانٍ قابل للرىّ والارتواء !

— لو كان لى أن أرجو الوصول يوماً إلى تلك الحالة الراغدة لأعانني الرجاء على الاحتمال ، وكان لى منه العزاء والسلوى ! ولكننا فى هذه البطاح الصمّاء البكماء ، إنما وُجدنا لنقطع كلّ صلةٍ بين الحياة والحياة !

— ويلك ! ماذا تقولين ، نحن قاحلات جائعات ظامئات مشتاقات ، ولكننا وُجدنا لنكون صلةً بين الحياة ولباب الحياة !

— أو لا ترين الفجر يتلألأ في الأفق سنياً ؟ غبار دقيق من النور يتناثر حولي ، كأنه سحيق من الذهب والبلور . هذا يوم عيد

— لولا هذا اليوم وماميزه بين الأيام ، ما كانت تلك القوافل العديدة ، قوافل الحجاج التي نراها منذ قرون وقرون ذاهبةً آئبةً

— لقد شهدتُ القوافل ذاهبةً آئبةً منذ أن خرجتُ على الصحراء رملاً ، وتعرّفتُ قوافل العرب الرحّل وقوافل الغزاة والحجار بين والشعراء والعاشقين . وكم من حداء سمعتُ !

— تلك القوافل تعددت ألوفاً وألوف الألوف منذ أربعة عشر قرناً ، وتبدّل الغرض من ترحالها منذ أن انبثق من سويداء قلب الصحراء جحفل النصر العظيم . فصارت القوافل قوافل الذكرى والعبادة والسلام ، تقبلُ علينا في عجاجة ورديةٍ من قصيّ الابعاد حيث يخيّل أن الآفاق تتحرك ، وتغادرنا في عجاجةٍ وردية لتتوارى وراء الآفاق التي تحنو على وديعتها الفريدة الغالية

— أعرف تلك الوديعة ، فقد ساقتني إليها الريح مرةً ! هناك مثوى ذاك الذي عرف كيف يلقي في أرواح الشعوب روحاً حيّةً خالدة

— فتى الصحراء ! فتى الصحراء الذي اصطفاه ربُّه ليحمل الكتاب . فهجر دياره ، وسلاحه كتاب فغزا به العالمين !

— الفاتح الذي لا يشبهه فاتح ! إنه لم يغزُ البلدان والأمصار وكفى ، بل غزا القلوب بسرّه ، وفتح النفوس بسحره ، يوم خروجه من الديار هو بدء تاريخ الهجرة . وها الناس على توالي القرون ، وقد هاموا بجاذبيته النورانيّة ، يهجرون ديارهم وخيراتهم ويقتحمون المفاوز والأخطار ليحجوا إلى البقعة الصغيرة العظيمة التي تجمّع عندها معنى الديار والأوطان ، وتركزت فيها ثقة اليقين وانبعث منها نور الايمان !

— سيد الغزاة والفاتحين ! إنه فتانا ، فتى الرمضاء وفتى الرمال ! إنه جاء بمعجزة المعجزات فأخرج الخصب الخصيب من ديار القحط والجدب !

— فتى الصحراء العجيب ، ذو العينين الدعجاوين حيث أودعت السماء نعامة الضياء ! إن ذكراه لممتزجة بذكرانا !

— نحن الرمال لم يكن وجودنا عبثاً كما زعمنا في أجلنا المديد الأليم ! نحن الجامدات ، كنا مبعث الحركة والحياة ! نحن القاحلات ، كنا ومازلنا سبيل الهجرة الخصيبة

أشرقت الشمس — شمس اليوم الأول من العام الهجريّ . من الرمضاء تتصاعد أشباح أثيرية تدور رشيقةً في نور النهار الجديد . وقد أصبحت أفواج الرمال القريبة والبعيدة كلّها جوقة واحدة تنشد :

« نحن الرمال القاحلة ،
« لا خصب يوازي خصبنا !
« نحن الرمال الجامدة
« هل من حياةٍ كحياتنا ؟ »

« ميّ »

أُمْنِيَّة

للدكتور محمد عوض محمد

ألا من لنفسي والأماني منزيّةٌ ... بأرضٍ خلتْ من ظالمٍ ولئيمِ
وصومعةٍ شيدت على رأس ربوةٍ ... مهبّ رياحٍ : زعزعٍ ونسيمِ .
تُطِلُّ على بحر يعبّ عُبابه ... كصدرٍ لأسرار الزمان كتومِ ؛
ومن خلفها يُنبوع ماء مسلسلٍ ... كدُرّ على نحر الصخور نظيمِ
أطالع منها الكونَ : سِفراً ، تزاحمت ... به الآيُ ، قد خطّته كفّ حكيمِ ،
وأقرأ منها الغيب سراً محجّباً ... بقلبٍ بصير بالخفيّ عليمِ .
وإن زارني فيها الرّدى متخشّعاً ... فأهلاً به من زائرٍ ومقيمِ

محمد عوض

الهـــجرة

للأستاذ على عبد الرازق

حينما فكر أولو الأمر من أهل السبق فى الاسلام فى اختيار مبدأ للتاريخ الاسلامى كانت هنالك حوادث خطيرة ما زال ذكرها حياً فى أذهانهم ، يملؤها روعة وجلالاً

هنالك حادث الهجرة نفسها ، وهنالك قبل حادث الهجرة مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومبعثه ، ويوم اعلانه بالدعوة ، ويوم بيعة العقبة ، وبيعة الرضوان

ثم هنالك بعد حادث الهجرة غزوات النبى صلى الله عليه وسلم ، ويوم الفتح — فتح مكة — وهنالك اليوم الذى أنزل الله تعالى فيه على عباده المؤمنين : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً » وغير ذلك أيضاً . كل أولئك وكثير مما لم نذكره ، قد كان ماثلاً أمام أولى الأمر من أهل السبق فى الاسلام يوم أرادوا أن يختاروا مبدأ للتاريخ الاسلامى ، فاختاروا من بين أولئك كله حادث الهجرة — هجرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مكة إلى المدينة — وبذلك سجلوها ذكرى بين المسلمين متجددة ، وأرسلوها فيهم حديثاً مأثوراً وعبرة دائمة

ما نحسبهم فعلوا ذلك إلا وقد عرفوا لهذه الحادثة من القدر والخطر ما لم يعرفوا لغيرها من الحادثات التى عرفوا ، وإن كانت ذات قدر جليل وخطر عظيم

لقد يبدو غريباً أن يتفق الصدر الأول من بناة الاسلام وأهل السبق والفضيلة فيه على أن ينظروا إلى الهجرة بذلك النظر ، وأن يعتبروها أهم الحوادث فى الاسلام وأبرزها وأبلغها فى نشأته أثراً

والذين يقرءون سيرة النبى صلى الله عليه وسلم قد يدركون فى غير مشقة أن هذه الهجرة كانت فى الحق حدثاً ذا شأن عظيم وخطر ، فأما أن يبلغ من خطرها أن تكون هى الحادث يغطى على جميع الحادثات ، وتغلب ذكراه ذكراها ، ويرتفع اسمه فوق أسمائها ، فذلك ما قد يبدو غريباً يحتاج إلى شىء من البحث والنظر . بل لقد يبدو لبعض المتعسفين أمر هذه الهجرة وكأنه مظهر من مظاهر الهزيمة ، وكأنه عمل من أعمال اليأس والتسليم . وكذلك يظنه بعض الكفار ، وكذلك يسميه بعض كتابهم من الافرنج بالهرب والفرار

ولعل أولئك الذين يصفون هذه الهجرة بأشنع الصفات ، ويدعونها بشر الأسماء ، هم الذين سخرهم الله من حيث لا يشعرون ليكشفوا لنا عما أدرك السلف فى هذه الهجرة من روعة تتضاءل دونها كل روعة ، ومن عظمة لا تدانيها عظمة ، ومن حقائق وأسرار ما كنا لنهتدى إليها لولا أن أتاح الله لنا أولئك الحاسدين ينشرون فضل الهجرة كما تنشر النار طيب عَرف العود

وفى الحق قد كانت هذه الهجرة فى ظاهرها نهاية أسيفة لمركة حامية طالت واشتدت بين دعوة الله ودعوة الطاغوت ، ولقى المسلمون فيها بأساً عاصفاً وزلزلوا زلزالاً شديداً . ولعل كُتَّاب السيرة النبوية لم يستوفوا ما فى هذه الحرب المرة من تفاصيل ودقائق ، ولم يتوسعوا فى وصف ما تخللها من بأس وشدة ، ولعلنا لو استطعنا أن نحيط إحاطة شاملة بحقيقة هذه المركة لوجدنا فيها قصة فريدة لمركة كانت من أشد ما عرف التاريخ صراعاً بين الحق والباطل ، واصطداماً بين كلمة الله العليا وكلمة الكفر السفلى . لسنا نعرف من أمر هذه الحرب القاسية إلا ذلك الذى يكرره كتاب السيرة ويتناقلونه من أحاديث الصحيفة ، وأحاديث التعذيب والايذاء ونحو ذلك ، ولكن الذى يدرس طبيعة هذه الحرب ، ويحلل ظروف زمانها ومكانها ، ويستقصى ما ورد فى سياق الحديث عنها فى القرآن وفى السنة ، وفى كتب التاريخ لا يسعه إلا أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأن هذه المركة قد كانت عنيفة إلى أقصى درجات العنف ، وقاسية إلى أبعد حدود القسوة ، وأنها كانت أكبر محنة ابتلى بها المسلمون فى صدر الاسلام ، وكانت نهايتها أن تشتت المسلمون ، وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربُّنا الله . وخرج صاحب الدعوة ورفيقه عليهما السلام ، كما خرج موسى كليم الله خائفاً يترقب (إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا) وهكذا كانت الهجرة نهاية أسيفة لمركة طالت واشتدت بين دعوة الله ودعوة الطاغوت

ثم كانت هـــذه الهجرة نفسها بداية سعيدة ناجحة لمعركة طالت واشتدت بين دعوة الله ودعوة الطاغوت ، وفيها عاد الله سبحانه على المسلمين بالنصر مؤزراً (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمةُ الله هى العليا والله عزيزٌ حكيم)

ليس يشق علينا أن يقولوا عن الهجرة إنها كانت هزيمة وكانت فراراً . ولئن كانت الهجرة هزيمة فلقد كان فى هذه الهزيمة النصر كل النصر والفوز كل الفوز . ولئن كانت الهجرة عملاً من أعمال اليأس والتسليم ، فلقد كان مع اليأس والتسليم أمل باسم ، قضى الله أن يتحقق ، وغلبة شاملة أراد الله أن تتم ؛ ولئن كانت الهجرة هرباً وفراراً ، فلقـد أعقبتها رجعة على الكفر ساحقة ، وكرة كانت القاضية

وهل يجد المسلمون فى تاريخهم ، وهل يجد غير المسلمين فى تاريخهم ، وهل تجد البشرية كلها فى تاريخها حادثة غير هذه الهجرة تستحيل فيها الهزيمة نصراً ويرتد اليأس رجاء ، ويصير الفرار سلطاناً وتمكيناً ؟ أم كان ذلك فضلاً من الله يختص به من يشاء ، وكان فضل الله عليك عظيما ؟

إذا كان المسلمون قد استيأسوا يوم الهجرة وظنوا بالله الظنون ، فان المسلمين قد علموا يوم الهجرة أن يد الله الرحيمة ، قد امتدت من السماء فتلقت الاسلام تحفظه وتؤيده ، وأحاطت بالمسلمين فهدتهم إلى طريق السعادة ، وكتبت لهم أن يكونوا هم الفائزين

لقـد علم المسلمون يوم الهجرة أن الله قد كتب لهذا الدين النصر الخالد ، ولن يخلف الله وعده ؛ ولقـد علم المسلمون يوم الهجرة أن الله وحده هو الذى يحمى هـذا الدين ويدافع عنه ، وأن الله وحده هو الذى يحفظ هذا الدين وينصره (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ، ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ، ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم)

على عبد الرازق

آية الهجـــرة

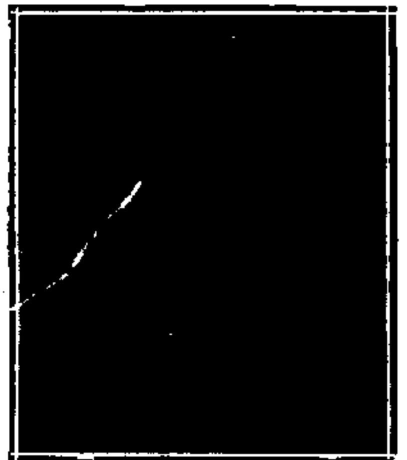
للأستاذ أمين الخولى

المدرس بكلية الآداب

« وجاهدوا فى الله حق جهـاده ، هو اجتباكم ، وسماكم المسلمين »

« ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة »

من أول خطبة له عليه السلام بعد الهجرة



تخيرت الأمم من عيون أيامها ، وأعلام أحداثها ، ماجعلته ميقاتاً تؤرخ به ؛ فقالت لعام كذا من وفاة الأسكندر ، أو غلبة دقيانوس ، أو ميـلاد المسيح ، أوماهومن ذاك . فلما تأذن الله أن يتخـذ الأسـلام ميقاتاً ، أبى له أن يكون مولد فلان ، أو مهلك فلان ، أو تملك مملك ، أو مصرع متوج ؛ فكل أولئك خفيف عند الله فى الميزان ؛ وكل أولئك لقد يهون على الزمان

يرحم الله ابن الخطاب ! لقد كره التاريخ بالوفاة ؛ نفر منه طبعه ، وعافته فيه قوة الحيـاة ، فتجلت بقلبه روح الاسلام مشرقة ؛ وسمت له ألمعية لبقة ؛ إذ آثر لذلك المبدأ يوم جلاد ، واختار له ذكرى جهاد ؛ يوم غالب فيه فرد جماعات ، وناضلت عزيمة عزمات ؛ فبينا البـاطل فى قبائل يتنمر ، والموت على يد الأجلاد يرصد ويدبر ، تصدى لذلك كله « محمد » وحده يسخر ؛ « وجعلنا من بين أيديهم سداً ، ومن خلفهم سـداً ، فأغشيناهم فهم لايبصرون » . ماعز عليه أن يخلى الأهل والوطن ، ولاراعه أن يغترب لغير مستقر ، فغلب الحق وظفر ، وانتصر الايمان وقهر ، فى قلة وروعة وتجرد

تلك آية الهجرة ، وذلك فى اختيارها سر الفكرة ، ألقاه الى

على هامش السيرة

من معجزات الهجرة

للأستاذ على الطنطاوى

قال :

— هل لك يا سُراقةُ فى مائة من الابل ؟

— قال سُراقةُ : ما أحوجنى إلى عشرين ! فكيف السبيل إلى مائة ؟

— قال : تردّ على قريش صاحبها ، فقد خرج من مكة حين مكرت به قريش وأجمعت على قتله ، يهاجراً إلى المدينة ، فبثت قريش عيونها فى سُبل مكة وشعابها ، وبعثت رسلها فنفضوا الصحراء نفضاً فما وقعوا له على أثر ، فعادوا إلى قريش بالإياس منه ، فأذنت قريش فى العرب ، أن من ردّ علينا محمداً فله مائة من الابل ، وقد رأيت ركبة ثلاثة مرّوا علىّ آنفاً ، وإنى لأراهم طلبة قريش . . . فهل لك أن نلحق بهم فنردّهم إلى مكة ونأخذ مائة الناقة فنقتسمها بيننا ؟

فرقص قلب سراقة فرحاً ، ولعب به الطمع : وكان سراقة ابن مالك الجعشمى رجلاً متعفرتاً متشيطناً ، فعقد النية على أن يستأثر وحده بالغنيمة حتى تكون خالصة له ، فقال لصاحبه :

— ما هؤلاء من تريد ، هؤلاء بنو فلان ينشدون ضالّة لهم

فصدّق الرجل وانصرف ، وذهب سراقة فجلس فى نَدِىّ قومه كما كان يجلس كل عشيّة فما اطمأن به مجلس ، وما وعى من أحاديث القوم شيئاً ، وإنما كان يخيَّلُ إليه أنه يرى قطاراً طويلاً من الابل يمرّ أمامه ، ويدور من حوله ، فيخفق لمرآه قلبه ، وتتحلّب أشداقه ... ثم طمى به الطمع ، فبرح النادى إلى بيته ، يلوص بعينه آفاق المستقبل ، ويقلّب أوجه الممكن ويفكر فى مائة الناقة أيملكها حتى تكون طوع أمره يصرّفها كما يشاء فتلد ، وتتكاثر فينحر منها ، ويطعم الجائع ، ويقرى الضيف ، ويرفد الوافد فيسير ذكره فى العرب ، وتنتجعه الشعراء ، وتغنى عدائحه الركبان ؟ أم هو لا ينالها ، ولا يفيد من سفره إلا لذعَ الشمس ، وبَرْح العطش ، وطول التعب ؟ . . .

وامتد به التفكير حتى ما يكاد يخرج منه ، ولا يكاد يستقر على الرأى لحظة حتى ينتقل إلى غيره : لم لا أذهب ؟ إنى سأجدهم فأردّهم على قريش . . ولكن ألم تعجز رسل قريش عن أن تهتدى إليهم ؟ فكيف أجدهم أنا ؟ . . . بل سأجدهم ، إنى سالك كل طريق تؤدى إلى المدينة . . . ولكن ياللسخف ! ألم تسلك رسل قريش هذه الطرق كلها ؟ . . .

ولما أضناه التردد أزمع أن يستفتى الحظ ، ويهتدى بالمصادفة — فأخرج أزلامه فاستقسم بها ، وحاول أن يشتفّ الغيب من خلالها : إن خرج الزلم الذى أكره « لا يضره » لم تكن النياق لى . وإن خرج الذى أحب « يضرّه » كانت لى ، إن الحكم للأزلام . . .

وضرب بيده فخرج الزلم الذى يكره ، فتألم واشتد ذلك عليه ، لأنه إنما عمد إلى الأزلام ليستمد منها العزم على الذهاب لا الرغبة فى القعود ، ثم قال :

إنها أول مرّة ، وهى للشيطان ! وإنى ضارب الثانية ، إن الثانيــة لآلهتنا ، وضرب الثانية فخرج الزلم الذى يكره . فقال لنفسه : مالى ؟ وهل يقنع امرؤ بمرتين ؟ إن المعوّل على الثالثة . وضرب الثالثة فخرج الزلم الذى يكره . . . فتصبب على جبينه العرق البارد ، فألقى الأزلام حنقاً ، وأمر غلامه أن يسرج فرسه ويقوده إلى بطن الوادى ؟ .

الدهر عمر ، وخلده حين حمله القمر ، فجمله فى التاريخ تقديراً ؛ وإنما بعثه لرسالة الاسلام تفسيراً ، يدور مع الأيام ، ويتجدد لكل عام . . . . أفيتساءل المسلمون بعد أين الطريق وكيف النجاة ؟ وتلك آية الهجرة أول الحياة فى تاريخهم وأول تاريخهم فى الحياة !

يا شرق . . . إن لك عند القمر معنى تاريخياً ، وإن لك فيه لرمزاً حيوياً ؛ فان يبد فى الغرب ناحلاً نضو أسفار ، فهو الطلعة يرتاد لك طريق الفخار ؛ وإن يتألق فى الشرق بدراً كاملاً ، فهو تاج مجدك ، ومثال جدك

الآن يزيح القمر سجف الغيب عن عام جديد ، فيطالع فى الشرق وجوهاً ناضرة ، إلى ربها ناظرة ، يحييها منه إشراقة باهرة ، وطلعة نيّرة ، يجل فيهم ما فهموا من معانى المجد والنبل فى آية الهجرة ، ووجوه . . . لاجرى القلم بوصفها ، قد غلبت على أمرها . . . لكنها لم تفقد رجاءها ، ولم تضعف أملها ، فلن تعى ما استمسكت بعروة الايمان « إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين » . . . . أولئك لهم من القمر فى إشفاقه الوديع نظرة راجية ، ولفتة حانية ، وإعادة نافذة ، تثير ذكريات حافزة ، تلهمهم معانى المجد والنبل من آية الهجرة ؟ أمين الخولى

وتريث سراقة حتى إذا تصرّم الليل ، أسحر سالكاً طريق المدينة فسار فيه إلى الصباح فلم يقع من القوم على أثر . فعاد أدراجه يتبع طريق الساحل فلا يلقى فيه أحداً ، حتى زالت الشمس ؛ وحميت الظهيرة ، وتسعرت الأرض ، وأحرق جوفه العطش ، وكان يهزُّه الطمع فيعدو فرسه عدواً شديداً ، حتى يرى الآكام هي التي تسير عن يمينه وشماله ، يأخذ بعضها بسفوح بعض ... ثم يدركه القنوط فيدع الفرس يمشي متباطئاً متخاذلاً ... حتى إذا بلغ منه التعب والعطش والجوع واليأس نظر فاذا عند الغار من جبل ثور محمد وصاحبه . . . فصبّت القوّة في عضلاته ، وعادت اليه الحمية والنشاط ، فصاح في الفرس ، فانطلق نحو الغار كالسهم المرسل ؟

* * *

قال أبو بكر رضي الله عنه :

. . . فقلت : هذا الطلب قد لحقنا يارسول الله وبكيت

فقال : ما يبكيك ؟

قلت : ما والله على نفسي أبكي ، ولكن أبكي عليك

فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : اللهم اكفناه بما شئت ، فساخت فرسه في الأرض إلى بطنها . . .

فلما رأى سراقة مارأى ، وثب عن الفرس ، وقد طار الخوف بلبه ، وأبرأه الفزع من داء الطمع ، وصاح :

— يامحمد ! قد علمت أن هذا عملك ، فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه ، فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأنقذه الله . . . وكله فكان من قوله له :

— كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى ؟

* * *

ورجع سراقة ، وقد اجتمعت عليه منذ اليوم المتناقضات من الأفكار والعواطف ، وهاج نفسه الطمع والخوف ، والأمل واليأس ، فجعل يقهقه في هذه البادية ، ويصرخ كمن به جنة ، ولم لا يجنّ ؟ وقد كان يأمل أن ينال الغنى ففاته ما كان يأمل ، وقد فتحت فاها لتبلعه الأرض فنجا ، ولم يصدر بعد هذا كله إلا بوعد دونه خرط القتاد ، وخرق النار ، وخوض البحار ...

— ماذا ؟ أيعدني محمد سواري كسرى ، كسرى شاهنشاه ملك الملوك ... وهو يقطع الصحراء هارباً من قومه ، مختفياً في غار — ليس معه إلا رجل واحد — أيبتلع هذا الغار ملك كسرى وجبروته وجلاله ؟ أتنتصر هذه الصحراء على ملك كسرى وجنانه وأنهاره ؟ أيغلب هذان المهاجران كسرى على خزائنه وجنوده وبلاده ؟ ولو أن العرب اجتمعت كلها ، ورمت عن قوس واحدة ، ما نالت من كسرى منالاً ، على أنها لن تجتمع العرب قط ، ومن ذا الذي يجمع مضر بن نزار وقحطان . . . وبكراً وتغلب . . . وعبساً وذبيان . . . وأين يذهب ما بينهما من دماء ؟ . . .

أما إن قريشاً كانت أدرى بصاحبها حين قالت عنه ما قالت فما أراه يعجبه أن ينجو من قريش ، ويفلت من أذاها حتى يكون له ملك كسرى . . . . إنه والله ما يريد إلا أن يتركنا « نحن أيضاً » مجانين !

وانطلق يقهقه ويصرخ :

ويحٌ لك يا سراقة ! ستلبس سواري كسرى . . . كسرى شاهنشاه ملك الملوك

والفرس ينفر من صراخه ، فيطير على وجهه حتى اختفى وراء الآكام . . .

* * *

ومرّت السنون

وكان يوم صائف متوقد ، ففرّ سراقة من حرّه إلى حائط له ، فما استقر فيه حتى سمع منادياً ينادي :

— ياسراقة بن مالك الجُعْشُمي . . . . ياسراقة . . . .

فصاح : أن لبيك ، وانطلق يؤم الصوت ، فاذا رسول عمر يدعوه أن أجب أمير المؤمنين

وإذا الشمس بين يدي عمر تأخذ الأبصار ببريقها ولمعانها ، وإذا بين يديه تاج كسرى ومِنْطَقَته . . .

قال عمر :

هل ياسراقة ، أتذكر خبر الغار ، وسواري كسرى شاهنشاه ملك الملوك ؟ . . .

— قال : نعم

— قال . قد أذهب الله بالاسلام ملك كسرى ، فلا كسرى بعد اليوم . . . هات يديك

فألبسه السوارين ، وقال ارفعهما فقل :

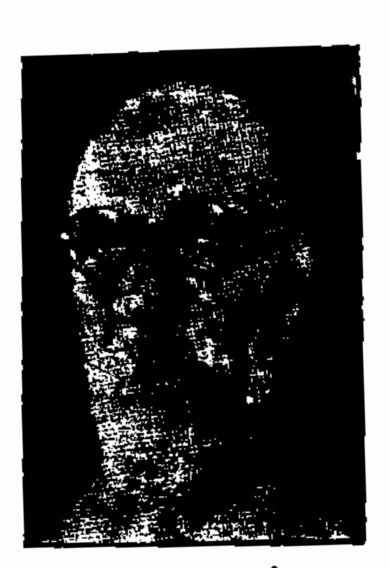
— الله أكبر ! الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز ، وألبسهما سراقة بن مالك ، أعرابياً من بني مدلج[1]

* * *

(١) انظر النص التاريخي لحديث سراقة في كتابي : (أبو بكر الصديق رضي الله عنه) صفحة ٨٣

محـــــرم

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي



يبشّر بالعام الجديد محرّمُ ... وينعته كلٌّ بما هو يزعمُ
فيوليه من إطرائه متفنّنٌ ... ويكثر من ذمّ له متشئّمٌ
ولا يعلم الإنسان ماذا به له ... ومَنْ فيه قد يشقى ومن فيه ينعم
ومن ذا الذي فيه المنايا تغوله ... ومن ذا الذي منهن ينجو ويسلم
جديدٌ، أجل، عامٌ جديدٌ تجدّ في ... لياليه أحداثٌ بها لست أعلم
فيفرح قلبٌ بالكآبة مثقلٌ ... ويحزن قلب بالمسرّة مفعم
وربّ سعيدٍ بالشقاء مهدّدٌ ... وربّ شقيٍّ بالسعادة يحلم
ونفرح بالأعوام إمّا تصرّمت ... على أنّها من عمرنا تتصرّم
وددت لو أن العام قال منبّئاً ... وماذا يقول العام والعام أبكم ؟

***

وللغرب أعوامٌ وللشرق مثلها ... ولكنها الأعوام في الشرق تُسئم
وفي الغرب أفراحٌ وفي الشرق غمّةٌ ... وما الأرض إلا جنّة وجهنّم
شقيقان هـذا ليل أبنائه بهيم ... مضيء، وهـذا يوم أهليه مظلم
وتختلف الأخلاق إلا أقلّها ... ويختلف التفكير والعرق والدّم
بلى اختلفا فالغرب منصرف القوى ... إلى فعله والشرق بالقول مغرم
ونحن تثبّطنا، وهم قد تعجّلوا ... ونحن تأخّرنا، وهم قد تقدموا
وما كان مجدٌ كان يبنيه أهله ... كمجدٍ بأيدي أهله يتهـدّم

***

ومن لي بعام لا يشابه غيره ... أرى فيـه أظفار البغاة تقلّم
وأبخل أرضٍ بالرجولة بقعةٌ ... يضام الفتى فيها ولا يتـبرّم
إذا أنت لم تألم من الضغط غاضباً ... فمن أي شيء في حياتك تألم ؟
أدير عيوني في الوجوه فلا أرى ... سوى الذل مقروءا ولا أتوسم
ليحزنني أن المنادل آثرت ... صموتاً وأن الزهر لا يتبسّم
لقد صوّح الزهر الذي كان باسما ... ولم يبق للصيداح ذاك الترنم
يريدون ألا يشكو الحزن ثاكل ... وألا يئنّ المثخن المتـألم
من الناس آلافٌ يعضّهم الطوى ... وفي كل ألفٍ واحدٌ يتنعّم
إذا عجز المكروب عن شرح ما به ... فإن دموع العين عنه تترجم
أمن قام يشكو بثّه فهو مزعجٌ ... ومن قال يبغي حقه فهو مجرم !
وإنيَ لا أدري وإن كنت دارياً ... أقومي تعاموا أم عن الحق قد عموا
بني وطني لا تسكتوا عن حقوقكم ... أليس لكم منكم فمٌ يتكلم
لكم ثروة في الأرض أتعابها لكم ... وأرباحها للغرب نهبٌ مقسّم
ولا خير في بدء الفتى بجليلةٍ ... إذا كان عن عجز له لا يتمّم
ولا فخر إلا للذي هو ماجدٌ ... ولا مجـد إلا للذي يتقحّم
وما الحرّ إلا من إذا ضيم لم يلن ... وإن قال حقاً فهو لا يتلعثم
ويا ربّ فردٍ قد أتى في جهاده ... بما لم يكن يأتي الخميس العرمرم
وما بال أبناء العروبة أصبحت ... على الذل أشتاتاً تشبّ وتهرم
وما بال أبناء العروبة سلّمت ... وقد كان عهدي أنها لا تسلّم
لآلام قومي الصّيد نفسي تألمت ... لك الويل يا نفسي التي تتألم
وماخفقان القلب ما أنت سامعٌ ... ولـكنه آمال قومٍ تحطّم

(بغداد) — جميل صدقي الزهاوي

يا سراقة لقد انتصر المهاجران على كسرى وقيصر، وكان لهما ملك الأرض! يا سراقة! لقد أضاء النور الذي انبثق من بطن مكة الدنيا جميعاً! يا سراقة! لقد ظفر الغار بالعراق والشام، وغلبت الصحراء العالم!

يا سراقة! لقـد كان ملك كسرى وقيصر كبيراً قوياً، ولكن الله مع الذين آمنوا، والله أقوى . . . والله أكبر! . . .

علي الطنطاوي
عضو «المجمع الأدبي» بدمشق

الرجولة فى الاسلام

للأستاذ أحمد أمين

لعل من أهم الفروق التى تميز المسلمين فى أول أمرهم وفجر حياتهم عن المسلمين اليوم ، « خلق الرجولة » فقد غنى العصر الأول بمن كانوا هامة الشرف ، وغرة المجد ، وعنوان الرجولة

تتجلى هذه الرجولة فى « محمد » إذ يقول : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . كما تتجلى فى أعماله فى أدوار حياته ، فحياته كلها سلسلة من مظاهر الرجولة الحقة ، والبطولة الفذة ، إيمان لا تزعزعه الشدائد ، وصبر على المكاره ، وعمل دائب فى نصيرة الحق ، وهيام بمعالى الأمور ، وترفع عن سفسافها . حتى إذا قبضه الله إليه لم يترك ثروة كما يفعل ذوو السلطان ، ولم يخلف أعراضاً زائلة كما يخلف الملوك والأمراء . إنما خلف مبادئ خالدة على الدهر ، كما خلف رجالاً يرعونها وينشرونها ، ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم من أجلها

وتاريخ الصحابة ومن بعدهم مملوء بأمثلة الرجولة ، فأقوى ميزات « عمر » أنه كان « رجلاً » لا يراعى فى الحق كبيراً ، ولا يبالى عظيماً أو أميراً . يقول فى إحدى خطبه : « أيها الناس انه والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه »

وينطق بالجمل فى وصف الرجولة فتجرى مجرى الأمثال كأن يقول : « يعجبنى الرجل إذا سيم خطة ضيم أن يقول : « لا » بملء فيه » ـ ويضع البرامج لتعليم الرجولة فيقول : « علموا أولادكم العوم والرماية ، ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا ، ورووهم ما يجمل من الشعر » . ويضع الخطط لترين الولاة على الرجولة فيكتب إليهم . « اجعلوا الناس فى الحق سواء ، قريبهم كبعيدهم ، وبعيدهم كقريبهم ، إياكم والرشا والحكم بالهوى ، وأن تأخذوا الناس عند الغضب » ، ويعلمهم كيف يسوسون الناس ويربونهم على الرجولة فيقول : « ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تحرموهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم »

من أجل هذا كله كان هذا العصر مظهراً للرجولة فى جميع نواحى الحياة ، تقرأ تاريخ المسلمين فى صدر حياتهم فيملؤك روعة ، وتعجب كيف كان هؤلاء البدو وهم لم يتخرجوا فى مدارس علمية ، ولم يتلقوا نظريات سياسية ، حكاماً وقادة لخريجى العلم ووليدى السياسة ـ إنما هى الرجولة التى بثها فيهم دينهم وعظماؤهم هى التى سمت بهم وجعلتهم يفتحون أرقى الأمم مدنية وأعظمها حضارة ، ثم هم لا يفتحون فتحاً حربياً يعتمد على القوة البدنية وكفى ، إنما يفتحون فتحاً مدنياً إدارياً منظماً ، يعلمون به دارسى العدل كيف يكون العدل ، ويعلمون علماء الادارة كيف تكون الادارة ، ويلقون بعملهم درساً على العالم أن قوة الخلق فوق مظاهر العلم ، وقوة الاعتقاد فى الحق فوق النظريات الفلسفية والمذاهب العلمية ، وأن الأمم لا تقاس بفلاسفتها بمقدار ما تقاس برجولتها

هل سمعت عدلاً خيراً من أن يضرب ابن لعمرو بن العاص — وهو والى مصر — رجلاً مصرياً فيستحضره عمر بن الخطاب وابنه ، ثم يأمر المصرى أن يضرب من ضربه وأن يضع السوط على صلعة عمرو ، ثم يقول له : « مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهم أحراراً » . أو هل سمعت عطفاً على الرعية ، وأخذ الولاة بالحزم كالذى روى أن معاوية قدم من الشام على عمر ، فضرب عمر بيده على عضده فتكشف له عن عضد بض ناعم . فقال له عمر : « هذا والله لتشاغلك بالحمامات ، وذوو الحاجات تُقطّع أنفسهم حسرات على بابك ! »

أو هل سمعت قولاً فى العدل يحققه العمل كالذى يقوله عمر « إذا كنت فى منزلة تسعنى وتعجز الناس ، فوالله ما تلك لى بمنزلة حتى أكون أسوة للناس » ـ أو هل رأيت حزماً فى الادارة كالذى فعله فى مسح سواد العراق وترتيب الخراج ،

وتدوين الدواوين ، وفرض العطاء

حقاً لقد كان عمر فى كل ذلك رجلاً ، ولئن كان هناك رجال قد امتصوا رجولة غيرهم ، ولم يشاءوا أن يجعلوا رجالاً بجانبهم ، فلم يكن عمر من هـذا الضرب ، إنما كان رجلاً يخلق بجانبه رجالاً ، فأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص والمثنى بن حارثة ، وكثير غيرهم كانوا رجالاً نفخ فيهم عمر من روحه كما نفخ فيهم الاسلام من روحه ، وأفسح لهم فى رجولتهم ، كما أفسح لنفسه فى رجولته

وكان أدبهم فى ذلك العصر صورة صحيحة لرجولتهم يتفننون فيه بأفعال البطولة ومظاهر الرجولة

وخير الشعر أشرفه رجالاً وشر الشعر ما قال العبيد

يعتد الشاعر بنفسه ويسمو بها عن النعماء والبأساء فيقول :

قد عِشْتُ فى الناس أطواراً على طرُقٍ
شَتَّى وقاسيتُ فيها اللينَ والفَظَعَا
كُلاًّ بلوتُ ، فلا النعماء تُبْطِرُنى ولا تَخَشَّعتُ من لأوائها جَزَعا
لايملأ الهوْلُ صدْرِى قبلَ موقعه ولا أضيقُ به ذَرْعا إذا وَقَعَا

ويعتز بشرفه وقوته وإبائه الضيم فيقول :

وكنت إذا قومٌ رمَوْنى رميتهم فهل أنا فى ذا يالَ هَمْدانَ ظَالِمُ
متى تجمَع القلبَ الذَّكِىَّ وَصارِماً
وأنفاً حَمِيًّا تَجْتَنِبْكَ المَظَالِمُ

ويمدح رجل قوماً فيقول « انهم كالحجر الأخشن إن صادمته آذاك وإن تركته تركك »

ويقول أميرهم : « والله ما يسرنى أنى كُفيتُ أمر الدنيا كله قيل ولم أيها الأمير ، قال لأنى أكره عادة العجز » إلى كثير من أمثال ذلك

وعلى الجملة فأدبهم تام الرجولة ، قد شمت فيه الحياة ، وامتلأ بالقوة ، حتى اللاهى الماجن كأبى محجن الثقفى : كان يغازل ، وكان يشرب ، ولـكن إذا جد الجد وعزم الأمر كان رجلاً يبيع نفسه لدينه ، ويبيع كل شىء لشرفه وشرف قومه

ونستعرض الغزل فى الجاهلية وصدر الاسلام ، فاذا هو غزل قوى لا مُيُوعة فيه ، ولا تخنث ، لا يذوب صبابة ، ولا يلتاع هياماً ؛ ولا يفقد الرجل فيه رجولته لحبه

وقلتُ لقلبى حين لجَّ به الهوَى وكلَّفنى مَالاَ أُطِيقُ منَ الحُبِّ
ألا أيُّها القلبُ الذى قادَهُ الهوَى أَفِقْ لاَأَقَرَّاللهُ عَيْنَكَ مِنْ قَلْبِ

وما أنا بالنَّكْسِ الدَّنِىِّ وَلاَالذى إذا صَدَّ عَنِّى ذُو المَوَدَّةِ أَحْرَبُ
وَلـكنّى إنْ دَامَ دُمتُ وَإنْ يَكُنْ
لهُ مذْهَبٌ عَنِّى فَلِى عنْهُ مَذْهَبُ

ولم يضن التاريخ على المسلمين من حين لآخر برجال لفتوا وجه الدهر ، وغيروا مجرى الحوادث ، ودفعوا عن قومهم الخطوب ، وأنزلوهم منزل العز والمنعة ، تضيق عن وصف أعمالهم الرسائل والـكتب

ثم توالت الأحداث وتتابعت النوب ، تفل من شوكتهم ، وتفت فى رجولتهم حتى رأيناهم بذلوا الشرف للمال ، وقد كان آباؤهم يبذلون المال للشرف ، ولم ينظروا إلا إلى أنفسهم وذويهم ، وكان آباؤهم ينظرون إلى دينهم وأمتهم ، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً يذيق بعضهم بأس بعض ، فـكانوا حرباً على أنفسهم بعـد أن كانوا جميعاً حرباً على عدوهم ـ ورضوا فى الفخر أن يقولوا « كان آباؤنا » مع أن شاعرهم يقول :

إذا أنت لم تَحْمِ القـديم بحادث
من المجد لم يَنْفَعْكَ ما كانَ مِنْ قبل

وناثرهم يقول : « لم يدرك الأول الشرف إلا بالفعل ، ولا يدركه الآخر إلا بما أدرك به الأول »

ورأينا خير ما فى الأمم حاضرها وخير ما فينا ماضينا

* * *

أريد بالرجولة صفة جامعة لـكل صفات الشرف من اعتداد بالنفس واحترام لها ، وشعور عميق بأداء الواجب ، مهما كلفه من مصاعب ، وحماية لـما فى ذمته من أسرة وأمة ودين ، وبذل الجهد فى ترقيتها ، والدفاع عنها ، والاعتزاز بها ، وإباء الضيم لنفسه ولها

وهى صفة يمكن تحققها مهما اختلفت وظيفة الانسان فى الحياة فالوزير الرجل من عد كرسيه تكليفاً لا تشريفاً ، ورآه

وسيلة للخدمة لا وسيلة للجاه ، أول ما يفكر فيه قومه ، وآخر ما يفكر فيه نفسه ، يظل فى كرسيه ما ظل محافظاً على حقوق أمته ، وأسهل شىء طلاقه يوم يشعر بتقصير فى واجبه ، أو يوم يرى أن غيره أقوى منه فى حمل العبء ، وأداء الواجب ، يجيد فهم مركزه من أمته ومركز أمته من العالم ، فيضع الأمور مواضعها ويرفض فى إباء أن يكون يوماً ما عوناً للأجنبى عليها ، فاذا أريد على ذلك قال : « لا » عليء فيه ، فكانت « لا » منه خيراً من ألف « نعم » وكانت « لا » منه وساماً تدل على رجولته ، وكانت « لا » منه خير درس للناشئين يتعلمون منه الرجولة — يقتل المسائل بحثاً ودرساً ، ويعرف فيها موضع الصواب والخطأ ومقدار النفع والضرر ، ثم يقدم فى حزم على عمل ما رأى واعتقد لا يعبأ بتصفيق المصفقين ، ولا بذم القادحين ، إنما يعبأ بشىء واحد هو صوت ضميره ، ونداء شعوره

والعالم الرجل من أدى رسالته لقومه من طريق علمه ، يحتقر العناء يناله فى سبيل حقيقة يكتشفها أو نظرية يبتكرها ، ثم هو أمين على الحق لا يفرح بالجديد لجدته ، ولا يكره القديم لقدمه ، له صبر على الشك ، وغرام بالتفكير وبطء فى الجزم ، وصبر على الشدائد ، وازدراء بالاعلان عن النفس ، وتقديس للحقيقة ، صادفت هوى الناس أو أثارت سخطهم ، جلبت مالا أو أوقعت فى فقر ، يفضل قول الحق وإن أهين على قول الباطل وإن كرم

والصانع الرجل من بذل جهده فى صناعته ، فلم يشأ إلا أن يصل بصناعته إلى أرقى ما وصلت إليه فى العالم ، عشقها وهام بها حتى بلغ بها ذروتها ، يشعر بأنه وطنى فى صناعته كوطنية السياسى فى سياسته ، وأن أمته تخدم من طريق الصناعة كما تخدم من طريق السياسة ، وأن الصناعة لا تقل فى بناء المجد القومى عن غيرها من شؤون الدولة ، فهو لهذا يحسن فنه ، وهو لهذا يحسن سلوكه ، وهو لهذا يرفض ربحاً كثيراً مع الخداع ، ويقنع بربح معتدل مع الصدق ، وهو لهذا كله كان رجلاً

بل الرجولة تكون فى المعنويات كما تكون فى الماديات ، فالرأى العام الرجل هو الرأى العام اليقظ ، شديد التنبه لما يحيط به من مخاطر ، يعرف كيف يدفع عنه الأذى إذا نيل منه ، ويصد الشر إذا نزل به ، صحيح التقدير لأعمال الرجولة ، شديد الاحتقار للنذالة ، يظهر إعجابه للمحسن أيّاً ما كان فى اشكال تدعو إلى الاعجاب ، ويظهر ازدراءه للمسىء أيّاً ما كان فى اشكال تدعو إلى الاعجاب أيضاً ، ولا يكون الرأى العام رجلاً حتى تشيع فى أفراد الأمة الرجولة وتكثر فيهم البطولة — وفى الرجولة متسع للجميع ، فالزارع فى حقله قد يكون رجلاً ، والتلميذ فى مدرسته قد يكون رجلاً ، وكل ذى صناعة فى صناعته قد يكون رجلاً ، وليس يتطلب ذلك إلا الاعتزاز بالشرف وإباء المذلة

* * *

من لنا ببرنامج دقيق للرجولة كالبرنامج الذى يوضع للتعليم ، يبدأ برعى الطفل فى بيته فيعلمه كيف يحافظ على الكلمة تصدر منه كما يحافظ على الصك يوقع عليه ، ويعلمه كيف يكون رجلاً فى ألعابه ، فيعدل بين أقرانه فى اللعب كما يحب أ يعدلوا معه ، ويلاعبهم بروح الرجولة من حب ومساواة ومرح فى صدق وإخلاص

ويسير مع التلميذ فى مدرسته ، فيعلمه كيف يحترم نفسه ، وكيف لا يفعل الخطأ وإن غفلت عنه أعين الرقباء ، ولا يغش فى الامتحان ولو تركه المعلم وحده مع كتبه ؛ وكيف يعطف على الضعفاء ويبذل لهم ما استطاع من معونة

ويتمشى مع الطالب فى جامعته فيعوّده الاعتزاز بنفسه والاعتزاز بجامعته والاعتزاز بأمته . ويبعثه على أن يفكر فى غرض شريف له فى الحياة يسعى لتحقيقه — حتى إذا ما أتم دراسته كان قاضياً رجلاً أو معلماً رجلاً ، أو سياسياً رجلاً ، وعلى الجملة انساناً رجلاً

ويتابع الأمة فيضع لها الأدب الذى يبعث قوة ، والأناشيد والأغانى التى تملأ النفس أملاً . ويراقب فى شدة وحزم دور السينما والتمثيل والملاهى ، فلا يسمح بما يضعف النفس ويثلم الشرف ، ولا يسمح بما يحيى الشهوة ويميت العزيمة ، ويأخذ على أيدى الساسة والحكام ورجال الشرطة ، حتى لا يقسوا على الناس فيميتوهم ، ولا يرهبوهم فيذلوهم

من يبادلنى فيأخذ كل برامج التعليم ، وكل ميزانية الدولة ويسلمنى برنامجاً للرجولة وميزانية لتنفيذه ليس غير

ولى كبد مقروحة ، من يبيعنى ... بها كبداً ليست بذات قروح ؟

أحمد أمين

حقيقة المسلم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

لا يعرف التاريخ غيرَ محمد (صلى الله عليه وسلم) رجلاً أفرغ اللهُ وجودَه فى الوجود الانسانىّ كلِّه ؛ كما تنصبُّ المادةُ فى المادة ، لتمتزج بها ، فتُحوّلَها ، فتُحدثَ منها الجديد ، فاذا الانسانيةُ تتحوّل به وتنمو ، واذا هو (صلى الله عليه وسلم) وجودٌ سارٍ فيها فما تبرح الانسانيّةُ تنمو به وتتحوّل

كان المعنى الآدمىُّ فى هذه الانسانية كأنما وَهَنَ من طول الدهر عليه يتحيَّفُه ويمحوه ويتعاوره بالشر والمنكَر ؛ فابتعث اللهُ تاريخَ العقل بآدمَ جديدٍ بدأت به الدنيا فى تطوُّرها الأعلى من حيث يرتفع الانسانُ على ذاته ، كما بدأتْ من حيث يوجد الانسانُ فى ذاته ؛ فكانت الانسانيةُ دهرَها بين اثنين : أحدهما فَتحَ لها طريقَ المجيء من الجنة ، والثانى فَتحَ لها طريق العودة إليها . كان فى آدم سرُّ وجود الانسانية ، وكان فى محمد سرُّ كمالها.

* * *

ولهذا سُمّىَ الدينُ (بالاسلام) ؛ لأنه إسلام النفس إلى واجبها ، أىْ إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية ؛ كأن المسلم ينكر ذاته فيُسلمها إلى الانسانية تُصرِّفها وتمتلها فى كمالها ومعاليها ؛ فلا حظَّ له هو من نفسه يُمسكها على شهواته ومنافعه ، ولكنْ للانسانية بها الحظّ

وما الاسلام فى جملته إلا هذا المبدأ : مبدأُ إنكار الذات و(إسلامُها) طائعةً على المَنْشَط والمَكْرَه لفروضها وواجباتها ؛ وكلما نكصت إلى منزعها الحيوانىّ ، أسلمها صاحبُها إلى وازعها الالهىّ . وهو أبداً يَرُوضُها على هذه الحركة مادام حيّاً ؛ فينتزعها كلَّ يوم من أوهام دنياها ليضعَها بين يَدَىْ حقيقتها الالهيّة : يروضها على ذلك كل يوم وليلةٍ خمسَ مرّاتٍ مُسماةٍ فى اللغة خمسَ صلوات ، لا يكون الاسلام إسلاماً بغيرها ؛ فلا غرو كانت الصلاةُ بهذا المعنى كما وصفها النبىُّ (صلى الله عليه وسلم) : هى عمادَ الدين

* * *

بين ساعاتٍ وساعات فى كلِّ مطلع شمس من حياة المسلم صلاة ، أىْ إسلامُ النفس إلى الارادة الاجتماعية الشاملة[1] القائمة على الطاعة للفرض الالهىّ ، وإنكارٌ لمعانيها الذاتيةِ الفانية التى هى مادة الشرِّ فى الأرض ، وإقرارُها لحظاتٍ فى حيِّز الخير المحض البعيدِ عن الدنيا وشهواتها وآثامها ومنكَراتها . ومعنى ذلك كلِّه تحقيقُ المسلم لوجود روحه ؛ إذ كانت أعمال الدنيا فى جملتها طُرقاً تتشتّت فيها الأرواحُ وتتبعثر ، حتى تضلَّ روح الأخ عن روح أخيه فتنكرها ولا تعرفها !

وهذا الوجود الروحىّ هو مبعثُ الحالة العقلية التى جاء الاسلامُ ليهدىَ الانسانيةَ اليها ؛ حالةِ السلامِ الروحانىّ الذى يجعل حربَ الدنيا المهلكةَ حرباً فى خارج النفس لافى داخلها ، ويجعل ثروةَ الانسان مقدَّرة بما يعامل اللهَ والانسانيةَ عليه ؛ فلا يكون ذهبُه وفضّتُه ما كتبتْ عليه الدول « ضُرِبَ فى مملكة كذا » ، ولكن ما يراه هو قد كُتب عليه « صُنِعَ فى مملكة نفسى » ؛ ومن ثمّ لا يكون وجودهُ الاجتماعىُّ للأخذ حَسْبُ ، بل للعطاء أيضاً ؛ فان قانون المال هو الجمع ، أما قانونُ العمل فهو البذل

بالانصراف إلى الصلاة وتجمّعِ النيّةِ عليها ، يستشعر المسلمُ أنه حطم الحدودَ الأرضيّةَ المحيطة بنفسه من الزمان والمكان ، وخرج منها إلى روحانيةٍ لا يُحَدُّ فيها إلا بالله وحده

وبالقيام فى الصلاة ، يحقّق المسلمُ لِذاته معنى إفراغِ الفكرِ السامى على الجسم كلِّه ليمتزجَ بجلال الكون ووقاره ، كأنه

(١) هذه هى حكمة صلاة الجماعة والحث عليها وكونها أفضل من غيرها وأن الثواب الأكبر فيها وحدها

كأنه منتصبٌ مع الكائنات يسبّح بحمده

وبالتولى شطر القبلة فى سَمْتها الذى لا يتغيّر على اختلاف أوضاع الأرض ، يَعرف المسلمُ حقيقةَ الرمز للمركز الثابت فى روحانية الحياة ؛ فيَحمل قلبُه معنى الاطمئنان والاستقرار على جاذبيّة الدنيا وقَلَقها

وبالركوع والسجود بين يَدَى الله ، يُشعِر المسلمُ نفسه معنى السُّمو والرِّفعة على كل ماعدا الخالق من وجود الكون

وبالجلسة فى الصلاة وقراءة التحيات الطيبات ، يكون المسلمُ جالساً فوق الدنيا يحمد الله ويُسلم على نبيّه وملائكته ويشهد ويدعو

وبالتسليم الذى يخرج به من الصلاة يُقبِل المسلمُ على الدنيا وأهلها إقبالاً جديداً من جهتى السلام والرحمة

هى لحظاتٌ من الحياة كلَّ يوم فى غير أشياء هذه الدنيا ؛ لجمع الشهوات وتقييدها بين وقتٍ وآخر بسلاسلها وأغلالها من حركات الصلاة ، ولتمزيق الفناء خمسَ مراتٍ كلَّ يوم عن النفس ؛ فيرى المسلمُ من ورائه حقيقةَ الخلود ، فتشعر الروحُ أنها تنمو وتتسع . هى خمسُ صلوات ، وهى كذلك خمسُ مرّاتٍ يفرغ فيها القلبُ مما امتلأ به من الدنيا ، فما أدقَّ وأبدعَ وأصدقَ قولَه صلى الله عليه وسلم : « جُعِلَتْ قُرَّةُ عينى فى الصلاة » (١)

* * *

لم يكن الاسلامُ فى حقيقته إلا إبداعاً للصّيغة العمليّة التى تنتظم الانسانيةُ فيها ؛ ولهذا كانت آدابه كأنها حرّاساً على القلب المؤمن كأنها ملائكةٌ من المعانى ؛ وكان الاسلامُ بها عملاً إصلاحياً وقع به التطوُّرُ فى عالم الغريزة ، فنقله إلى عالم الخلق ، ثم ارتقى بالخُلُق إلى الحقّ ، ثم سما بالحقّ إلى الخير العام ؛ فهو سُموٌّ فوق الحياة بثلاث طبقات ، وتدرُّجٌ إلى الكمال فى ثلاث منازل ، وابتعادٌ عن الأوهام بمسافة ثلاث حقائق

وبتلك الأعمال والآداب كانت الدنيا المسلمةُ التى أسسها النبى (صلى الله عليه وسلم) دنيا أسلمتْ طبيعتُها ، فأصبحت على ما أراد المسلمون لا ما أرادتْ هى ؛ وكأنها قائمة بنواميسَ من أهلها لا على أهلها ؛ وكان الظاهر أن الاسلام يغزو الأممَ بالعرب ويفتتحها ، ولكن الحقيقة العجيبة أن أقلياً من الدنيا كان يحارب سائرَ أقاليم الأرض بالطبيعة الأخلاقية الجديدة لهذا الدين ؛ وكأن الله تعالى ألقى فى رمال الجزيرة روحَ البحر ، وبعثها بَمْثه الآلهىّ لأمره ، فكان النبى (صلى الله عليه وسلم) هو نقطةَ المدّ التى يفور البحر منها ، وكان المسلمون أمواجَه التى غُسِلتْ بها الدنيا . . .

لهذا سمع المسلمون الأوّلون كلامَ الله تعالى فى كتابه ، وكلامَ رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا كما يسمعون القول ، ولكن كما يتلقون الحكم النافذ القضىّ ؛ ولم يجدوا فيه البلاغةَ وحدها ، بل روعةَ أمر السماء فى بلاغة ؛ واتصلوا بنبيهم ، ثم بعضهم ببعض ، لا كما يتصل إنسان بانسان ، بل كما تتصل الأمواجُ بقوة المدّ ، ثم كما يُمدّ بعضها بعضاً فى قوةٍ واحدة

وحققوا فى كماله (صلى الله عليه وسلم) وجودَهم النفسىّ ؛ فكانوا من زخارف الحياة وباطلها فى موضع الحقيقة الذى يُرى فيه الشىءُ لا شىء

ورأوا فى إرادته (صلى الله عليه وسلم) النقطة الثابتة فيما يتضارب من خيالات النفس ، فكانوا أكبر علماء الأخلاق على الأرض ، لامن كتبٍ ولاعلمٍ ولافلسفة ، بل من قلب نبيهم وحده

وعرفوا به (صلى الله عليه وسلم) تمامَ الرجولة ؛ ومتى تمت هذه الرجولةُ تمامَها فى إنسان رجعتْ له الطفولةُ فى روحه ، وامتلك تلك الطبيعةَ التى لا تملكها إلا أعظمُ الفلاسفة والحكماء ، فأصبحَ كأنما عشى فى الحياة الى الجنة بخطواتٍ مُسدَّدةٍ لا تزيغ ولا تنحرف فلا شرّ ولا رذيلة ، ودنياه هى الدنيا كلُّها بشمسها وقمرها ، علكها وإن لم علك منها شيئاً مادامت فى قلبه طبيعةُ السرور ، فلا فقرَ ولا غنى مما يشعر الناسُ بمعانيه ، بل كلُّ ما أمكن فهو غنىٌّ كامل ، إذلم تعُد القوةُ فى المادة تزيد بزيادتها وتنقص بنقصها ، بل القوةُ فى الروح التى تتصرف بطبيعة الوجود ، وتدفع قُوَى الجسم بمثل دوافع الطفولة النامية المتقلّبة ، حتى لتجعل من النور والهواء ما يُؤتدَمُ به مع الخبز

(١) كان النبى (صلى الله عليه وسلم) يستبطىء الصلاة وقد جاء وقتها ، من شدة شوقه اليها فيقول : « أرحنا بها يا بلال » ولا أفصح ولا أدق فى تصوير نفسيته (صلى الله عليه وسلم) وأشواق روحه العالية من قوله أرحنا بها . فهذا كمال الاتصال بينه وبين خالقه

القَـفار ، كما يؤتَدَمُ باللحم وأطايبِ الأطعمةِ [١]

وبذلك لاتتسلَّط ضرورةٌ على الجسم — كالجوع والفقر والألم ونحوها — إلا كان تَسلُّطها كأنه أمرٌ من قوةٍ في الوجود الى قوةٍ في هذا الجسم أن تَظهرَ لتعملَ عملها المُعجز في إبطال هذه الضرورة . وهذا الجنس من الناس كالأزهار على أغصانها الخضْر ؛ لو قالت شيئاً لقالت : « إن ثروتي في الحياة هي الحياةُ نفسها ، فليس لي فقرٌ ولا غنى ، بل طبيعةٌ أوْ لا طبيعة . . »

***

ولقد كان المسلم يُضْرب بالسيف في سبيل الله ، فتَقَعُ ضَرَباتُ السيوفِ على جسمه فتُمزِّقُه ؛ فما يُحسها إلا كأنها قُبَلُ أصدقاء من الملائكة يَلْقَونه ويعانقونه !

وكان يبْتَلى في نفسه وماله ، فلا يشعر في ذلك أنه المُرزَأُ المُبْتَلى يُشرِقُ فيه الحزنُ والانكسار ، بل تظهر فيه الانسانيةُ المنتصرةُ كما يَظهر التاريخُ الظافرُ في بطلٍ العظيم أُصيبَ في كلِّ موضعٍ من جسمه بجراح ، فهي جراحٌ وتشويهٌ وألم ، وهي شهادةُ النصر !

ولم تكن أثقالُ المسلم من دنياه أثقالاً على نفسه ، بل كانت له أسباب قوةٍ وسمُو ؛ كالنَّسر المخلوق لطبقات الجوِّ العليا ، يحمل دائماً من أجل هذه الطبقات ثقل جناحيه العظيمين

وكانت الحقيقةُ التي جعلها النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) مَثَلهم الأعلى ، وأقرَّها في أنفسهم بجميع أخلاقه وأعماله — أن الفضائل كلَّها واجبةٌ على كل مسلم لنفسه ، إذ أنها واجبة بكل مسلم على غيره ؛ فلا تكون في الأمة إلا إرادة واحدة متعاونة ، تجعل المسلم وما هو إلا روحُ أمته تَعمل به أعمالها هي لا أعماله وحدها ؛ المسلم إنسانٌ ممتدٌّ بمنافعه في معناه الاجتماعي حول أمته كلِّها ، لا إنسانٌ ضيِّقٌ مجتمعٌ حول نفسه بهذه المنافع ؛ وهو من غيره في صدقِ المعاملة الاجتماعية كالتاجر من التاجر : تقول الأمانةُ لكليهما : «لاقيمةَ لميزانك إلاأن يصدقه ميزان أخيك..»

ولن يكون الاسلام صحيحاً تاماً حتى يجعلَ حامله مثلاً من نبيِّه في أخلاق الله ؛ فما هو بشخص يضبط طبيعته ، يقهرها مرةً وتقهره مراراً ؛ ولكن طبيعةٌ تضبط شخصها فهي قانون وجوده ؛ لا يضطرب من شئ ، وكيف يضطرب ومعه الاستقرار ؟ لا يخاف من شي ، وكيف يخاف ومعه الطمأنينة ؟ لا يخشى مخلوقاً ، وكيف يخشى ومعه الله ؟

أيها الأسد ، هل أنت بجملتك إلا في طبيعةِ مخالبك وأنيابك . . . ؟ !

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

(١) عن ابن عباس قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة على (أم هانىء) وكان جائعاً ، فقال لها : «أعندك طعام آكله ؟» فقالت : «إن عندي لكسراً يابسة ، وإني لأستحي أن أقدمها اليك» فقال : « هلميها ! » ، فكسرها في ماء ، وجاءته بملح ، فقال : « ما من إدام ؟ » فقالت : « ما عندي إلا شيء من خل » فقال : « هلميه » فلما جاءت به صبه على طعامه ، فأكل منه ثم حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « نعم الادام الخل يا أم هانىء ، لايقفر بيت فيه خل » ا . هـ .

الدفاع عن الاسلام

للأستاذ توفيق الحكيم



قرأت لتسع سنوات خلت قصة فولتير التمثيلية « محمد » ، فخجلت أن يكون كاتبها معدوداً من أصحاب الفكر الحر . فقد سب فيها النبي سباً قبيحاً عجبت له . وما أدركت له علة ، لكن عجبي لم يطل ، فقد رأيته يهديها الى البابا بنوا الرابع عشر بهذه العبارات : —

« فلتستغفر قداستك لعبد خاضع من أشد الناس إعجاباً بالفضيلة ، إذا تجرأ فقدم الى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية . والى مَن غير وكيل رب السلام ، والحقيقة أستطيع أن أتوجه بنقدي قسوة نبي كاذب وأغلاطه ؟ فلتأذن لي قداستك في أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه ؛ وأن أجرؤ على سؤالك الحماية والبركة . وإني مع الاجلال العميق أجثو وأقبل قدميك القدسيتين » (فولتير ١٧ أغسطس ١٧٤٥)

وعلمت في ذلك الحين أن روسو كان يتناول بالنقد أعمال فولتير التمثيلية ، فاطلعت على ما قال في قصة « محمد » علني أجد ما يرد الحق الى نصابه ، فلم أر هذا المفكر الحر أيضاً يدفع عن النبي ما ألصق به كذباً ، وكأن الأمر لا يعنيه ، وكأن ما قيل في النبي لا غبار عليه ولا حرج فيه ، ولم يتعرض للقصة إلا من حيث هي أدب وفن . ولقد قرأت بعد ذلك رد البابا بنوا على فولتير ، فألفيته رداً رقيقاً كيساً لا يشير بكلمة واحدة الى الدين ، وكله حديث في الأدب . فعظم عجبي لأمر فولتير ، وسألت نفسي طويلاً : أيستطيع عقل مثقف كعقل هذا الكاتب العظيم أن يعتقد ما يقول . دين تبعه آلاف الملايين من البشر على مدى الأجيال ، هو في نظره حقاً دين كاذب ؟ ومبادىء إنسانية كالتي جاء بها الاسلام ، هي عنده حقاً مبادىء بربرية ؟ أم إنه التملق والزلفى والنفاق . وإن الزمن والتاريخ يضعان أحياناً أقنعة زائفة على نفوس تزعم أنها خلقت للدفاع عن حرية الفكر . . .

منذ ذلك اليوم وأنا أحس كأني فجعت في شيء عزيز لدي : الايمان بنزاهة الفكر الحر . ولقد كنت أحياناً ألتمس الأعذار لفولتير ، وأزعم أنه قال ما قال لا عن مجاملة أو ملق ، بل عن عقيدة وحسن طوية استناداً على علم خاطىء بأخبار النبي ، ولكن كتابه الى البابا كان يتهمه اتهاماً صارخاً ، ويدع مجالاً للشك في دخيلة أمره . إني قرأت لفولتير كتباً أخرى كانت تكشف عن آراء حرة حقاً في مسائل الأديان ، وتنم عن روح واسعة الآفاق تكره التعصب الذميم ، فما باله عند ما عرض لذكر محمد والاسلام كتب شيئاً هو التعصب بعينه ، تعصبٌ لدينه ، ذهب فيه الى حد السجود وتقبيل الأقدام ، لا لرب العزة والخلق ، بل لبشر هو رئيس الكنيسة التي ما أرى أن فولتير كان في ذات يوم من خدامها المخلصين . هي الأطماع التي كانت تدفع فولتير فيما أرى الى التمسح بأعتاب الملوك والباباوات ، ولقد يقدم ثمناً لذلك أفكاره الحرة أحياناً . منذ ذلك الحين وفولتير عندي متهم ، ولن أبرئه أبداً ، ولن أعده أبداً من بين أولئك العظام الذين عاشوا بالفكر وحده وللفكر . وأحسب أن التاريخ العادل سوف يحكم عليه هذا الحكم ، فينتقم للحق بما افتراه على نبي كريم ظلماً وزوراً . على أن الذي يدعو الى الدهش أكثر من كل هذا أن الشرق والاسلام وقفا من الأمر موقف النائم الذي لا يعي ولا يشعر بما يحدث حوله ، فلم أر كاتباً من كتاب الاسلام قام في ذلك الوقت يدفع عن دينه هذا المراء الذي قال فولتير ، ويقذف في وجه هذا الكاتب بالحقائق الباهرة القاطعة ، أو أن مؤلفاً وضع كتاباً يبرز فيه شخصية النبي الخيرة العظيمة واضحة جلية . لقد كان الشرق في ليل هادىء بهيم لم تثر فيه حركة فولتير يومئذ ساكناً ، ولكن اليوم قد تغير الأمر ، ولاحت في أفق الشرق خيوط الفجر ، وقام في هذا القرن كتاب يمجدون

عقيدتهم وهم يعلمون أن فى ذلك تمجيداً للحق وللشرق ، فان المسألة ليست مسألة دين فقط ، إنما هى أيضاً مسألة جنس وقومية ؛ وإذ تقول أوربا : «الاسلام» فانما تعنى فى غالب الأحيان «الشرق» . إن الحروب الصليبية فى حقيقتها لم تكن إلا حرب الغرب على الشرق ؛ وإن الفتح الاسلامى عندما بلغ فرنسا وهدد أوربا لم يكن فى الواقع إلا حرب الشرق على الغرب . هـذا المد والجزر بين الغرب والشرق يفهمه مفكرو الأوربيين تمام الفهم ، ويحسبون له الحساب ، ويعملون دائماً على أن تكون الغلبة لهم آخر الأمر ، أو أن يطيلوا على الأقل أمد غلبتهم إن كان لا بد من تبدل الحال ومن دوران الفلك طبقاً لناموس أعلى لا قبل لهم به . فالدفاع عن شخصيتنا وعقيدتنا دفاع عن حياتنا ، وإن الكتابات التى توجه لهذا الغرض النبيل ينبغى أن يكون لها علينا حق المؤازرة والتعضيد ؛ وإنى لست بناقد منقطع للنظر فى أعمال المؤلفين وتقدير قيم ما يكتبون ، ولكنى أريد أن أشير إشارة سريعة الى ثلاثة أساليب مختلفة من أساليب الكتابة ، اتجهت فى العصر الحديث الى هذه الغاية ، كل فى دائرته

ففى الكتابة الدينية : « الرد على هانوتو » للأستاذ الامام محمد عبده ، فلقد نشر جابريل هانوتو الكاتب والوزير الفرنسى يوماً مقالة جاء فيها :

«قد أصبحنا اليوم إزاء الاسلام والمسألة الاسلامية ، اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الأفريقيـــة بسرعة لا تجارى حاملين فى حقائبهم بعض بقايا تمدين البيزنطيين (يونان الشرق) ثم ترامو بها على أوربا ، ولكنهم وجدوا فى نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها الى آسيا ، بل أقرب فى الصلة الى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم ، ألا وهى المدنية الآرية المسيحية ، ولذلك اضطروا الى الوقوف عند الحد الذى اليه وصلوا ، وأكرهوا على الرجوع الى أفريقية حيث ثبت فيها أقدامهم أحقاباً متعاقبة » ثم قال فى موضع آخر : « وقصر فريق منا بحثه وحكمه على ما شاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحى والاسلامى ، فرأى فى الاسلام العدو الألد والخصم الأشد . قال المسيو كيمون فى كتابه «باتولوجيا الاسلام» : إن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك فيهم فتكا ذريعاً ، بل هى مرض مريع وشلل عام ، وجنون ذهولى يبعث الانسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ، ويدمن على معاقرة الخمور ، ويجمح فى القبائح . وما قبر محمد فى مكة إلا عمود كهربائى يبث الجنون فى رؤوس المسلمين ويلجئهم الى الاتيان بمظاهر الهستريا (الصراع) العامة والذهول العقلى ، وتكرار لفظة الله الى ما لا نهاية ، والتعود على عادات تنقلب الى طباع أصلية ككراهية لحم الخنزير ، والنبيذ ، والموسيقى ، والجنون الروحانى ، والمانيا ، والماليخوليا ، وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور فى اللذات » الخ الخ

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية ، وحيوانات مفترسة « كالفهد والضبع » ، كما يقول المسيو كيمون « وأن الواجب إبادة خمسهم » كما يقول أيضاً « والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة ، وتدمير الكعبة ، ووضع ضريح محمد فى متحف اللوفر » وهذا أيضاً قوله « . . وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشرى .. أليس كذلك ؟ ولكن قد برح عن خاطر الكاتب أنه يوجد نحو ١٣٠ مليوناً مسلماً ، وأن من الجائز أن يهيب هؤلاء « المجانين » للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم . . الخ الخ »

فما ظهر هذا الكلام فى صحيفة المؤيد ، حتى قام الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده لساعته مجرداً قلمه وكتب نحو أربع مقالات هى أقوى ما قرأت دفاعاً عن الاسلام ، وإظهاراً لحقيقة مبادئه الخافية على أغلب الأوربيين . وقد رد على هانوتو فيما أوردنا صائحاً : « ما هذا التمدن الآرى الذى كانت عليه أوربا عند ما انتقص أطرافها المسلمون ؟ ؟

هل كانت تلك المدنية هى التسافك فى الدماء ، وإشهار الحرب بين الدين والعلم ، وبين عبادة الله وبين الاعتراف بالعقل ، نعم هذا هو الذى كان معروفاً عند الغربيين وقت ماظهر الاسلام

ماذا حمل الاسلام الى أوربا ، وما هى المدنيــة التى زحف عليهم بها فردوها ؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا من الآريين ، زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين . نظف جميع ذلك ونقاه من الأدران والأوساخ التى تراكمت عليه بأيدى الرؤساء فى الأمم الغربية لذلك التاريخ ، وذهب به أبلج ناصعاً بهر به أعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا فى ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون

إني أكيل لمسيو هانوتو إجمالاً بأجمال ، والتفصيل لا يجهله قومه ، وكثير من منصفيهم لم يستطع إلا الاعتراف به

إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها الى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها ، وعمل رجال الدين المسيحي على إطفائها مدة قرون فما استطاعوا الى ذلك سبيلاً . واليوم يرعى أهل أوربا ما نبت في أرضهم ، بعد ما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدي أهل دينهم في سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة »

ثم رد الامام في موضع آخر : « يجب على الباحث في الاسلام أن يطلبه في كتابه ، كما يجب عليه أن يطلب آثاره والاسلام إسلام ، والمسلمون مسلمون ، ولو استشم مسيو (كيمون) الذي استشهد هانوتو بكلامه ريح الدلم لما استفرغ ذلك القذر من فيه ، ولاحاجة الى الكلام فيه ، فسخافة رأيه وقلة أدبه تكفيه

من أين أتى المسلمون وكيف دخل عليهم في عقائدهم بالتشبيه ، وفي عوائدهم بالتمويه ؟ وممن تعلموا الافتراس ، وعمن أخذوا الضراء بالشهوات ؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون ، والله من ورائهم محيط

اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى سقطوا في مساقطهم ، وطارحوا الأوهام حتى انجروا الى مطارحهم ، وباءوا بما كان لهم وما عليهم

حدثت في الدين بدع أكلت الفضائل وحصدت العقائل ، وترامت بالناس الى حيث يصب عليهم ما استفرغه (كيمون)

أما لو رجع المسلمون الى كتابهم واسترجعوا باتباعه مافقدوه من آدابهم لسلمت نفوسهم من العيب ، وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم الله اليه في تنزيله على لسان نبيه ، ومهده لهم سلفهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم ، واستجمعت لهم القوة ودبت فيهم روح الفتوة ، وكان ما يلقاه هانوتو وكيمون من دين صحيح شراً عليهما مما يخشونه من دين شوهته البدع

يرى كيمون أن يخلي وجه الأرض من الاسلام والمسلمين ، ويستحسن رأيه هانوتو لولا مايقف في طريق ذلك كثرة عدد المسلمين ؛ وبئسما اختارا لسياسة بلدهما أن يظهرا ضعفهما ، ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما

أما فليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما أن الاسلام إن طالت به غيبة ، فله أوبة ، وإن صدعته النوائب فله نوبة ، وقد يقول فيه المنصفون من الانكليز مثل (اسحق طيلر) وهو قس شهير ورئيس في كنيسة :

« إنه يمتد في أفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره ، والشجاعة والاقدام من أنصاره »

***

بهذا القلم وهذه المرونة وهذا الذهن ، وقف رجل الاسلام الحديث محمد عبده يذود عن بيضته أمام عدوان جهابذة الفكر والقلم من الأوربيين

أما في الكتابة الأدبية ، فأذكر « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين ، ففي هذا الكتاب دفاع عن الاسلام كما يستطيع الأدب البحت أن يدافع . فهو لا يسلك الطريق المستقيم في الكلام عن الاسلام ، ولا يلجأ الى التدليل العقلي ، إنما يخلق جواً شعرياً يحبب الى النفس سيرة النبي وبيئته ؛ وقد عمد الدكتور طه حسين الى الأساطير ينسج منها هذا الجو الأدبي الجميل ، وتلك وسيلة الأدب والفن ، ومن ذا يقرأ هذا الوصف لميلاد النبي ولا تأخذه روعته ؟ :

(هنالك دعت « آمنة » اليها من حضرها من نساء بني هاشم ، فأسرعن اليها وقضين معها ليلة لا كالليالي ، أنكرن فيها كل شيء وأعجبن فيها بكل شيء ، أنكرن حتى أنفسهن ، فقد رأين مالم ير أحد ، وسمعن مالم يسمع أحد ، وأحسسن مالم يحس أحد . ولم تكن آمنة أقلهن إنكاراً وإكباراً وإعجاباً — فقد كانت ترى وهي يقظة غير نائمة أن نوراً ينبعث منها فيملأ الأرض من حولها ، ويزيل الحجب عن عينيها ، وكانت تنظر فترى قصور بصرى في أطراف الشام ، وكانت تنظر فترى أعناق الابل تردى في أقصى الصحراء ، وكانت لاتتحدث الى من حولها بما ترى مخافة أن ينكرن ما تقول ، وأن يظنن بها الظنون ، وكانت هذه من صاحباتها لاتمد طرفها الى شيء حتى تراه نوراً كله ، لاظلمة فيه وإنما هو مشرق مضيء ، أو هو الاشراق الخالص ،

وكانت هذه الأخرى من صاحباتها تنظر ، فاذا نجوم السماء تدنو من الأرض وتمد اليها أشعة قوية نقية باهرة ساحرة ، وإنها لتدنو وتدنو حتى يخيل الى الرائية أنها توشك أن تمسها وتقع عليها)

لقد دافع طه حسين عن الاسلام فى كتابه « على هامش السيرة » وان كان لم يقصد الى ذلك . فان الأدب الصرف والفن الصرف لا يقصدان أحياناً الى شىء ، ولكن فى مجرد صوتيهما أبلغ الكلام

أما فى الكتابة العلمية فها هو ذا كتاب « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل بك . ولو انى أعتقد أن أسلوب الدكتور هيكل فى « حياة محمد » يدخل أيضاً فى منطقة الكتابة الأدبية ، فان هذا الكتاب يعتبر فى نظرى من كتب « التراجم والسير » التى يضعها الكتاب الأدباء ، لا من البحوث العلمية التى يؤلفها المؤرخون العلماء ويعنون فيها باضافة شىء جديد الى العلم المعروف ، أو استكشاف وثيقة من الوثائق التحريرية أو الآدمية ، أو تحقيق مصدر من المصادر . على أن كتاب هيكل هو بلا نزاع أول سيرة نبوية خليقة أن تمثل تطور العقلية الاسلامية فى هذا العصر الحديث

وما أشق انتظارنا هذه الأجيال الطويلة لهذه السيرة الحديثة نضمها الى جانب سيرة ابن هشام والسيرة الحلبية وطبقات ابن سعد وغيرها من السير القديمة حتى يستطيع عصرنا أن يجهر بأنه فعل شيئاً من أجل الاسلام

ولو ان الأستاذ الشيخ محمد عبده حىّ اليوم لاستقبل هذا الكتاب بمثل ما استقبله به الأستاذ الشيخ المراغى ، فرحاً بهذا القلم الجديد ينهض لخدمة الحق والاسلام

ولقد ذكرت هذه الكتب وهذه الأساليب الثلاثة بالذات لما رأيته فيها من نظرة جديدة الى محمد والاسلام . نظرة ملؤها الاكبار الصادر عن فكر حر لا عن تعصب أعمى . ان الناس لم تعد تعنى بتلك الكتب المفعمة بالثناء الأجوف والألقاب الطويلة يحاط بها اسم النبى ، وهو فى عظمته أجل من أن يحتاج اليها . انما تريد الناس اليوم حقيقة مجردة ناصعة هى فى تجردها أجل وأسمى وأبلغ فى النفوذ الى القلوب ، وهذا ما صنع هيكل بك فى كتابه « حياة محمد » على نحو خليق بالثناء ، فلقد أسقط من حياة النبى تلك المعجزات التى لا تغنى من الحق شيئاً ما دمنا فى مجال التدليل العقلى ، وأظهر شخصية النبى عظيمة فى بشريتها السامية ، وأبان عن غرض النبى فى الدعوة الى دين جوهره اقتناع النفس بالحقيقة العليا . ان هذه النظرة الجديدة فيها إجلال للنبوة . وان أولئك السفهاء الذين كانوا يطلبون الى الأنبياء أن يثبتوا نبوتهم بالمعجزات قد أثموا فى حق الفكر البشرى قبل أن يأثموا فى حق الدين

ان المعجزة : أى الاتيان بعمل خارق للمعتاد لا يدل على شىء ولا يثبت نبوة ولا يدحضها . فان من الكهان أو بسطاء الناس من علكون أحياناً تلك القوى الخارقة فى أجسامهم أو عقولهم أو أرواحهم دون أن يكونوا من أجل ذلك أنبياء . ان النبى ليس فى حاجة الى معجزة كى يكون نبياً . انما النبى من حُمّل رسالة علوية لا ينصرف من الحياة حتى يؤديها ، ومن فضل محمد أنه لم يشأ أن يقنع الناس بغير ذلك ، فقد بلغهم رسالته واعتمد فى اثباتها على العقل المجرد

ولقد جاء فى كتاب هيكل بك : « لما جهد المسلمون عطشاً أثناء مسيرة جيش العسرة الى غزوة تبوك ثم أمطرتهم السماء ذهب بعضهم اليه (الى النبىّ) يقول إنها معجزة ، فكان جوابه : (انما هى سحابة مارة)؛ ولما كسفت الشمس يوم اختار الله ابنه ابرهيم الى جواره قال الناس : (ان هذا الكسوف معجزة) فكان جوابه : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته » . هذا جواب محمد الذى قيل إنه نبى كاذب ! ! ! فهل يمكن أن يكون هذا جواب نبى كاذب ؟ ؟

ان فى كتاب هيكل صفحات تصلح رداً بليغاً على فولتير . ان محمداً كان هو أعظم من فهم حقيقة النبوة ، ووعى معنى الحقيقة العليا ، وأدرك أن أكبر معجزة فى هذا الكون هى انه لا يوجد فى الكون معجزات ، وأن كل شىء يسير طبقاً لنظام دقيق . واذا قيل نظام قيل قانون ، واذا قيل قانون قيل عقل مدبر ، وهذا العقل واحد أحد تبدو سمته فى ادارة الأجسام غير المحدودة فى العظم كما تبدو فى ادارة الأجسام غير المحدودة فى الصغر ، ذات اليد العلوية وعين أثرها فى كل شىء ، يد واحدة لا تتغير وقانون واحد لا يتغير . ان محمداً كما يبدو فى وصف الدكتور هيكل قد تأمل الطبيعة كثيراً ، وفكر ملياً فى نظامها العجيب فكشف عن بصيرته وبصره فامتلأ قلبه بالله ، كما اقتنع عقله بوجوده ، فجاء

دينه ديناً كاملاً ، صادقا فى نظر القلب والعقل معاً . ولئن كان على الأرض نبى أحب العلم ، ولم يخش دينه العلم ، ولم يضطهد العلماء ، فهو « محمد » الذى قال : « فضل العلم خير من فضل العبادة » « اطلب العلم ولو فى الصين » وكثيراً من الأحاديث التى تثنى على العلم وتحض عليه . ذلك أن مصدر اقتناع العلم ومصدر اقتناع محمد واحد : الكون وملاحظة ما فيه من ابداع ينم عن يد الخلاق العظيم

فى كتاب حديث للعالم انشتين فصل ذكر فيه رأيه فى الدين ، فقال إنه يعتنق ما يسميه « الديانة الكونية » تلك الديانة التى تملأ قلب كل عالم انقطع لتأمل « ذلك التناسق العجيب بين قوانين الطبيعة وما يخفى من عقل جبار لو اجتمعت كل أفكار البشر الى جانبه لما كونت غير شعاع ضئيل أقرب القول فيه انه لا شىء »

لا ريب عندى أن احساس انشتين نحو الكون والله هو عين احساس محمد يوم كان يتحنث فى غار حراء قبل نزول الوحى . انما الأنبياء والعلماء قلوب واعية تشعر بجلال الله . ولا يمكن لنبى أن يكون نبياً إلا أن يشعر من تلقاء نفسه بعظمة الخليقة ويتحرق شوقاً الى معرفة صانعها ، ولا يزال الشوق بقلبه حتى يكشف له الصانع الأعظم عن بعض نوره ، ويوحى اليه بنشر هذا النور على الانسانية . انى كلما تأملت شخصية محمد مجردة ثبت ايمانى بأن الخصومة المعروفة بين العلم والدين ليس لها فى الحقيقة وجود ، وان الدين الحق لا يتعارض والعلم الحق . . . بل إن الدين والعلم شىء واحد ، كلاهما يطلب نور الله ويريد وجهه ، وكلاهما يعى ويؤمن ويلهج بتناسق الوجود ووحدة قوانينه ودلالة وحدة الوجود على وحدة الخالق . ولم يظهر نبى حق ولا عالم حق شعر بغير ذلك . انما الفارق بين العلم والدين فى السبل التى يسلكها كل فى الدنو من الله . ومن قال إن وسائل العلم ينبغى أن تماثل وسائل الفن أو وسائل الدين ؟؟؟

إن الطرائق والسبل يجب أن تظل مختلفة مميزة لا يختلط بعضها ببعض ، انما المصدر واحد دائماً والغاية واحدة . فما الدين والعلم والفن إلا خيوط ثلاثة كتب على بشريتنا القاصرة العمياء أن تتمسك بها لتهتدى الى ذلك النور الذى لا بداية له ولا نهاية : الله

إن الاسلام وهو أحدث الأديان ، وهو الذى لم يخاصم العلم ، وهو الذى اتسع صدره لكل شىء يصلح فيما يرى الدكتور هيكل لمعالجة أزمات العالم الحاضر ، الروحية والاجتماعية والاقتصادية . وهو رأى صادق إذا قيض الله للاسلام رجالاً ذوى نظرة نافذة وذهن مستنير واطلاع واسع ، يبرزون فضائله بأساليب جديدة ، ويتولون إذاعته والدفاع عنه بأقلام ذكية قديرة . ولقد صنع هيكل كثيراً فى هذا السبيل بأسلوبه الجديد فى « حياة محمد » . ولئن كان قد أثم فى دنياه فلقد اشترى بكتابه آثامه ! ! ! ولسوف يتقدم يوم الدين وكتابه بيمينه يشفع له فى دخول الجنة !!! ولسوف يدخلها بأذن الله متأبطا ذراع طه حسين عما قدمت يداه هو أيضاً من كتاب أدبى جميل « على هامش السيرة» ، كان له ولا ريب أبلغ الأثر فى حمل الناس على استمراء أخبار النبى ، ولهما بعد ذلك ولأمثالهما ممن دافعوا ويدافعون عن الاسلام خير التحية : فانى قلتها وأقولها دائماً : ليس الأمر أمر عقيدة وديانة ، إنما هو الى جانب هذا أمر حياة تلك الكتلة التى يسميها الغربيون : الشرق . وما الدفاع عن الاسلام إلا الدفاع عن الشرق ؟

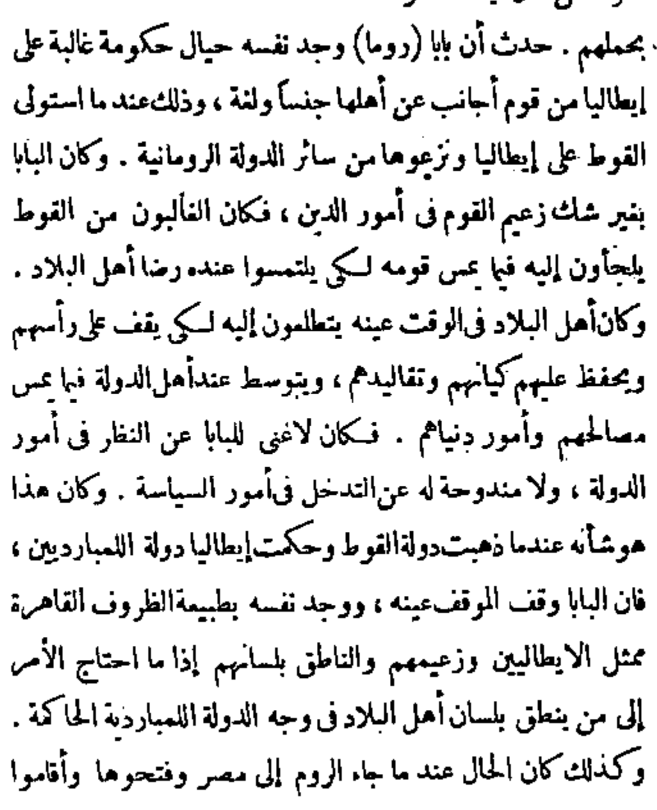
توفيق الحكيم

صفحة من التاريخ — لجميع العلماء

مشايخ الأزهر والسياسة

فى القرن الثامن عشر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد



حدث غير مرة فى تاريخ العالم أن تصدى رجال الدين أو رجال العلم للسياسة ولم يكونوا فى ذلك مختارين ، بل كانت الظروف تدفعهم إلى موقف يجدون فيه أنفسهم مسئولين عن التدخل فى أمر السياسة . فلا يجدون مفراً من أن يضطلعوا بحملهم . حدث أن بابا (روما) وجد نفسه حيال حكومة غالبة على إيطاليا من قوم أجانب عن أهلها جنساً ولغة ، وذلك عند ما استولى القوط على إيطاليا ونزعوها من سائر الدولة الرومانية . وكان البابا بغير شك زعيم القوم فى أمور الدين ، فكان الطليون من القوط يلجأون إليه فيما عس قومه لكى يلتمسوا عنده رضا أهل البلاد . وكان أهل البلاد فى الوقت عينه يتطلعون إليه لكى يقف على رأسهم ويحفظ عليهم كيانهم وتقاليدهم ، ويتوسط عند أهل الدولة فيما عس مصالحهم وأمور دنياهم . فكان لا غنى للبابا عن النظر فى أمور الدولة ، ولا مندوحة له عن التدخل فى أمور السياسة . وكان هذا هو شأنه عندما ذهبت دولة القوط وحكمت إيطاليا دولة اللمبارديين ، فان البابا وقف الموقف عينه ، ووجد نفسه بطبيعة الظروف القاهرة ممثل الايطاليين وزعيمهم والناطق بلسانهم إذا ما احتاج الأمر إلى من ينطق بلسان أهل البلاد فى وجه الدولة اللمباردية الحاكمة . وكذلك كان الحال عند ما جاء الروم إلى مصر وفتحوها وأقاموا بها الحكم على المصريين ، فان بطريق المصريين كان بحكم مركزه الدينى زعيماً فى قومه فى أمور الدين ، فلما جاء الروم صار ذلك الزعيم الدينى مضطراً إلى أن عثل قومه عند الحكام وينطق بلسانهم ويتصدى لأمورهم ، حتى لقد أصبح بطريق المصريين فى آخر الأمر هو الممثل القوى للمصريين ؛ وكم وقف البطارقة على رأس الشعب المصرى فى وجه الحكم الأجنبى الرومانى ، ومن هؤلاء البطريق الأكبر بنيامين الذى ناله من التصدى لأمور السياسة أكبر الأذى ، وتحمل النفى والخوف ، وتحمل أتباعه من رجال الدين ألوان العذاب فى سبيل استقلال مصر كما كانوا يفهمونه

إذن لم يكن لمصر أن تخرج عن هذه السنة الطبيعية ، فانها كانت فى القرن الثامن عشر تحكمها حكومة على رأسها الباشا ممثل السلطان التركى ، ويعاونه الأمراء المصريون الذين هم من أجناس غير مصرية الأصل . فكان لا بد لهذا النظام أن يتجه إلى ممثلى الشعب وزعمائه ، وكان لابد له أن يلجأ اليهم فى كثير من الأحوال لكى يسترضى ذلك الشعب ويتحبب اليه ويسهل بذلك طريق الحكم . وكان لا بد كذلك للشعب من أن يتخذ له ممثلين من من صفوفه وأن يجعل له زعماء يهرع اليهم إذا آذاه شئ من جانب الحكومة الأجنبية التى تحكم البلاد

وكان علماء الأزهر هم الطبقة المستنيرة من الشعب ، وهم الذين يعرفون تقاليد الحكم الاسلامى فى الدول الماضية ، وهم الذين يعرفون العرف الذى جرت عليه الأجيال الماضية فى أيام الحكومات المستقلة الجليلة التى حكمت البلاد من قبل . فكان من الطبيعى أن يتصدر هؤلاء العلماء فى الحوادث ، وأن يلجأ اليهم أهل مصر عند ما تلم بهم ملمة يطلبون اليهم أن ينادوا بالحق الذى يبيحهم إياه القانون ، وأن يطالبوا بالحريات التى كفلها لهم العرف والدين فى الأجيال المتعاقبة . ولقد تصدر جماعة من هؤلاء العلماء وقاموا بما وجب عليهم فى ذلك قياماً محموداً ؛ وإنا لذاكرون هنا بعضهم اعترافاً بما كان من فضلهم على البلاد

ولو شئنا أن نفصل مواقف مشايخ الأزهر فى أمور السياسة لما اتسع لذلك مجال القول هنا . ولهذا سنجتزئ بذكر ما كان منهم فى موقف واحد فى تاريخ مصر فى القرن الثامن عشر فى الوقت الذى اشتد فيه عبث مراد وإبراهيم بالمصريين

بلغت محاولات مصر نحو الاستقلال قصاراها فى عهد على بك الكبير ، ثم قضى عليها إذ كان الوقت لم يحن بعد للاستقلال الدائم ، إذ أن الاستقلال لا يمكن أن يدوم إلا إذا قام على دعامة قوية من الشعب ، وهذا ما كان ينتظر حدوثه حتماً فى يوم من الأيام . غير أن الملك المصرى الذى حكم بعد على بك الكبير لم يكن بأقل منه قدراً ، ولا بأهون منــه خطراً ، ولا بأهدأ منه حماسة للاستقلال . وقد أراد الله ألا تطول أيامه فمات والبلاد فى أشـد الحاجة إلى وجوده ليقوم على ملكها ويسيطر على زعامتها . فوقعت السلطة فى أيد طائشة ليس لها خبرة بالحكم ولا مكانة فى القلوب ، وأصبح الأمر فى يد مراد وابراهيم وهما من مماليك أبى الذهب ، ولكنهما لم يكونا بعد قد صفوا وجربا وظهرا فى الحوادث بالظهر الذى يرشحهما ترشيحاً صادقاً لحكم البلاد ، فكان حكمهما تجربة قاسية

كان الشعب المصرى قد خضع لعلى بك الكبير ولمحمد بك أبى الذهب منـذ رأى فيهما ملكين عظيمين قادرين على حمايته وحكمه ، ولكنه لم يجد فى مراد وابراهيم غير طاغيتين متجبرين لا ينظران من الحكم إلا إلى النفع ، ولا يعرفان من أساليبه إلا الكبرياء والسطوة . ومنذ رأى فى الحاكمين الجديدين هذا تحرك واضطرب ووقف على استعداد للدفاع عن مصلحته وكرامته ثابتاً متنبهاً

وكان مشايخ الأزهر هم الطبقـة المستنيرة من أبناء مصر الصميمين ، جاءوا جميعاً من قراها وأريافها ومدنها ، فكانوا من بين صفوف الشعب وأبناء الأرض يحسون ما يحسه الناس وينظرون بأعينهم ويسمعون بآذانهم . وقد زادوا على إخوانهم ميزة كبيرة بأنهم حفظوا فى صدورهم نصوص الشريعة والآراء المختلفة فى أحكامها وحفظوا ما تخلف من تراث القرون من عرف وما يبيحه القانون الاســلامى لأفراده من حقوق وحريات . فكان من الطبيعى أن يقفوا من الشعب المصرى موقف الزعامة فى كل حادث جليل ، وأن ينطقوا باسمه ويعبروا عما فى قلبه من الآمال والآلام . فوقفوا على رأس الشعب فى كل خلاف قانونى حاول فيه الطغاة أن يخرقوا حرمة القانون ، وانتصروا فى كل وقفة من وقفاتهم فنصروا فيها القانون والحق ، ثم وقفوا يمثلون الشعب فى ديوان الحكم فنطقوا باسم مصر وأعربوا عن آمالها وعن شخصيتها ، وانتصروا فى وقفتهم فأعلوا من اسم الشعب الذى يمثلونه ورفعوا رأسه ، ثم وقفوا على زعامة الشعب فى نضاله مع الطغاة فى سبيل إصلاح الحكم ، وانتصروا مرة ثالثـة وساروا بشعبهم فى سبيل الحصول على ماله من الحقوق والحريات ؛ وما كان أجدرهم أن يبلغوا به الغاية والقصد ويقيموا فى مصر حكومة وطنية صالحة قائمة على احترام حقوق الأفراد والسعى إلى ما فيه مصلحتهم . وما كان أحراهم لو طال بهم الزمن أن يبلغوا بمصر قصارى ما تصل إليه الأمم الحريصة على حقوقها الساعية إلى الاصلاح

بعد مضى سـنة واحدة من حكم الطاغيتين مراد وابراهيم ثارت مسألة فى خلاف على وقف ، ولم يكن للمسألة فى ذاتها خطر خاص ، بل كان الأمر نضالاً على مبدأ وقف فيه بعض الأمراء يلوحون بالقوة والطغيان ، ووقف فيه بعض أفراد الشعب يعتصمون بالحق والشريعة . والتجأ الجانبان إلى المحكمة فحكمت حكمها فى الخلاف . وكان فى مصلحة الأفراد على رغم ما يريده الأمير المدل بالقوة ، فأبى الأمير الأذعان ، وأصبح الأمر معلقاً بين أن ينتصر القانون وبين أن تجتاح القوة كل سياج وكل حرمة . فأدرك العلماء أن واجبهم يناديهم بالمحافظة على القانون ، ولم يترددوا لحظة ، بل هبوا لينصروا الحق لم يتخلف منهم واحد ، وكان على رأس الحركة الشيخ الدردير رحمه الله وطيب ثراه . أرعد الأمير وأبرق ، وأرغى وأزبد ، ونهر وتوعد ، غير أن العلماء وقفوا وثبتوا ، وأرغوا وأزبدوا فى سـبيل الحق والقانون . وقام الشعب من ورائهم يؤيدهم ، وكانت مظاهرة كبرى ، فأغلق الناس حوانيتهم انتصاراً للعلماء والشرع ، وأوشك الأمر أن يفضى إلى فوضى شاملة . فجزع عقلاء الأمراء المصريين من تلك الحال وأشفقوا أن تسيل الدماء وأن تعطل المصالح . فاجتمعوا وتشاوروا ثم أرسلوا إلى الأمير المعاند فاحتجوا على موقفه وأمروه بالنزول على ما أراد القانون ، فأذعن وهو كاره بعد مشادة عنيفة ، ولم يرض العلماء أن يتركوا الأمر يفلت من أيديهم بغير حق مسـجل يكتسبونه للناس ، فكتب لهم صلح رسمى به شروط على الأمراء وتعهد من الحكام بالتزام ما يقضى به القانون ويحتمه العرف . وهكذا كان العلماء يكسبون للشعب حقوقه حقاً حقاً ويبنون فى

دستور مصر حجراً بعد حجر وإن كانوا فى ذلك يسيرون فى تؤدة وبطء

وإنا إذا ذكرنا اسم الشيخ الدردير فلسنا نذكره إلا لأنه كان علم القوم وزعيمهم . ولقد كان معه عدد كبير من إخوانه يستند اليهم وينتصر بامدادهم . وفى الحق إن العلماء بمثل هـذه الهمة لم ينزلوا ولم يسمحوا لأنفسهم أن ينزلوا إلى موضع المهانة فى تلك الأيام التى يصفها البعض بأقسى النعوت . بل لقد كانوا أكفاء لأعلى الرؤوس فى الدولة ؛ ثارت مرة مناقشة حادة بين بعضهم وبين أمير من كبار الأمراء فى مسألة قانونية ، فخرج الأمير الغاضب عن حدود الأدب بأن قال للعالم : « والله أكسر رأسك » فكان جواب العالم الغاضب أشد وأقسى ، إذ قال له صارخاً : « لعنك الله ولعن اليسرجى الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميراً » وتوسط من كان بالمجلس من الأمراء فيما بينهما . ولم يجد الأمير بداً من الاذعان لما يقضى به الشرع حسب ما رآه العلماء

وكان بيت العالم حرماً لا يعتدى عليه مهما كان الباعث على ذلك ، فقد كان بعض الأمراء يهربون خوفاً من انتقام منافسيهم فلا يجدون ملجأ يهربون إليه ويعتصمون به إلا بيت العالم يدخلونه ليأمنوا فيه . وقد طلب من أحد العلماء مرة أن يسلم جاره الأمير الذى دخل بيته ملتجئاً فلم يرض أن يسلم اللاجئ إلى بيته ، ولم يجرؤ أحد على دخول منزله عنوة خوفاً من أن يكون فى ذلك جرح لكرامة زعيم من زعماء الشعب

وقد زاد نفوذ العلماء فى أيام هذا الاضطراب وعلا صوتهم فأصبح مسموعاً داوياً فى الحوادث الكبرى ، كما أصبح مسموعاً داوياً فى الديوان الذى كان ينعقد بالقلعة لحكم البلاد ، وكان فيه الأمراء والرؤساء وأكابر العلماء يمثلون الشعب . وأصبح صوت العلماء فى ذلك الديوان يمثل المعارضة وينادى بما فيه نفع لمصر وما فيه مصلحة أبناء مصر

ثم أرسلت تركيا جيشاً بقيادة القبطان حسن باشا لتأديب الطاغيتين مراد وابراهيم على سوء حكمهما فخرج العلماء على رأس وفد لمقابلة القائد التركى ليذكروه بضرورة الاحتراس والاحتياط فى حربه مع الأمراء حتى لا يؤذى مصالح الناس ولا يضحى بأموالهم . قال الجبرتى يصف ذلك : « فتعين لذلك الشيخ أحمد العروسى والشيخ محمد الأمير والشيخ محمد الحريرى ، ومن الأجاقلية اسماعيل أفندى الخلوتى وابراهيم أغا الورداتى وذهب صحبتهم سليمان بك الشابورى ... ... على أنهم يجتمعون به (بالباشا القائد) ويكلمونه ويسألونه عن مراده ومقصده ويذكرون له امتثالهم وطاعتهم . . . . ويذكرونه حال الرعيــة وما توجبه الفتن من الضرر والتلف »

وقد بلغ من ذعر ابراهيم ومراد وخوفهما من حركة الشعب أن جعلوا فى ذلك الوقت يتملقون المشايخ خوفاً منهم أن ينتهزوا الفرص فيثيروا على حكمهم ثورة عند ما تقبل جنود الدولة العلية من الشمال . قال الجبرتى : « فذهب ابراهيم (فى عيد الفطر) إلى الشيخ البكرى ثم إلى الشيخ العروسى والشيخ الدردير وصار يحكى لهم وتصاغر فى نفسه جـداً وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت فانه كان يخاف ذلك جداً »

وقد كسب العلماء للمصريين حقاً جليلاً فى أثناء هذه الحوادث فانه بفضل سعيهم أصدر القائد التركى حسن باشا عند ما دخل مصر قانوناً كان يقضى بأن أهل مصر لا يمس أحد منهم إلا بمقتضى القانون الشرعى وأن لا سبيل على أحد منهم إلا بمقتضى ذلك القانون وحده . ثم لم يتردد العلماء بعد ذلك فى الوقوف إلى جانب القانون ولو كان وقوفهم فى وجه الباشا القائد المنتصر نفسه . فانه عقب انتصاره أحب أن ينكل بالمهزمين من الأمراء المصريين فأراد أن يبيع نساءهم ، مع أن القانون الشرعى لا يبيح بيع الجارية المملوكة إذا صارت أما أو أصبحت حرة ، فوقفوا فى وجهه ولم يمكنوه من ذلك لمخالفته للحقوق المكفولة للأفراد فى الشريعة الاسلامية

أما فى جلسات الديوان فلم يكن صوت العلماء أضعف جرساً ، فكانوا يعارضـون فى كل شئ يمس مصالح المصريين حتى فى الأمور الخاصة بالدولة ذاتها ، فقد عرضت مرة مسألة فى الديوان خاصة بالاستعانة بجنود من بلاد الدولة العثمانية ، فوقف الشيخ العروسى فقال : « إن الأمر لا يحتاج إلى ذلك ، فان العساكر الرومية (التركية) لا تنفع بين العساكر المصرية ، والأولى استجلاب خواطر الجند بالاحسان اليهم ، والذى تعطونه للأغراب أعطوه

لأهل بلادكم أولى » وقد أخذ الديوان برأيه فى ذلك اليوم

ولكن العلماء كانوا أظهر تمثيلاً للشعب المصرى ، وأكثر جلالاً فى وقوفهم على رأس مظاهرات العامة كلما جد أمر يدعو الى الاحتجاج ، أو حدث حادث فيه تعرض للحقوق والحريات . ولم تكن تلك الحركات قليلة ، كما أنها لم تكن مقصورة على القاهرة ، فقد ثارت ثورات فى القاهرة ، وثارت مثلها فى رشيد ، ومثلها فى طنطا وفى بلبيس . وكان العلماء دائماً على رأس تلك الثورات الشعبية ، يظلون كذلك حتى ينتهى الأمر بإذعان القوة للحق . قال الجبرتى فى وصف ثورة من ثورات الشعب فى الحسينية : « وحضروا الى الأزهر ومعهم طبول ، والتف عليهم جماعة كثيرة من أوباش العامة ، وبأيديهم نبابيت ومساوق ، وذهبوا الى الشيخ الدردير فونسهم وساعدهم بالكلام ، وقال لهم : أنا معكم » واستقر العزم عند ذلك على جهاد الأمراء الظالمين وايقافهم عند حد القانون بالقوة مالم ينتهوا بالقول . وحدث مثل ذلك فى طنطا وكان الشيخ الدردير كذلك على رأس المتظاهرين ضد الظلم هناك ، قال الجبرتى : « فركب بنفسه وتبعه جماعة من العامة حتى التقى بالأمير ، فكلمه ووبخه ، وهو راكب على بغلته ، وقال له : أنتم ما تخافون الله » وحدث اصطدام أثناء ذلك بين العامة والحاكم وأتباعه ، أصيب فيه جماعة من الجانبين ، وضُرب الحاكم نفسه ضرباً شديداً

وحدث مرة أخرى أن اعتدى موظف إدارى وهو (الوالى) أحمد أغا على بعض أهالى الحسينية ، واشتد فى مطالبة أحمد سالم الجزار ، وأراد القبض عليه مخالفاً فى ذلك العهد الذى تعهد به الباشا من قبل ، ألا يمس أحد إلا بمقتضى الشريعة الاسلامية . فثار أهل الحسينية ثورة هائلة ، والتجأوا الى الشيخ العروسى يلتمسون عنده الحماية من الظلم (وكان الشيخ الدردير قد توفى الى رحمة الله) فقام الشيخ العروسى بأمر الوساطة فى شأنهم ، وانتهى الامر بعد مشادة طويلة بعزل الوالى وتولية وال آخر . قال الجبرتى : ونزل الوالى الجديد من الديوان الى الأزهر ، وقابل المشايخ الحاضرين واسترضاهم . ثم ركب الى بيته وانفض الجمع ، وكأنها طلعت بأيديهم والذى كان راكباً حماراً ركب فرساً »

واشتدت مرة وطأة أحد الأمراء على أهل بلبيس فى تحصيل الأموال ، فالتجأ الفلاحون الى الشيخ الشرقاوى ليحميهم ، فبدأ الشيخ بمخاطبة مراد وابرهيم ، فلما لم يجد لسعيه أثراً فى إصلاح الحال بالسعى السلمى ، دعا الى الثورة فاجتمع له كثير من أهل القاهرة ومن أهل الأطراف ، وأوشك الأمر أن يكون ثورة دموية مدمرة ، وقضت القاهرة ثلاثة أيام فى اضطراب وخوف ، قال الجبرتى : « ثم حضر الباشا إلى منزل ابرهيم بك ، واجتمع الأمراء هناك ، وأرسلوا الى المشايخ ، فحضر الشيخ السادات والسيد النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الأمير ... ... ودار الكلام بينهم وطال الحديث ، وانحط الأمر على أنهم (الأمراء) تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم ، وانعقد الصلح ... ... وان يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ... ... ويسيروا فى الناس سيرة حسنة ... ... وكان القاضى حاضراً بالمجلس ، فكتب حجة عليهم بذلك ، وفرّمن عليها الباشا ، وختم عليها ابرهيم بك وأرسلها الى مراد بك فختم عليها أيضاً ، وانجلت الفتنة ورجع المشايخ وحول كل منهم وأمامه وخلفه جملة من العامة ، وهم ينادون حسب ما رسم سادتنا العلماء »

وبعد فما الذى بين هذه الحال وبين بناء صرح الحريات المصرية كاملا متماسكا ؟ لقد كان العلماء يبنون ذلك الصرح حجراً حجرا ، وكان الشعب من ورائهم يطالب بحقوقه ولا يتنازل عن شىء منها مطالبة المصرّ على الحياة الكريمة العازمة على التمتع بانسانيته تمتعاً تاماً . وما كان لمثل هذا الشعب أن ينتهى به السير إلا عندما يريد من العزة والكرامة

غير أن الله لم يرد أن يكون هذا فى ذلك الوقت ، فقد نزلت بمصر كارثة الغزوة الأجنبية ، غزوة الحملة الفرنسية التى عاقت ذلك السير المجيد وحفرت هوة عميقة بين ماضى مصر المجيد وحاضرها ، وبين سعيها فى القرن الثامن عشر وسعيها اليوم

ألا فلتقطع ألسنة الذين يقولون إن دستور مصر كان منحة مهداة ، أوأن حريات مصر كانت عطية مسداة . فلقد كان شعب مصر لا ينى يسعى إلى تلك الحريات ، ويحمى تلك الحقوق ، مضحياً فى ذلك بكل شىء ، حتى بالدماء !

محمد فريد أبو حديد

عبرة الأندلس

للأستاذ محمد عبد الله عنان



ليس في تاريخ الاسلام كله صفحة أدعى إلى الشجن والأسى من تاريخ الأندلس ؛ ففي الأندلس وحدها بادت أمة اسلامية عظيمة ، ومحيت حضارة اسلامية زاهرة ، ولم تبق ثمة من تلك الصفحة الباهرة سوى أطلال وذكريات دارسة .

وقد زالت دولة الاسلام في الأندلس ومحيت صفحته وأبيد أبناؤه منذ أربعة قرون ؛ وقام فوق الأرض شعب غير الشعب ، ودين غير الدين ، وحضارة غير الحضارة ؛ ولكن المأساة ما تزال حية في صدر كل مسلم يستعرض هذه الصفحة ، وما زالت تثير في النفس بالغ الحسرات

عاشت دولة الاسلام في الأندلس زهاء ثمانية قرون ؛ ولم يكن غريباً أن تنقرض في هذا القطر النائي المنعزل عن باقي الأقطار الاسلامية ، بعد أن لبثت قروناً تمزق بعضها بعضا ، ولكن الغريب هو أنها استطاعت رغم جراحها الدامية أن تصمد للعدو الخالد المتربص بها مدى قرون

على أن تاريخ الأندلس نفسه يقدم الينا سر هذا الفناء البطيء الذي سرى إلى الدولة الاسلامية منذ قيامها ؛ وسنحاول أن نتعرض في هذه اللمحة السريعة بعض العلل الجوهرية التي أصابت المجتمع الاسلامي في الأندلس منذ تكوينه ، وغدت بمضي الزمن داء ذريعاً يقضم أسسه ويقوض دعائمه ، وما زالت به حتى استنفدت قواه وحملته إلى هاوية الانحلال والعدم

كان فتح العرب لاسبانيا فاتحة عصر جديد وبدء تطور عظيم في حياتها العامة وفي نظمها الاجتماعية . ومع أن العرب شغلوا حيناً بتوطيد الفتح الجديد ودفع حدوده ، فانهم استطاعوا في أعوام قلائل أن يقمعوا عناصر الشر والفوضى وأن ينظموا إدارة البلاد المفتوحة ، وأن يبثوا في الجزيرة روحاً جديداً من الأمل والحياة . وقد قضى الفتح على سلطان الطبقات الممتازة ، وتنفس الشعب نسيم الحرية ، وفرض المسلمون الضرائب بالمساواة والعدل بعد أن كان يفرضها حكم الهوى والجشع ، وأمن الناس على حياتهم وحرياتهم وأموالهم ، وترك الفاتحون لرعاياهم الجدد حق اتباع قوانينهم وتقاليدهم ، والخضوع لقضاتهم . أما في شأن الدين وحرية العقائد والضمائر فقد كانت السياسة الاسلامية مثلاً أعلى للتسامح ، فلم يظلم أحد أو يرهق بسبب الدين والاعتقاد ؛ وكانت تأدية الجزية هي كل ما يفرض على الذميين من النصارى واليهود لقاء الاحتفاظ بدينهم وحرية شعائرهم ، ومن دخل الاسلام سقطت عنه الجزية وأصبح كالمسلم سواء بسواء في جميع الحقوق والواجبات . وفي ذلك يقول العلامة دوزي : « لم تكن حال النصارى في ظل الحكم الاسلامي مما يدعو الى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل . أضف الى ذلك أن العرب كانوا يتصفون بكثير من التسامح ، فلم يرهقوا أحدا في شئون الدين . . . ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل ، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج » ثم يقول دوزي عن آثار الفتح الاجتماعية : « كان الفتح العربي من بعض الوجوه نعمة لأسبانيا ؛ فقد أحدث فيها ثورة اجتماعية هامة ، وقضى على كثير من الأدواء التي كانت تعانيها البلاد منذ قرون . . »

غير أن هذه الدولة الجديدة التي بثها الاسلام في اسبانيا ، كانت تحمل منذ البداية جرثومة الخلاف والخطر ، وكان هذا المجتمع الجديد ، الذي جمع الاسلام شمله ومزج بين عناصره يضطرم بمختلف الأهواء والنزعات ، وتمزقه فوارق الجنس والعصبية . كانت القبائل العربية ما تزال تضطرم بمنافساتها القديمة الخالدة ، وكان البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش يبغضون قادتهم ورؤساءهم من العرب ، وينقمون عليهم استئثارهم بالسلطة والمغانم الكبيرة ، وكثيراً ما رفعوا لواء العصيان والثورة . وكان المسلمون الأسبان ، — وهم المولدون أو البلديون — محدثون في الاسلام يشعرون دائماً بأنهم رغم اسلامهم أحط من الوجهة الاجتماعية

من سادتهم العرب . ذلك أن العرب ، رغم كون الاسلام ، يسوى بين جميع المسلمين فى الحقوق والواجبات ، ويمحو كل فوارق الجنس والطبقات ، كانوا يشكون فى ولاء المسلمين الجدد ، ويضنون عليهم بمناصب الثقة والنفوذ ؛ هذا إلى أن العربى فى الأقطار القاصية التى افتتحها بالسيف لم يستطع أن يتنازل عن كبرياء الجنس التى كانت دائماً من خواص طبيعته ، فكان مثل الانكليزى السكسونى يعد نفسه أشرف الخليقة . على أن الخلاف بين العرب أنفسهم كان أخطر مافى المجتمع الجديد من عوامل التفكك والانحلال ؛ فقد كانت عصبية القبائل والبطون ما تزال حية فى الصدور ، وكان التنافس بين الزعماء والقادة يمزق الصفوف ويجعلها شيعاً وأحزاباً ، وكانت عوامل الغيرة والحسد تعمل عملها فى نفوس القبائل والبطون المختلفة . وأشد ما كانت تستعر نار الخلاف والتنافس بين اليمنية والمضرية ، وذلك لأسباب عديدة ترجع الى ما قبل الاسلام ، منها أن الرياسة كانت لعصور طويلة قبل الاسلام فى حمير وتبّع أعظم القبائل اليمنية ، وكانت لهم دول ومنعة وحضارة زاهرة ، بينما كانت مضر بدواً خشنين يخضعون لحمير ويؤدون لهم الجزية ؛ وكانت بينهما خصومات وحروب مستمرة طويلة الأمد ؛ ولنا فى « أيام » العرب ووقائعها المشهورة أمثلة رائعة من هذا النضال . قال ابن خلدون « واستمرت الرياسة والملك فى هذه الطبقة اليمانية أزمنة وآماداً بما كانت صبغتها لهم من قبل ، وأحياء مضر وربيعة تبعاً لهم — فكان الملك بالحيرة للخم فى بنى المنذر ، وبالشأم لغسان فى بنى جفنة ويثرب ، وكذلك فى الأوس والخزرج ، وما سوى هؤلاء من العرب فكانوا ظواعن بادية ، وأحياء ناجعة ، وكانت فى بعضهم رياسة بدوية ، وراجعة فى الغالب إلى أحد هؤلاء . ثم نبضت عروق الملك وظهرت قريش على مكة ونواحى الحجاز ؛ فاستحالت صبغة الملك اليهم ، وعادت الدول لمضر من بينهم ، واختصت كرامة الملك بالنبوة منهم ، فكانت فيهم الدول الاسلامية كلها إلا بعضاً من دولها ، قام بها العجم اقتداء بالملة وتمهيداً للدعوة » . وهكذا أسفر النضال لظهور الاسلام عن تحول فى الرياسة ، وانقلبت الآية فأصبحت المضرية تعمل على الاحتفاظ برياستها ، واليمنية تجاهد فى انتزاعها منها . وكانت مسألة اللغة أيضاً من أسباب ذلك الخلاف . ذلك أن لسان حمير كان أصل اللغة العربية التى اعتنقتها مضر ، وأسبغت عليها آيات باهرة من الفصاحة والبيان ، ونزل بها القرآن الكريم على النبى القرشى المضرى ؛ فكانت اللغة من مفاخر مضر تغار عليها ، وتحافظ على سلامتها ونقائها ، بينما فسدت لهجات القبائل الأخرى بالاختلاط وضعف بيانها ؛ أضف الى هذا وذاك ما كان بين الفريقين من تباين شديد فى الطبائع والخلال مما كان يذكى بينهما أسباب التنافس والتباعد ، وقد كان الاسلام مدى حين عاملاً قوياً فى جمع الكلمة ، ولكن العصر الأول ما كاد ينقضى حتى هبت كوامن الخصومة والنضال من مرقدها وعادت تعصف بوحدة المجتمع الاسلامى ، وكان هذا الخلاف أخطر وأشد فى الأقطار القاصية التى افتتحها الاسلام بالسيف ، ففتحت أمام القبائل والأجناس المختلفة التى تعمل تحت لوائه مجالاً واسعاً للتنافس والتطاحن ؛ وكان هذا هو بالأخص شأن المجتمع الاسلامى المضطرم الذى قام باسبانيا

وكان البربر الذين اشتركوا فى فتح الأندلس واستعماره عنصراً خالداً فى إذكاء هذا الخلاف ؛ فكانت هذه المعركة المزدوجة : العرب فيما بين أنفسهم ، ثم العرب والبربر ، هى قوام المجتمع الأندلسى

* * *

كان هذا الخلاف المستمر يقضم أسس المجتمع الأندلسى الفتى ، ولم يمض على قيامه أربعون عاماً حتى تحولت الأندلس الى بركان مضطرم من الحروب الأهلية ؛ واستمرت هذه المعارك الداخلية زهاء قرن ونصف ، ولم يقف تيارها قيام دولة أموية جديدة ، ولم تتخللها فى ظل هذه الدولة سوى فترة يسيرة من السكينة والتوطد ، منذ الناصر الى المنصور . بيد أن خطراً جديداً كان يتربص بهذه الدولة الاسلامية التى يمزقها الخلاف الداخلى ، هو خطر المملكة النصرانية الاسبانية ، التى نشأت صغيرة متواضعة ونمت بسرعة مدهشة ، وأخذت تنافس المملكة الاسلامية ، وتتحين فرص الايقاع بها ، ولم تفطن الأندلس الى هذا الخطر الداهم ؛ وما كاد صرح الدولة الأموية ينهار ، حتى وثب المتغلبون على أشلاء الأندلس يقتسمونها ، وقامت دويلات الطوائف فى المقاطعات والمدن ، تنافس بعضها بعضاً ، وتحاول كل منها أن

تنتزع ما بيد الأخرى ، وألفى عدو الأندلس الخالد — أسبانيا النصرانية — فرصتـه السانحة ، فأخذت تؤلب دويلات الطوائف بعضها على بعض ؛ وملوك الطوائف يرتمون فى أحضان النصارى ، ويلتمس كل محالفتهم على خصمه ومنافسه . وكادت الأندلس يومئذ تسير مسرعة إلى قدرها المحتوم ، وانتزع النصارى كثيراً من قواعدها وأراضيها ، لولا أن ظهر فى الميدان عامل جديد ، هو قيام الدولة المرابطية فيما وراء البحر ، ومقدم أميرها يوسف بن تاشفين إلى الأندلس على رأس جنوده البربر ، ملبياً داعى الغوث من جانب ملوك الطوائف ؛ فهنا استطاعت الدولة الاسلامية أن تنسى خلافها مدى لحظة ، وأن تلقى على النصرانيـة بمؤازرة المرابطين هزيمة حاسمة فى سهول الزلاقة ؛ ثم افتتح المرابطون الأندلس ، وأقاموا بها دولة جديدة ، ولـكن الصرح القوى الباذخ كان قد أخذ ينهار ؛ ولم يدم تماسك الدولة المرابطية طويلاً ، فقامت بالأندلس ملوك طوائف بربرية جديدة ، وعادت الأندلس تسير إلى فنائها ، وجاء الموحدون بعـد المرابطين ، فوصلوا دولة البربر بالأندلس مدى حين

ثم كانت دولة بنى الأحمر بغرناطة ، وكانت أندلس جديدة ، ولـكن صغيرة لا تعدو القطر الجنوبى المسمى بهذا الاسم ؛ وكانت اسبانيا النصرانية قد نمت واتسع نطاقها ، واستولت على قواعد الأندلس وثغوره العظيمة : قرطبة مهد الاسـلام ، وطليطلة ، وأشبيلية ، ومرسية ، وبلنسية ، وسرقسطة وغيرها ، وسطعت فى مملـكة غرناطة ، مدى حين ، لمحة من عظمة الأندلس الذاهبة وحضارتها الزاهرة ، واجتمعت أشلاء الدولة الأندلسية العظيمة فى هذه المملـكة الصغيرة المتواضـعة ، وشغلت الممالك النصرانية الشماليـة مدى حين بخلافها الداخلى . ولـكن الأندلس كانت تشعر بمصيرها شعوراً قوياً ، واستطاع رجال مثـل ابن الخطيب وابن خلدون أن يستشفوا ببصرهم الثاقب ذلك المصـير المروع الذى تسير اليه مملـكة غرناطة . ذلك أن نفس الخلاف الداخلى الذى قامت عليه الدولة الاسـلامية منذ البداية ، واستمر يدفع الأندلس إلى مصيرها خـلال القرون ، كان يمضف أيضاً بهذه المملـكة الصغيرة ، ولم يمض بعيـد حتى أخذت تمزقها المعارك الداخليـة ، ويشب أمراؤها بعضهم ببعض ، ويستمدون خلال هذه المعركة الخطرة ، العدو الرابض المتربص بهم جميعاً

وكان مصرع الأندلس خلال إحدى هذه المعارك الداخلية ، وما زالت قصـة السلطان أبى الحسن ، وأخيه الزغل ، وابنه عبد الله أبى محمد ، وانشقاق المملـكة الصغيرة فى أدق ساعات الخطر إلى شطرين ، والتجاء أبى عبد الله إلى ملك النصارى لينصره على أبيه وعمه ، ثم انتهاز النصارى هذه الفرصـة لا يقاع ضربتهم الأخيرة بتلك المملـكة التى مهدت لهم سبل الظفر بتمزيق بعضها بعضاً ، وتلك الأمة المسلمة التى لم تعرف قط أن تواجه الخطر متحدة الـكلمة والقوى — ما زالت هذه كلها عبرة العبر ، وكان مصرع الأندلس هذه المرة يسيراً محققاً ، فسقطت قواعدها الباقية تباعاً فى يد النصارى ، وسلمت غرناطة أخيراً ، ووقعت النتيجة المحتومة ، وطويت صفحة الدولة الاسلامية فى الأندلس ، ولم يمض جيل أو اثنان حتى طويت صفحة الاسلام كله ، وكل آثاره وذكرياته من اسبانيا

وقد كانت مأساة الأندلس وما زالت عبرة بالغة ودرساً خالداً للعالم الاسلامى كله . ولـكن العالم الاسلامى لم يعتبر بهذه العبرة ، ولم يع هـذا الدرس ، وما زال التفرق يمزق أوصاله حتى التهم الغرب الجشع معظم أشلائه ، وأضحى الاسـلام ذليلاً فى أرضه تخفق عليها أعلام النصرانية

فالى يسير الاسلام ؟ ومتى يدرك العالم الاسلامى قوة الاتحاد ؟

محمد عبد الله عنان
المحامى

الشهيد الغريب

عثمان بن مظعون

للأستاذ محمد سعيد العريان

بات (عثمان بن مظعون الجمحى) ليلتَه يقلِّبُ الرأى ، ويستلهم الفطنة ؛ وإن الهمَّ ليصطرع فى رأسه ، وإن الشك ليتلجلج فى صدره ، وإن بين عقله وعاطفته لحرباً مشبوبة ومعركةً طاحنة

أحقٌّ ما يقول محمد بن عبد الله ؟ فما هذه اللاتُ والعُزَّى ، ومَناةُ الثالثةُ الأخرى ؟ وما دينُنا الذى أورثَنا آباؤنا ومضى عليه أسلافُنا ؟ أذلك الحقّ أم دين محمد ؟

إنى لأعرفه مذ كان — أصدقَ العرب حديثاً وأعظمَها أمانة ؛ أفيكذب حين يبدو الشيبُ فى صدغيه ، ثم لا يكون كذبه إلا افتراءً على الله . . . ؟

أما وربِّ الكعبة لقد جاء محمد بأمر عظيم ، إن يكن الصدقَ فما يقعد بى أن أكون فى السابقين اليه . . . ؟

فلما أسفر الصبح ، غدا عثمان على محمد فى مجلسه ليسمع منه ؛ فما هو إلا أن تلا عليه آياتٍ من الكتاب حتى اهتزّت نفس عثمان ، ونفذت السماء إلى قلبه ، وغمره النور الالٓهى ، وشرح الله صدره للاسلام ، فتمّت به عدةُ المؤمنين اثنى عشر . . .

وانطلق عثمان إلى أهله يدعوهم الى الله ؛ فما تلبّث أخواه (قدامة وعبد الله) أن آمنا بما آمن ، وآمن من بعدهم بضع عشرة من بنى عمه وولده ؛ وإذا المؤمنون يزيدون ويكثرون ، وإذا الدين الجديد يتنقّل نبؤه فى همس من فم إلى أذن ، وينفذ فى رفق من قلب إلى قلب ، ثم يتدافع فى قوة حتى ينتظم الأربعين من شباب قريش وكهولها . ثم إذا هو من بعدُ نداءٌ عامٌّ ، يدعو إليه رسولُ الله من فوق (الصفا) ، فيفشو أمرُه ، ويتحدّث به الناس ، وتتناقله القبائل ، وتتقاذفه فلوات شبه الجزيرة ؛ فما ينكر على محمد دعوته إلا الملأُ من أشراف العرب . . .

أكنتَ ترى السادة من قريش أهلَ الرفادة والسقاية — ينزلون عن جاههم وسلطانهم بهذا الهوان لمحمد ؛ أم تحسبهم يتركون ما كان يعبد آباؤهم مختارين انقياداً لهذا الداعى ؟

إن كبرياء النفس البشرية هو إيمانها بنفسها ؛ فما يغلبها على كبريائها إلا الايمانُ الأكبر ؛ وما إن تبلغ هذا الايمانَ إلا مقهورة عليه ، نازلة على سلطانه الأقوى ، منقادة له انقياد الرضى والاستسلام ؛ فاذا هى بلغتْ ذاك فقد تبدّلت النفسَ غير النفس ؛ فما تتكبَّر إذ تتكبر بنفسها ولكن بما تدين ، وما تُفاخر حين تفاخر بخصائصها الذاتية ، ولكن بقوة العقيدة التى اعتنقت ؛ ويعود تعصُّبها لنفسها تعصباً للحق الذى آمنت به ، ومن ثمّ كانت مدافَعة العرب للنبيّ شديدة ، حتى إذا دمغهم الحق ونال من كبرياء أنفسهم ، إذا هم أبرُّ الناس به ، وأخلصهم فى طاعته ، وأشدّهم استبسالاً فى الدعوة إلى دينه والذياد عنه ؛ فكانت هذه المعجزة الانسانية الكبرى التى انبثق لها هذا الفجر الضاحك فأشرق بالسلام على البشرية كلها ، وامتدّ امتداد القدر يقبض راحته على الدنيا ، وانبسط انبساط الأمل يتناول كل ما فى الوجود ، ورسم للانسانية حدودَ سعادتها فى معانى الأخاء والمساواة والحرية !

* * *

تذامر الملأُ من أشراف مكة على محمد وأصحاب محمد ليفتنوهم عن دينهم ، فآذوهم فى أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، وأخذوهم بكل نكال ، حتى بلغوا من تعذيبهم الغاية ولم يبلغوا من مسلم أربا ؛ ورأوا أمر الله أغلب من أمرهم فى هذه القلوب ، فمضوا يفتنُّون فى الكيد لهم ما يتورّعون من شر . وأيقن المستضعفون من المسلمين أن لا مقام لهم على هذا الهوان خوفَ الفتنة ، فجلوا عن أرضهم وديارهم فراراً إلى الله بدينهم . . . !

وانطلق عثمان بن مظعون يَقْدُم الفوجَ الأول مهاجرين إلى الحبشة ، تفيض أعينهم من الدمع حزناً ، أن تركوا أموالهم وأولادهم وعشيرتهم ؛ منهم الراجل قد ثقلت عليه نفسه ، والراكبُ قد ناء بما يحمل من همّه . حتى انتهوا إلى البلد الذى أرادوا

وأمنوا الفتنة ، يروحون ويغدون فى ظلّ مَلِكٍ كريم .

أفتراهم على ذلك قد اطمأنّت بهم الدار ؟ ومن أين للغريب النازح عن أهله وأحبابه أن تستقرّ به الدار !

وطال بهم الحنين إلى بلدهم وإلى مشرق النور من وجه النبيّ

الكريم ، يسترْوِحون من كل نسمة تهبّ من أرض الحجاز ذكرى تَشُوق وحنيناً يستجدّ . فما كذبوا أن جاءهم بشيرٌ باسلام قريش ، فقفلوا آملين مستبشرين ، وما منهم إلا مُشرقُ الوجه تحدّثه نفسه حديث المبعَد يوشك أن تستقرّ به النوى ويُلقي عصاه بين أحبّته وأهله وملاعب صباه !

ثم ما هي إلا أن دانَوْا مكةَ وبدت لهم أعلامُها وهبّت عليهم نسائمُها ، حتى انكشف لهم أن إسلام قريش لم يكن إلا أمنية . . . فألقوا على الوطن المهجور نظرةَ اللهفان فاتته المنى ، ثم لووا عنان الركب عائدين إلى المهاجَر ، وإن قلوبهم لتتلفت مودِّعةً وما سعدتْ باللقاء . . . !

وتحدّرت دمعتان على وجه عثمان إذ حضرته صورة المصطفى من الله ، فهفَت نفسه إلى لقائه ، وهان عليه ما يستهدف له من أذى المشركين ما دام سعيداً بطلعة النبي ، يراه في كل غدوة ورواح ، ويستمتع به كلما حلا له أن يستمتع

ودخل مكة في جماعة من المهاجرين مستَخْفين على حذر ورقبة ، حتى لقيه (الوليد بن المغيرة المخزوميّ) فاستظلّ بجواره

وأمن عثمان عُدْوانَ المشركين في حماية أعزّ قريش وأمنعها ، ومَن ذا يجرؤ أن يستبيح ذمّة الوليد في جاره ؟ فانه ليغدو ويروح لا يناله شر ولا يعرض له أحد بسوء . . .

وخرج عثمان مرة لبعض شأنه ، فاذا هو يبصر رجلا من أصحاب رسول الله مطروحاً على الرمضاء عارياً في حرّ مكة وقد حميت الظهيرة ، قد وُضعت على صدره صخرةٌ ينوء بها الفحل ، تعذيباً له عما آمن بمحمد !

واهتزت نفس عثمان مما رأى ، وبرّح به الألم مما ينال أخاه المسلم فلا يستطيع له دفعاً ، فصغرت نفسه في عينه ، ومضى والهم يجثم على صدره أثقلَ من صخرة العذاب على صدر أخيه !

ومشى خطوات ، فاذا هو يشاهد شراً مما رأى : هذا أبو بكر ، يلقاه سفيهٌ من سفهاء مكة فيحثو عليه التراب ، وأولاء جماعةٌ من المشركين يشهدون سفاهة صاحبهم فيضحكون ويسخرون . !

وزاد الهم بعثمان ، وغشيته غاشـية من الحزن والألم ! إنه ليحس التراب على رأسه ، وإنه ليشعر بمثل حرّ الرمضاء يشوى جسده هو ، وإن قلبه ليفيض غماً . إنه ليرى نفسه في جوار سيد قريش ، فما يمنعه ذلك أن يلقى من آلام النفس فوق ما يلقى صحابته من آلام الجسد !

وسار مثقل الرأس ، يحمل همّه على كتفيه ، ضيّق الخُطا كأنما يطأ الشوك . وإذا واحدٌ من المسلمين يلقاه فيحدّثه بما لقي (آلُ ياسر) من أذى بني مخزوم : لقد مات (ياسر) في العذاب وماتت زوجه (سميّة) طعيناً بيد أبي جهل ، وهذا (عمار بن ياسر) لا طاقة له بدفع ما يلقى من أذى بني مخزوم ، وما أراه إلا مُوشِكا أن يلحق بأبويه . . . !

واشتدّ به الهم إذ سمع ما سمع بعد إذ رأى ما رأى ، ومضى يتحدّث إلى خواطره ، فاذا هو على الأمان والطمأنينة في عذابٍ أشدّ مما يلقى إخوانه المستضعفون . وقال لنفسه : والله إن غُدوّي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني – لنقصٌ كبير في نفسي ! إنه والله الفرارُ من الأجر والمثوبة ، وإن لهم عند الله لمنزلةً هيهات أن يعزيني عن فقدها أنني في سلامة الأذى . بل إنه الفرار من حمل أثقال الايمان ، وإنه لأرْوَح لقلبي أن ألقى ما يلقى إخواني في الله ، فاني لأُوشك أن يغلظ قلبي فما آمَنُ على نفسي من أوضار الشرك !

يا نفسي ، ما برهانُكِ على أنك مؤمنة إذا لم تحملي أثقال الحياة راضية ؟

ما دليلكِ على أنك قاسيتِ في سبيل دينك وإنك لتفرّين فرار المتمسك بدنياه ؟

ماذا قدّمتِ – يا نفس – لله من حظلكِ وراحتك فيكونَ لك في الآخرة أن تدّعي وتستطيلي ؟

ألا إن الايمان هو أن ينالك ما نال المؤمنين ، وإن عذاب الناس لَهُوَ ثوابُ الله ، وما يَصْدُقُ الخبرُ عن بسالة الجنديّ إلا أن تشهد له جراحُه ، وما أنا رجلا إن لم أكن الآن رجلا . . !

ومشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : « يا أبا عبد شمس ، وَفَتْ ذمّتُك ، وقد رددتُ اليك جوارك ! »

قال الوليد : « يا ابن أخي ، لعله آذاك أحد من قومي . . ؟ »

قال عثمان : « لا ، ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره . . ! »

قال الوليد : « فانطلقْ بنا إلى المسجد فاردد عليّ جواري علانيةً كما أجرتُك علانية »

فانطلقا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد : « هذا عثمان قد جاء يردّ عليّ جواري »

وقال عثمان : « صَدَق ، قد وجدته وفيا كريم الجوار ، ولكني قد أحببتُ ألا أستجير بغير الله ، فقد رددتُ عليه جواره ! »

ثم افترقا . وجلس عثمان يستمع إلى إنشاد (لبيد بن ربيعة) في مجلس من قريش ، فقال لبيد : « ألا كلُّ شيء ما خلا اللهَ باطل »

قال عثمان : « صدقْت ! »

قال : « وكلُّ نعيم لا محالة زائل ! »

قال عثمان : « كذبت . . . ! »

وأعاد لبيد ، وعاد عثمان يقول : « كذبت ؛ نعيم الجنة لا يزول أبداً »

فغضب لبيد وقال : « يا معشر قريش ، والله ما كان يُؤذَى جليسُكم ؛ فمتى حدث هذا فيكم ؟ »

قال رجل من القوم : « إن هذا سفيهٌ في سفهاء معه قد فارقوا ديننا ؛ فلا تجدْ في نفسك من قوله ! »

وردّ عليه عثمان حتى شَرِيَ الشرُّ بينهما ، فقام الرجل فلطم عين عثمان فاخضرّت ، والوليد بن المغيرة بمجلس قريب يرى ما بلغ من عثمان ، فقال : « أما والله يا ابن أخي ، إن كانت عينُك عما أصابها لغنيَّة ، لقد كنتَ في ذمة منيعة ! »

قال عثمان : « والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله ، وإني لفي جوار من هو أعزُّ منك وأقدر ! »

فقال له الوليد : « هلمّ يا ابن أخي ، فعُدْ إن شئت إلى جوارك ! »

قال عثمان : « لا ... ... ! »

وسار في سبيله عامر القلب بالايمان ، طيِّب النفس بما يبذل في سبيل الله ، قرير العين بأنه لم يلجأ إلا اليه . . .

* * *

ومضى المشركون في عدوانهم لا رفق ولا هوادة ؛ وآذى النبيّ ما يلقى صحابتُه ، فدعاهم إلى اللحاق بمن سبق من المهاجرين إلى الحبشة

وخرج عثمان فيمن خرج ، عائداً إلى المهاجَر النائي طاعةً لرسول الله . فأقام هناك ما أقام ، ضيِّق النفس على سعة من العيش ، مكروباً من الغربة على الأمان والأذى !

وتصرّمت السنون عاماً بعد عام وهو يكافح الشوق والحنين ، حتى أُذن له أن يفارق الحبشة بعد ست سنين ، لا إلى مكة الحبيبة إليه ، ولكن الى المهاجَر الثاني ، الى المدينة ، من مُغترَب الى مغترب . فما مضى عام وبعض عام على مقامه حتى ملّ غربتَه ، فودّع دنياه الى الوطن الباقي بقاءَ السموات والأرض ، الى جوار الله . ومات أوّل مَن مات من المهاجرين بالمدينة !

وقبّله النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو يبكي وعيناه تذرفان ، ووسَّده الثرى ونفض يديه من ترابه ، ولكن ذكراه ظلّت حيّة في قلبه ؛ فلما مات ولده (إبرهيم) زوّده بالتحية الى الشهيد الغريب ، وودّع ولده الواحد وهو يقول : « إلحقْ بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون ! »

يا ابنَ مظعون ، فرغتَ من أمر الدنيا وآلامها ، بعد أن قضيتَ أيامك على الأرض تتقاذفك الفلواتُ من غربة الى غربة ، ولم تَبْكِ ، وبكتْ لك دموعُ النبوّة ؛ دموعٌ تقدّمك الى الله بثيابك ، وتقدّمك الى التاريخ يترحّم عليك . وفي الوقت الذي يُسلَب الملوك فيه تيجانَهم وُضع عليك التاج . . . !

طنطا — محمد سعيد العريان

مجد الإسلام

وقفة على طلل

للأستاذ محمود غنيم

مالى وللنجم يرعانى وأرعاه ! … أمسى كلانا يعاف الغمض جفناه
لى فيك يا ليل آهات أرددها … أوّاه لو أجدت المحزون أوّاه
لا تحسبنّى محبًّا يشتكى وصبًا … أهون بما فى سبيل الحب ألقاه
إنى تذكّرت — والذكرى مؤرّقة — … مجداً تليداً بأيدينا أضعناه
أنّى اتجهت إلى الإسلام فى بلد … تجده كالطير مقصوصاً جناحاه
ويح العروبة كان الكون مسرحها … فأصبحت تتوارى فى زواياه
كم صرّفتنا يدٌ كنا نصرّفها … وبات يملكنا شعبٌ ملكناه
كم بالعراق وكم بالهند ذو شجن … شكا فردّدت الأهرام شكواه
بنى العمومة إنّ القرح مسّكمو … ومسّنا . نحن فى الآلام أشباه
يا أهل يثرب أدمت مقلتىّ يدٌ … بدريّةٌ تسأل المصرىّ جدواه
الدّين والضاد من مغناكم انبعثا … فطبّقا الشرق أقصاه وأدناه
لسنا نمدّ لكم أيماننا صلةً … لكنما هو دَينٌ ما قضيناه

***

هل كان دين ابن عدنان سوى فلق … شقّ الوجود وليل الجهل يغشاه ؟
سل الحضارة ماضيها وحاضرها … هل كان يتّصل العهدان لولاه ؟
هى الحنيفة عين الله تكلؤها … فكلّما حاولوا تشويهها شاهوا
هل تطلبون من المختار معجزة … يكفيه شعبٌ من الأجداث أحياه
من وحّد العرب حتى كان واترهم … إذا رأى ولد الموتور آخاه
وكيف كانوا يداً فى الحرب واحدة … من خاضها باع دنياه بأخراه
وكيف ساس رعاة الابل مملكة … ما ساسها قيصرٌ من قبل أو شاه
وكيف كان لهم علمٌ وفلسفةٌ … وكيف كانت لهم سفنٌ وأمواه
سنّوا المساواة لا عربٌ ولا عجمٌ … ما لامرئ شرفٌ إلا بتقواه
وقررت مبدأ الشورى حكومتهم … فليس للفرد فيها ما تمنّاه
ورحّب الناس بالاسلام حين رأوا … أنّ السلام وأنّ العدل مغزاه
يا من رأى عمرًا تكسوه بردته … والزيت أدمٌ له والكوخ مأواه
يهتزّ كسرى على كرسيّه فرقاً … من بأسه وملوك الروم تخشاه

***

سل المعالى عنا إننا عربٌ … شعارنا المجد يهوانا ونهواه
هى العروبة لفظ إن نطقت به … فالشرق والضاد والاسلام معناه
استرشد الغرب بالماضى فأرشده … ونحن كان لنا ماضٍ نسيناه
إنّا مشينا وراء الغرب نقبس من … ضيائه فأصابتنا شظاياه

***

بالله سل خلف بحر الروم عن عرب … بالأمس كانوا هنا ما بالهم تاهوا ؟
فان تراءت لك الحمراء عن كثب … فسائل الصرح أين المجد والجاه
وانزل دمشق وسائل صخر مسجدها … عمن بناه لعل الصخر ينعاه
وطف ببغداد وابحث فى مقابرها … علّ امرأً من بنى العباس تلقاه
هذى معالم خرسٌ كلّ واحدة … منهنّ قامت خطيباً فاغراً فاه
إنى لأشعر إذ أغشى معالمهم … كأننى راهبٌ يغشى مصلاه
الله يعلم ما قلّبت سيرتهم … يوماً وأخطأ دمع العين مجراه
أين الرشيد وقد طاف الغمام به … فحين جاوز بغداداً تحدّاه
ملكٌ كملك بنى التاميز ما غربت … شمس عليه ولا برقٌ تخطّاه
ماضٍ نعيش على أنقاضه أمما … ونستمدّ القوى من وحى ذكراه
لا درّ درّ امرئٍ يطرى أوائله … فخراً ويطرق إن ساءلته ماهو

***

ما بال شمل بنى قحطان منصدعا ؟ … ربّاه أدرك بنى قحطان ربّاه
عهد الخلافة فى البسفور قد درست … آثاره طيّب الرحمن مثواه
عرشٌ عتيدٌ على الأتراك نعرضه … ما بالنا نجد الأتراك تأباه
ألم يروا كيف فدّاه معاوية … وكيف راح علىٌّ من ضحاياه
غال ابن بنت رسول الله ثم عدا … على ابن بنت أبى بكر فأرداه

من الفلسفة الإسلامية

عينيـــة ابن سينا
أو
قصة الروح

للأستاذ زكي نجيب محمود



اذنُ مني ياصديق واستمع إلى هذه القصة الممتعة الرائعة التي يرويها ابن سينا عن الروح . وما أدراك ما الروح ؟ هذا السر العجيب الذي سرى واستكنّ بين أحنائك فلا تكاد تدري من أمره شيئاً ؛ وهل يداخلك شيء من الريب في أنك مزيج من مادة وروح ؟ فأما المادة فهي هذا اللحم والعظم ، وأما الروح فهي ذلك الفكر الرائع والخيال البارع وتلك الحركة المتوثبة الدافقة ، حتى إذا جاءك يوماً قضاؤك المحتوم ، انطلق كل من المنصرين الى سبيله ؛ فأنَّى لك هذا السر المكنون ، وأيان يذهب بعد الموت ؟ ذلك ما يرويه ابن سينا في قصيدته وما أنا محدثك به الآن — قال ابن سينا :

هَبَطَتْ اليك من المحلّ الأرفع ورقاءُ ذاتُ تَعَزُّزٍ وتَمَنُّع

فقد كانت تعيش الروح أول أمرها مطلقة مجردة في الرفيق الأعلى ، ثم كُتِبَ عليها أن تهبط الى هذا الدرك الوضيع ؛ ولقد آثر فيلسوفنا الشاعر لفظ الهبوط على السقوط لأنها في رأيه لم تسقط الى هذا الحضيض من علٍ كما يسقط الحجر الجماد سقوطاً لاشعور فيه ، أو كمن ينتكس من أوج الجبل الى سفحه انتكاساً يقربه من الجماد المرغم على السير في طريق بعينها لا يملك لنفسه شيئاً ، إنما هبطت اليك الروح ؛ وفي لفظ الهبوط معنى الشعور والادراك ، من محلها الأرفع ، حيث تسبح العقول المجردة روحانيةً خالصةً لا تشوبها شائبة من مادة . . . ولكني عهدتك يا صديق عنيداً ملحاحاً لا ترضى بالقول يُرسل إرسالاً ، بل تقتضي محدّثك الأمثلة يضربها توضيحاً لما يريد . وكأني بك تسائلني أو تسائل الشاعر : وكيف كان ذلك الهبوط ؟ فهو يجيب : إن شئت للروح في هبوطها مثلاً مما تعلم من ألوان الحركة ، فهي أشبه بالطير سابحةً في أجواز الفضاء ، محوّمةً صاعدة هابطة ، وماذا ترى بين الأشياء التي تتحرك بالارادة أشد شبهاً بالروح من الطير في خفته ولطف جوهره ، وفي هبوطه وصعوده ؟ لعمري لقد وُفّق فيلسوفنا ، بل لقد وفق أصحاب الفن منذ أقدم العصور في تصويرهم للملائكة أو ما يتصل بالملائكة من كائنات روحانية بالجسوم المجنّحة إدراكاً منهم بهذه الرابطة القوية الصادقة بين خفة الأرواح ولطفها ، وبين رشاقة الطير ورقته . ولكن فيلسوفنا الشاعر لا يرضيه تشبيه الروح في هبوطها بالطير على عمومه ، بل أجال بصره في عالم الطير لعله يجد بينها نوعاً خاصاً يكون أقربها صلة بالروح ، فما أسرع أن ساقه صدق شعوره وكمال إحساسه الى الحائم ، وهل تستطيع أن تدلني على طير هو أشد من الوُرْق استئناساً ووداعة ، وأطول من الورق حنيناً وأصدق بكاء ؟ ! وإذن فما أشبه الروح بالورقاء ، فهي قد نشأت في عالم قدسيّ رفيع ، مجردةً عن ملازمة المادة ومواصلتها ، فلما كان لها أن تهبط الى الجسد المادي ، طال ترددها واشتد تمززها وتمنعها ، وكانت فيما أحست من ألم كمن ينتحب

لما ابتغى يدَها السفاحُ أمهَرَها نهراً من الدم فوق الأرض أجراه
ما للخلافة ذنبٌ عند شانئها قد يظلِم السيفَ من خانته كفّاه
الحكمُ يَسلس باسم الدين جامحُه ومن يَرُمْهُ بحدّ السيفِ أعياه
يارُبَّ مولًى له الأعناقُ خاضعةٌ وراهبُ الدّيْرِ باسم الدّين مولاه
إنى لأعتبرُ الإسلامَ جامعةً للشرق لا محضَ دين سنّهُ اللهُ
أرواحُنا تتلاقى فيه خافقةً كالنحل إذْ يتلاقى في خلاياه
دستورُه الوحيُ والمختارُ عاهلُه والمسلمونَ — وإن شَتّوا — رعاياه
لاهُمَّ قد أصبحت أهواؤنا شيعاً فامنن علينا براعٍ أنتَ ترضاه
راعٍ يُعيدُ إلى الإسلام سيرتَه يَرْعَى بنيهِ وعينُ اللهِ ترْعاه

(كوم حمادة) محمود غنيم

بالبكاء ، حنيناً الى عالمها ذاك ، ونفوراً وازوراراً من الاخلاط الجثمانية التى كتب لها أن تهبط اليها فتعيش بينها فترة من زمان محجوبة عن كلّ مقلة ناظر وهى التى سَفَرَت ولم تتبرقع

ألا ما أعجب الروح ! إنها تلازمك أينما حللت ، لا تفارقك إلا يوم تكون أنت لست اياك ، فهى قريبة منك ، بل هى أنت ؛ تسرى فى دمائك ، وتدب فى كل عضو من أعضائك ، ثم هى مع ذلك تمتنع عن النظر وتستعصى على الادراك ! فاذا ما حاولت رؤيتها تحجبت وأسدلت حول نفسها قناعاً صفيقا لا ينفذ منه شعاع من بصر ، لماذا ؟ لأنها تذكُر ماضيها الجليل ، يوم كانت فى العالم الأقدس الرفيع ، فتأخذها العزة والكبرياء ، وتتعالى عن إدراك العيون ! وكيف تريدها على الظهور أمام مقلتيك وهما لم تُخلقا إلا لرؤية الأجساد المادية وحدها ؟ فأما هذه الماهية المجردة فهيهات أن تدركها بالنظر ؛ وكل محاولة منك فى هذه السبيل صائرة حتما الى فشل وإفلاس ، ولكن لا تيأس ياصاحبى ، فثم سبيل لادراكها غير هذه المقل ، وغير هذه الحواس جميعاً ؛ انظر اليها بعين العقل تجدها واضحة سافرة كاشفة عن وجهها لا تسدل من دونه البراقع والستور ، فهى إن كانت تأبى أن تبدو للحواس فذلك لأنها تعلو بنفسها عن هذا الدرك الخسيس ، وهى إنما تتضح وتجلو لكل عاقل من الناس ، يبحث عنها بعقله فى آثارها ودلائلها . إذن فالروح مع كمال خفائها وشدة غموضها عن العين ، يمكن إدراكها بالعقل لمن يريد معرفتها بالدليل والبرهان

وَصَلَتْ على كرهٍ اليك وربما كرهتْ فراقك وهى ذات تَوجع

لقد علمت أن الروح قد اتصلت بهذا الهيكل الجثمانى متأبية مقهورة مكرهة ، ولكنها من عجيب أمرها عادت فكرهت أن تفارق هذا الجسد الذى أرغمت على الحلول فيـــه أول الأمر إرغاماً ، أما كونها جاءت مكرهة فلأنها حين هبطت اليك كانت تعلم أنها إنما تتصل بكتلة من المادة . ليس بينها وبينها تآلف وتجانس ، إذ ليست هى فى تجردها وروحانيتها شبيهة بالجسد فى ماديته ، وهل تستطيع أن تظفر بأنس من رفيقك إذا لم يكن بينك وبينه تجانس فى الصفات ؟ فان أُرغِمْتَ على هذه المرافقة إرغاماً على ما بينكما من تنافر وتناكر ، فانت لاشك غاضب كاره ؛ وأما كونها تعود فتكره فراق الجسد فذلك لأنها قد تمكنت منه وسَرَت فى أنحائه سريانا شـــديداً ، فتشبثت به تشبثاً قوياً متينا ليس انحلاله أو زواله هنة هينة ، وأنت تستطيع أن تلمس ذلك فى نفسك إذا هممت بالانتحار ، فلن تجد من نفسك إقبالاً على الموت ورضى به واطمئنانا اليه ، ومعنى ذلك أن روحك قد استطابت مُقامها الجديد بعد نفور ، ولكن حذار أن يذهب بك الظن الى أنها قد ارتبطت بالجسد ارتباطا بلغ من القوة والمتانة حد الاندماج ، بحيث إذا زال الجسد زالت الروح تبعاً له ، كلا ، إنما ترتبط الروح بالجسد ارتباطاً يقع بين القوة الشديدة والضعف الشديد ، فلا هو الى القوة التى تدمجها فيه ادماجاً ، ولا هو الى الضعف الذى يُيَسِّر لها سبيل الفرار . ولكنى لم أحدثك بعد عن علة كرهها لفراق الجسد ، وقد جاءته مكرهة أول الأمر . أما ذلك فلأنها رأت أنها تستطيع أن تتخذ من هذا الجسدُ أداة للخير والفضيلة ، لقد كانت فى حياتها المطلقة الأولى خالية من الصفات الفاضلة الايجابية جميعا ، وهاهى ذى قد رأت فى الحواس سبيلا قويمة تحصل بها من الأخلاق والعلم حظا موفورا ، وإذن فاتصالها بالجسد قد جعلها عارفةً بعد سذاجة وجهل ، متحركةً بعد خمول وسكون ، فهل تدهش بعد هـذا إذا رأيت الروح جازعة فازعة حين يدنو منها الأجل المحتوم الذى يفصل بينها وبين زميلها انفصالاً ليس بعده من لقاء ؟ وهل تعجب إذا رأيتها حين اتصالها بالجسد تدافع جهدها عنـه لتدفع ما يتهدّدُه من علة أو مرض ، وتحرص وسعها أن يكون موفور الحظ من السلامة والعافية ؟

أَنِفَتْ وما أَنِسَتْ فلما واصلت

أَلِفَتْ مجاورةَ الخرابِ البلقعِ

إذن لقد هبطت الروح الى هـذا الهيكل مُعْرِضَةً عنه مزدريةً له صلفاً منها وتيها ، وحقّ لها ذلك ، فهى خالدة لا تخضع للفناء ، وهو وضيع بتماوره الكون والفساد ، لهذا أنفت منه ولم تأنس له بل استكبرت عليه وأبت أن تنزل بنفسها الى حضيضه الأسفل ، وظل النفور بينهما حيناً من الدهر لم يَطُلْ ، حتى عرفت أنه أداة قويمة صالحة لتحصيل الفضيلة والخير ، عندئذ أَنِسَتْ به ورضيت بالاقامة معه فى إخاء وائتلاف ، وما هى إلا أن وضح أمامها الطريق وقام الدليل قاطعاً على أنها ستحقق بالجسد مرادها من الكمال ، فقويت العلاقة واشتدت الملازمة على الرغم من علمها أن هـذا الذى ترافقه وتزامله لن يلبث حتى ينقلب خراباً بلقعاً لا غناء فيه ، إذ هو سائر إلى الفناء بعد حين

يقصر أو يطول . ولعلك تلاحظ أن فيلسوفنا قد عبر هنا عن العلاقة بينهما بلفظ المجاورة قاصداً متعمداً ، لأنه أراد لك أن تعلم أنها ليست من الجسد بمثابة الأبصار من العين مثلا ، يكادان يكونان شيئاً واحداً ، ولكنها منه كالملاّح من سفينته يديرها ويدبر أمرها . ثم هو بعدُ يستطيع أن يستقل بوجوده بعيداً عنها ، فهي علاقة تجاورٍ لا علاقة دمج وإدغام

وأظنها نسيت عهوداً بالحمى   ومنازلا بفراقها لم تقنع

نعم : لقد اطمأنت إلى الجسد بعد صدّ ونفور ، وأنست به بعد وحشة ، وبلغ بها الاطمئنان والانس حداً نسيت معه تلك العهود والمواثيق التي أُخِذَتْ عليها أيام كانت في عالمها الرفيع السامي ، وركنت إلى غير جنسها ركوناً لا تحب معه الفراق ، وقد بلغ منها ذلك النسيان لمنازلها الأولى حد الغلوّ والاسراف ، فهي لم تقنع بمجرد فراقها لعالمها الأول ، بل زادت عليه عشقها للعالم الجديد ، وهنا كأنما نحس من فيلسوفنا إشفاقاً على الروح أن تكون قد رضيت بالأدنى عن الأعلى لتغيّرٍ في صفاتها وتحوُّلٍ في إدراكها وفسادٍ في طبيعتها

حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها   من ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاءُ الثقيل فأصبحت   بين المعالم والطلول الخُضَّع

يا ويح النفس ! والله لكم أخشى أن تكون الروح قد مازجت المادة حتى فسدت عنصراً ، فهي لم تكد تهبط من أبعد الذرى لتمس عالم المادة حتى علقت به وهو بعدُ لا يأتلف إلا من الخسيس الكثيف الذي يَنْدُرُ أن يكون سبيلاً إلى الكمال (ذات الأجرع هي المادة الأرضية الكثيفة أي البدن) ، نعم ، لم تكد تهبط الروح ، وتدب في مادة الجسد حتى علقت بها هذه المادة الجثمانية وأحلّتها بين أجزائها وطيّ ثناياها ، بين معالم الجسد وأطلاله الخربة المتداعية . بين عظامه وغضاريفه ولحمه وشحمه ، التي تخضع للفناء وتؤول للبطلان وتنقلب إلى الدثور . ولكن لعلها قد دبت بين أجزاء الجسد الفانية لا لتجرى مجراها . ولكن لتستخدمها في تحصيل المعارف والفضائل

تبكي إذا ذكرت عهوداً بالحمى   بمدامع تهمي ولم تتقطع

لقد حُمَّ القضاء ووقعت الواقعة ، فقد حان للروح حينُ فراقها وجاء أجلُها ، وها هي ذي قد فصلت عن رفيقها وخلفته وراءها رماداً وتراباً ، فهي إذا ما ألقتْ بنظرها إلى هذه الأوصال المفككة ، وإلى هذا البيت المعمور ، وقد دب فيه الخراب والدمار ، عظم عليها الوَجْد وجَلّ في عينها الخطب ، وقد تتزاحم أمامها ذكريات الماضي أيام كانت تنعم بزمالة هذا البدن المحطوم في شتى ألوان النعيم ، فتتفجع وتتوجع وتحزن وتأسى ، فان كانت روحاً خيرة فاضلةً كانت فجيعتُها أن افتقدتْ أداةَ الخير والفضيلة إذ افتقدت الجسد ، وإن كانت روحاً شريرة خبيثة مستهترة كانت حسرتُها أن سُلبت وسيلة اللذة والمتاع — ألا وهي الجسد كذلك

وتظل ساجعة على الدِّمن التي   درست بتكرار الرياح الأربع

ولا تحسبن الروح بعد فراقها للجسد قد غفلت عنه وأنسيته بل انها تتردد اليه الحين بعد الحين ، فتقف بإزائه باكية نادبة ، وقد أبت قريحةُ الشاعر الفيلسوف إلا أن تصور الروحَ ، وقد جاءت تنشُدُ أطلال الجسد فتجد منه بقية باقية يهيِّج منظرُها ما كان كامناً فيها من شجون ، وإنما تعظم الحسرة إذا بقيت من منازل الأحباب آثارها لما تثيره في النفس من ألم وحنين ، أما تلك الرياح الأربع التي ما فتئت تهب على مادة الجسد حتى درستها درساً ، فيغلب أن تكون الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة التي لا تنفك ، تعتور الصخور الصلدة حتى تفتتها هشيما تذروه الرياح هنا وهناك ، فتنطمس المعالم الأولى انطماساً تَشُوه بعده وتتنكّر ، ولستُ بحاجة الى أن ألاحظ لك يا صديقي أن في هذا البيت تصريحاً من الفيلسوف بخلود الروح بعد الموت ، فهي باقية خالدة تروح وتغدو ، ويستحيل عليها التحلل والفناء

إذ عاقها الشَّركُ الكثيف وصدَّها
قفصٌ عن الأوج الفسيح المربع

ولكن ليت شعري فيم بقاء الروح بين هذه الأطلال الدارسة باكيةً نادبةً ، وماذا يعوقها أن تعلو وتصعد إلى حيث العقولُ المجردة في الملأ الرفيع ؟ أليس في ذلك فكاك لها من شوائب المادة ونقائصها ، وتحرر من قيود الحس وأصفاده الثقيلة الباهظة إلى حيث تسبح في تلك الأرجاء الفسيحة تتسرح فيها تسرحاً مطلقاً لا يصدها ضيق ولا تزاحم ؟ لعمرى إنها الدنيا التي تجتذبها كما يجتذب الشركُ سوانحَ الطير الطليق عما يُلقى فيه من حَب ، فهذه اللذة والشهوة والمتاع كفيلة أن تغرى النفس إغراء يكون لها غلا ووثاقاً ، وليس شركُ الدنيا الذى تُطوِّقُ

به النفوسَ تطويقاً من ذلك الضَّرْب الهين الخفيف الذى تحطم قضبانُه وسلاسله فى سهولة ويسر ولكنه شركٌ عاتٍ قوى كثيفٌ يحوك حول السجين آلافاً من الحبائل والحوائل التى يتعذر منها الخلاص إن لم يستحل وإذن فهذا الجسد للروح بمثابة القفص للطير القنيص ، لا تستطيع أن تغادره أو تجاوز حدوده إلا إذا أراد لها ذلك واضعها ، ولكنه قفص على ما ضرب حولها من سياج منيع مُشبَّكُ القضبان فيه من النوافذ مايسمح للسجينة أن ترسل خلالها الفكر والبصر إلى أرجاء الكون ، وما تلك المنافذ التى تتسلل منها الروح إلى أنحاء الوجود إلا الحواس من بصر وسمع وما اليهما ، وإلا العقل تتقصى به أطراف الأرض والسماء

حتى إذا قَرُبَ المسيرُ إلى الحِمَى ودنا الرحيلُ إلى الفضاء الأوسع
وغدت مُفارقةً لكلِّ مُخلَّفٍ عنها حليفَ التُّرْبِ غير مُشيَّع

هكذا ارتبطت الروح بالجسد ارتباطاً مكيناً . حتى إذا دنت ساعة الرحيل وحان أجل الفراق لهذا البدن إلى حيث تنطلق فى الفضاء الرحب الفسيح ، وأخذت تقطع مابينه وبينها من صلات وعلائق وأسباب ، وهو تلك الكتلة المادية المخلفة المعطلة المطروحة بعد المفارقة تحت أطباق الثرى دون أن يُلتفت اليه أويعنى بشأنه احتقاراً له وازدراء ، بعد أن خلَّفته الروح وخلعته ، تقول إذا دنت ساعة الرحيل وفارقت الروح جسدها . . .

هَجعتْ وقد كُشف الغطاءُ فأبصرتْ
ماليس يُدركُ بالعيون الهُجَّع

عندئذ يزول عنها حجاب البدن فينكشف الغطاء فتدرك ما كان يستحيل عليها إدراكه أيام اتصالها به ، ذلك لأن الأرواح المتلبسة بالأجساد إنما تكون رقوداً هجعاً أو كالرقود الهجع لأنها إذ تكون عالقة بالأبدان تكون محجوبة عن الادراك الذى تُحصِّله النفوس المجردة كما يحتجب النائم عن إدراك ما يدركه اليقظان ، إذن فالروح عندما تُلقى الجسدَ وتطرحه تكون كأنما تكشف عن بصيرتها غطاء طالما حال بينها وبين مطالعة الرفيق الأعلى بمايغمسها فيه من عَرَضٍ مادى زائل باطل مصيرُه إلى فناء ، أما إذا فارقت البدن فقد خلُصت من أغلالها وانحسر عن بصرها الغشاءُ فأبصرت أسرار الحق صافية خالصة وانكشف لها الغيب وأيقنت أنها كانت أثناء حياتها مع الجسد غافلةً راقدةً وقد تنبهت الآن واستيقظت

وغدت تغرِّد فوق ذِروة شاهق والعلمُ يرفع كل من لم يُرفع

فاذا كانت قد نفضت عن نفسها ما كان لحقها من غفلة ورقاد ، إذن فقد تجردت من قيود المادة وأصفادها وغدت عنصراً عقلياً صرفاً لاتشوبه شائبة من كدورة أو نقص ، مبرأةً عن حاجات البدن التى تجذبها إلى أسفل ، واتصلت بالعالم الروحانى المجرد ، فأحست بالنشوة والسعادة وغردت سروراً لما ظفرت به بذلك الاتصال ؛ ولعلك هنا تحتج على الفيلسوف وتعترض حديثه ، فما لهذه الأرواح قد صعدت إلى العالم الأقدس ولم تلبث حول أجسادها مُحوِّمة باكيةً راثية إلْفَها الحبيب ، فهو يجيبك إنما ترتفع إلى هذه الذروة الشاهقة السامية ، تلك الأرواح التى كسبت من العلم صدراً محموداً وحظاً موفوراً ، وإن العلم لجدٌّ كفيل أن يرفع إلى عالٍ مامن شأنه أن يكون فى الحضيض الأخس فضلاً عما يكون له بطبيعته اتصالٌ وقربى بالعالم الأشرف الرفيع

فلأى شئ أُهبطت من شامخ عالٍ إلى قعر الحضيض الأوضع

ولكن قف ! أأنت محدثى ياصاح فيم هذا العناء كله إن كان مصير الروح فى نهاية أمرها أن تعود إلى حيث بدأت السير ؟ فلقد زعمت لى أنها هبطت من علٍ فحلت بالبدن حيناً من الدهر ثم أخذت سبيلها آخر الشوط إلى مستقرها الذى صدرت عنه وفاضت منه ! ما هى الحكمة الباعثة للنفس أن تهبط من ذراها هاوية إلى الدرك الأسفل .؟!

إن كان أهبطها الآلـه لحكمة طويت عن الفذ اللبيب الأروع
فهبوطها لا شك ضربة لازب لتكون سامعة لما لم تسمع

هكذا تساءل صاحبى فى دهشة وعجب ، قال : إن كان الله جل وعلا قد أهبطها لحكمة خفيت عن بصائرنا ، واستعصت على إدراكنا ، بل طويت عمن بلغ مناص الحكمة أروعها وأبعدها غوراً ، فلا ريب فى أن الله تعالى إنما ضرب الهبوط على النفس ضرباً وألزمها به إلزاماً لعلها فى هذا العالم الأرضىِّ تُوَفَّقُ الى اكتساب المعرفة ، واستيفاء أسباب الكمال ، إذ كانت فى أول أمرها جاهلة ساذجة غافلة ، فأهبطها لتسمع مالم تكن قد سمعت به من العلوم والأخلاق ؛ وسبيلها الى ذلك هى الحواس والعقل

وتعود عالمــةً بكل خفيَّة فى العالَمَيْن فخرقُها لم يُرقع

فالهم إن كانت هذه رسالتها التى هبطت من أجلها ، أعنى أن

تعود بعد زيارتها الى الدنيا عالمة بالاسرار الخفية فى العالمين ـ عالم الغيب والشهادة ـ فلا سبيل الى تحقيق ما جاءت من أجله ؛ لأنها مهما حصلت من فروع العلم وجوانب الأخلاق ؛ ومهما أسرفت فى التحصيل فهى قاصرة مقصرة ، وكيف سبيلها الى ذلك والعلوم لاتنتهى عند حد ، وحتى إن أمكن تحصيلها فلا تكفى لها مدة الحياة على قصرها ؛ ولكن ليكن هذا فليس الفشل فيما نظن مما ينتقص من نيل الغاية المقصودة ويحط من شرف الوسائل المؤدية الى تلك الغاية

قال صاحبي : لقد زعمت أو زعم فيلسوفك ابن سينا أن الروح إنما هبطت فَتَـرَت فى البدن ففارقته وعادت أدراجها ، والله لايفعل شيئاً إلا لحكمة ، إذا كان ذلك لم يكن لهواً ولا عبثاً ؛ فلأى شيء هبطت من الأعلى الى الأدنى ، واعتاضت الباقى بالفانى ؟ قلت : إنها هبطت فتعلقت بالجثمان لتتخذه وسيلة الى الكمال على شرط أن تكون من أصحاب الفضيلة والخير . قال : وإن كانت الروح من الملأ الأعلى فكيف تكون ناقصة وقد حدثتنى فى صدر الحديث أن ذلك الملأ مجرد مطلق كامل كمالاً محضا ، وأنه خير خالص ، كما حدثتنى الى جانب ذلك أن عالمنا هـذا شر ـ أو على أكثر تقدير مزيج بين الخير والشر فما قولك الآن إن الروح قد هبطت من ملأها الأعلى الى هذه الأرض تنشد عن طريقه الكمال ؟ ؛ وهل يكون الشر وسيلة الى الخير والكمال ؟ لعمرى لو كانت العناصر المجردة لا يتم كمالها إلا اذا اتصلت بالمادة فما أوجب أن يهبط عالم الأرواح كله ليمتزج بالأرض ومادتها ؟ قلت : جوابك ياصاحبي فى هذا البيت الآتى :

وهى التى قطع الزمانُ طريقَها حتى لقد غَرُبَتْ بغير المطلع

فقـد كان مراد النفس وأملها أن تبلغ حد الكمال بما يرتسم فى صفحتها من الصور العقلية ، لكن الزمان لم يمهلها وا أسفاه ! فقطع عليها السبيل وصدها عما كانت تسير نحوه ، وذلك باهلاكه للبـدن وهو أداتها فى تحقيق رغبتها ، ولكنها إلا تكن قد ظفرت بكل شيء ، فهى لم تفقد كل شيء ، لأنها لم تغرب — حين غربت — ساذجة جاهلة كما أشرقت أول الأمر بل عرفت الكمال وعرفت النعيم الذى يكون لها لو بلغت هذا الكمال ، وكفاها بهذه المعرفة حافزاً قد يدفعها إلى متابعة السير يوماً آخر

فكأنه برق تألق بالحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع
أنعم برد جواب ما أنا فاحص عنه فنار العلم ذات تشعشع

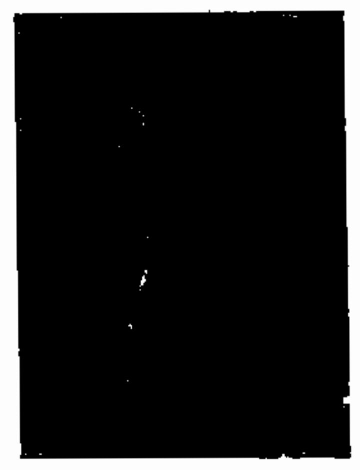
ولكن فيلسوفنا الشاعر يعود فيوافقك يا صـديقى إلى حد كبير ، ان النفس عند فراقها للبـدن تكون فى الحقيقة كأنها لم تُفِدْ شيئاً وكأنها لم تصحب البدن قط ، وما أسرع ما انقضى زمن إقامتها فيه ، فقد اختفت سريعا كالبرق الخاطف ، وعادت كأن لم تكن بالأمس شيئاً مذكوراً . وإنه ليختم حديثه معك بحَفْزِك وإثارة الطُّلَعَة فى نفسك لعلك تمعن فى التفكير والنظر لترى جوابا لهـذا السؤال المُربك : فيم هبوطُ الروح للوصول الى كمالها ، ثم فصلُها قبل أن تصل ؟ ! قال محدثى : انى لأرى شبها قويا بين هـذه القصة التى قصصتها علىّ عن ابن سينا وبين ما رويته لى بالأمس عن فلسـفة أفلاطون من أن النفس كانت تسبح فى عالم المُثُل صافية سـعيدة مفكرة ، ثم حلَّت بالجسم وتعلقت به ، فاذا وافت الانسان منيتُه عادت من حيث أتت ، قلت نعم ولعل لى معك فى هذا حديثا آخر

زكى نجيب محمود

مقتل عمر بن الخطاب

نقلها عن جرائد ذلك العهد

الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى



اختلف المؤرخون فى مقتل عمر رضى الله عنـه ، فمنهم من قال إن أبا لؤلؤة حقد عليه لأنه لم يخفف عنه الخراج الذى ضربه عليه سيده المغيرة بن شعبة ؛ وقال آخرون بل ائتمر به الهرمزان وهو قائد فارسى أظهر الاسلام وأضمر الغدر ، وجفينةُ وهو من نصارى نجران الذين أجلاهم عمر عن جزيرة العرب . وقد فاتنى — لسوء حظى — أن أشهد هذه الحادثة الضخمة وتأخرت عنها أكثر من ثلاثة عشر قرناً . ولو حضرتها لعرفتُ كيف أقول ! ولـكنه لا يجدى الأسف على شىء فات ؛ وما لا يدرك كله لا يترك كله ؛ وقد وقعت لى «أعداد» من « صحف » ذلك الزمن ، مثل جريدة « يثرب » ، وجريدة « دار الهجرة» ، وجريدة «العذراء» ، وغيرها من الصحف الأولى التى كانت تصدر — صباحاً أو مساء — فى صدر الاسلام . وأكبرها جميعاً «يثرب» ، وكانت تظهر فى الفجر ، فيتخطفها الناس وهم خارجون من صلاتهم بالمسجد ، وكان لها مكاتبون فى الأمصار قاصيها ودانيها ، يوافونها بأخبارها وأحوالها ، وسيرة ولاتها وعمّالها ، وجلهم — أى المكاتبون — ممن دخلوا مع رسول الله مكة ، واشتركوا فى حروب الردة ، وقاتلوا مع سعد بن أبى وقاص ، وأبى عبيدة ، وخالد بن الوليد ، فى فتوح العراق وفارس والشام ، ومن أجل هذا كانت الثقـة بأنبائهم عظيمة ، والاطمئنان إلى صدقهم فى الرواية تاماً ؛ ولا عجب بعـد ذلك إذا كانت « يثرب » كبرى الصحف فى ذلك العهد وأوسعها انتشاراً ، وأوثقها حالاً . ومما ينبغى أن يذكر من مفاخر هذه الجريدة أن العرب إلى عهد عمر رضى الله عنه كانت تتعامل بالنقود الفارسيّة والرومية فدعت « يثرب » إلى ضرب نقود عربية وألحت فى ذلك ؛ ورأى عمر رضى الله عنـه أنها على حق ، فأمر فضربت الدراهم على شكل النقود الفارسية ، فلم تقنع « يثرب » بهذا ، وطلبت أن ينقش اسم الله تعالى واسم رسوله تمييزاً لها عن نقود الفرس ، فاستحسن الخليفة رأيها ، فأمر فكتب على الدراهم : « الحمد لله » على وجه ، و « محمد رسول الله » على الوجه الآخر . وقد زعم حاسدوها وشانئوها — من الفرس المغلوبين على أمرهم — أنها ما دعت إلى ذلك إلا ليسهل بيعها ، فينتشر أمرها ويعظم ربحها ، وقالوا : ألا تراها قد أشارت بضرب الدراهم ولم تذكر الدنانير قط ؟ فذلك لأن الدراهم خسيسة ، ولأن النسخة من جريدة « يثرب » تباع بدرهم ! ولـكن هذا طعن الفرس الموتورين فلا يُسمع فى العرب

على أن من المحقق أن حاجة « يثرب » الى سنة تؤرخ بها ، هى التى أملت عليها الدعوة الى وجوب الاتفاق الى سـنة معينة للتاريخ منها ، غير عام الفيل وعام الفجار وما أشبه ذلك مما لا آخر له ، فكان أن استشار الخليفة أصحابه فى ذلك فأشار عليـه علىّ كرم الله وجهه — على رواية « يثرب » — باتخاذ السنة التى هاجر فيها الرسول إلى المدينة مبدأ للتاريخ الاسلامى

بعد هذا الاستطراد الذى لم نر منه بداً للتعريف « بيثرب » ورفعة مقامها وعلو منزلتها ، نقول إنا وجدنا فيما عندنا من أعدادها وصفاً مفصلاً لجريمة مولى المغيرة ، فرأينا أن ننقله بحروفه حسماً للخلاف ، وإحقاقاً للحق

* * *

قالت فى ملحق أصدرته ضحى الأربعاء ٢٦ ذى الحجـة سنة ٢٣ هجرية تحت العنوانات الآتيـة المكتوبة بالخط الجليل على سبعة أعمدة : « علج فارسى يطعن أمير المؤمنين وهو يقيم الصلاة — ويصيب ١٣ رجلا ثم ينتحر — أهى مؤامرة فارسية نصرانية ؟ — تحريات مندوبى يثرب الخصوصيين »

ثم قالت الجريدة :

«. لم نكد نفرغ من طبع العدد الأخير من «يثرب» وندفع به الى الباعة ، ونذهب الى المسجد للصلاة ، حتى فوجئنا باعتداء أثيم مروع من علج من علوج فارس على حضرة صاحب الجلالة أمير المؤمنين وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الفاروق عمر بن الخطاب وهو يسوّى الصفوف فى المسجد ويهمّ باقامة الصلاة . وهو اغتيال دنىء وغدر خسيس تنكره الشهامة ولا تعرفه العرب ، ولو أن مائة من أمثال هذا العلج الزنيم تصدوا لجلالته ، وهو يراهم لخلط عظامهم بلحمهم وأكلهم وتأدم بآبائهم وأجدادهم الى قابيل ، ولكن هذا العلج جاءه من وراء ظهره ، وأخذه غدراً وطعنه غيلة ، وهو رافع يديه يكبر للصلاة

وقد سبق لنا أن حذرنا الحكومة من هؤلاء الفرس والنصارى الذين يفدون على مدينة الرسول ؛ فانها ــ على وفرة الماء فيها بالقياس الى غيرها من بلاد العرب ــ يابسة الضرع ، وغيرها من الأمصار التى فتحناها أخصب ، والعيش فيها أرغد ، فمجىء هؤلاء الأغراب الموتورين الى المدينة وإقامتهم فيها أمر مريب ، فما يعقل أن يطيب لأمثالهم فيها عيش ، وهم الذين نشأوا فى ظلال الدعة وألفوا حياة اللين والترف ، وهذا ما جناه السماح لهم بالاقامة بين ظهرانينا

ودعونا مراراً الى اتخاذ الشرطة والحراس ، والعسس بالليل ، ومراقبة الأجانب ، وقلنا إن خروج الخليفة وليس معه حارس ، ولا فى يده هو سلاح ، ونومه فى الأحيان الكثيرة فى ظل شجرة أو جدار لا يخلو من خطر ، وأنه تعرض لا تؤمن مغبته ، ولو أنه ليس بالمدينة إلا العرب لما أشفقنا ، ولكن الأغراب كثروا بيننا ، وهم من بلاد داستها جيوشنا ، ودوخت أممها ، وثلت عروشها ، فهم حاقدون مضطغنون ، لا يؤمن غدرهم ولا يتقى شرهم إلا بالحيطة والتحرز منهم . وقد صدق ظننا مع الأسف ، وليته خاب ألف خيبة ، نسأل الله اللطف فيما وقع »

* * *

ثم فصلت الجريدة الحادث كما وقع فقالت :

« دخل جلالته المسجد ليصلى بالناس على عادته ، وكانت فى يده الدرة التى لا تفارقه ، فاخترق الصفوف والناس يفسحون له ، ويحيونه بأحسن من تحيته ، حتى صار الى الصدر فاستقبل الناس ليقوّم صفوفهم ، وذاك دأبه ، فان جلالته يكره الفوضى ويحب النظام ، ثم ألقى الدرة من يمينه ــ وكان يسوّى بها الصف ويشير للمتقدم أن يتأخر ، وللمتأخر أن يحاذى الذى بجانبه ، ثم اتجه الى القبلة ورفع يديه يكبّر ، ولم يكد صوته الجهورى يرتفع بالتكبير حتى هجم عليه رجل ــ ظهر فيما بعد أنه غلام المغيرة ــ وفى يده خنجر وضربه به فى كتفه ، فانحنى أمير المؤمنين قليلاً من عنف الصدمة وقوة الضربة على غير توقع منه ، فمال معه المجرم وكاد يسقط ، غير أنه اعتمد بيسراه على ظهر جلالته ونزع الخنجر الذى أصاب عظمة الكتف ، وكان جلالته قد تمالك ، وذهبت عنه دهشة المفاجأة فدار ليواجه المعتدى عليه ، فعاجله الجانى بطعنة فى خاصرته ، وأسرع فنزع ، وتشدد جلالته فضربه بجمع يده فى صدره وهو يقول : «تريد قتلى يا ابن الفاعلة ؟» فارتد المجرم خطوات ، ثم كر عليه بالخنجر يطعنه طعنا سريعاً فسقط أمير المؤمنين على الأرض

وكان الناس قد أذهلتهم هذه المباغتة ، وأصابهم منها لأول وهلة كالرعب ، فتراجعوا والتوت صفوفهم ، ثم أفاقوا ، فصاح بعضهم يطلب الشرطى ــ وأين هو حتى يلبى النداء ؟ ــ وهجم منهم عليه رهط ، فأعمل فيهم خنجره يضرب يميناً وشمالاً كالمجنون ، فأصاب منهم ثلاثة عشر رجلاً ، وألهم الله بعضهم فألقى عليه برنسا ــ كما تلقى على الجواد الجامح ثوباً ــ فأعماه وشل حركته ، ثم تكاثروا عليه ، وأيقن هو أنه هالك لا محالة فطعن نفسه فمات !

وأقبل الناس بعد ذلك على أمير المؤمنين واجمين محزونين ــ حتى الجرحى منهم ــ فردهم جلالته عنه باشارة وسأل :

« هل فيكم عبد الرحمن بن عوف ؟ »

فتلفت الناس ينظرون ، فاذا ابن عوف يفرقهم ويقول :

« نعم يا أمير المؤمنين »

فقال جلالته : « تقدم ، فصل بالناس »

فكانت دهشة ، ولكن عمر هو عمر ، لا يشغله خطب عن دينه وواجبه ، ولا يجرؤ أحد على خلافه من هيبته ، فصلى ابن عوف بالناس صلاة خفيفة ، وعيونهم على جلالته ، وهو ساكن وادع معتمد على الأرض بمرفقه ، يصلى معهم بشفتيه ،

ثم أقبلوا عليه يحملونه ، يريدون أن يذهبوا به الى داره ، فقال :

« مهلاً ، ناولوني درتي يا هذا »

فناولوه إياها ، فأخذها وهو يقول وعلى فمه ابتسامة :

« أرأيتم ماريشالاً بلا عصاه ؟ »

فابتسموا لابتسامه ، ولكن دموعهم كانت تساقط على لحاهم وأيديهم التي خضبها دمه الزكي ، فنظر اليهم وهم يبكون وقال يزجرهم :

« بل الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد مسلم »

أما الجاني فهو أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة ، وأصله فارسي من نهاوند ، وقد كتب الينا مندوبنا القضائي يقول :

منذ بضعة أيام جاء فيروز هذا إلى أمير المؤمنين يشكو إليه أن مولاه المغيرة بن شعبة يشتط في الخراج الذي ضرب عليه ويرهقه بما يتقاضاه منه ، وسأله التخفيف عنه

فسأله جلالته : « كم خراجك ؟ »

فقال : « درهمان في كل يوم »

فسأله : « أو كثير هذا عليك ؟ »

قال : « نعم ، وحقك »

قال جلالته : « دع هذا ، وقل ما صناعتك ؟ »

قال الغلام : « نحاس ونقاش وحداد »

فقال جلالته : « ثلاث صناعات في يديك ، وتشكو رقة الحال وتستكثر درهمين ؟ كلا ليس خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال » وأعرض عنه

وقد يؤخذ من هذا أن فيروز حقدها على جلالته ، وأسرها في نفسه ، وأضمر أن ينتقم ، ولكنا لا نعرف أن الناس يقتل بعضهم بعضاً من أجل درهمين ، فكيف باغتيال خليفة ؟ ثم إن تحرياتي تدل على أن الأمر كان مبيتاً بليل ، فقد حدثني عبد الرحمن ابن أبي بكر — وهو ثقة — أنه رأى عشية أمس الهرمزان الفارسي وجفينة النصراني وأبا لؤلؤة هذا ، وهم يتناجون ، فلما رأوه اضطربوا ، وسقط من أحدهم خنجر له شعبتان ، يقول ابن أبي بكر أنه هو نفس الخنجر الذي ضرب به أبو لؤلؤة أمير المؤمنين . فماذا كانوا يتناجون في غلس الليل ، وهذا فارس أعجمي ، وذاك نصراني عربي وثالثهم مملوك للمغيرة ؟ وماذا جمع العربي النصراني ، والفارس المجوسي وإن تظاهر بالاسلام ؟

ومعروف أن الهرمزان هذا كان من قواد الفرس الذين هزمهم سعد بن أبي وقاص ، وقد أظهر الاسلام لينجو بجلده ، وخان المسلمين مراراً ثم زعم أنه تاب ، ومثله خليق أن يبطن العداوة للعرب وألا يغفر لهم أنهم مزقوا عرش الأكاسرة وغلبوهم على بلادهم ومجوسيتهم ، وسووا بين الناس فلا سيد ولا مسود ، ولا شريف ولا وضيع

أما جفينة فأمره مشهور ، وهو نصراني من نجران ، أتى به سعد بن أبي وقاص ليعلم الناس الكتابة — فيا سوء ما أتى به سعد من هذا ! وقد كان أمير المؤمنين خاف انتقاض النصارى في نجران عليه ، وهو في حرب الفرس والروم ، فأجلاهم عن جزيرة العرب ثم عوضهم وأوسع لهم من الأرض في الشام والعراق ، وأعطاهم خيراً مما تركوا ، ثم هزم المسلمون جيوش هرقل وهو حامي النصرانية ، فجفينة لا ريب مضطغن لذلك ؟ وقد وجد في الهرمزان حليفاً ونصيراً ، وفي فيروز وهو فارسي كالهرمزان ، أداة لارتكاب الجريمة المدبرة

وهذا هو الذي عليه الرأي العام ، ولو تُرك الناس لرأيهم وخُلي بينهم وبين ما يريدون لفتكوا بالفرس والنصارى وشربوا دماءهم ، فان النفوس ثائرة ، والصدور مضطرمة ، ولكنهم يكبحون أنفسهم ويحملون عليها ويردونها على مكروهها احتراماً لأمير المؤمنين وانتظاراً لما يفعل ، شفاه الله وعافاه

بل هذا هو رأي أمير المؤمنين نفسه ، فقد اجتمع إلى جلالته في داره بعد أن حُمل اليها ، المهاجرون والأنصار ، فقال لابن عباس وكان معه :

« أخرج اليهم فاسألهم أعن ملأ منهم ومشورة كان هذا الذي أصابني ؟ »

فعاد اليه ابن عباس يقول إن القوم يقولون « لا والله ، ولوددنا أن زاد الله في عمرك من أعمارنا »

فقال جلالته : « إذن أبرق إلى العراق وفارس وأنبئ العمال بما كان ، وحذرهم أن ينتقض الناس على غرة منهم ، فما يدريني ويدريك ، لعله تدبير من هناك . »

وقد أرسلت البرقيات اللاسلكية إلى عمال الأمصار

بالاستعداد لكل طارئ فلا خوف من هذه الناحية فان قواتنا كافية لقمع ماعسى أن ينجم من الفتن . »

وعند مثول هذا الملحق للطبع أبلغنا مندوبنا ما يأتى تليفونياً :

عرفتم أن المجرم أبا لؤلؤة عليه لعنة الله وملائكته ، أصاب ثلاثة عشر من المصلين بخنجره ، كانوا يحاولون القبض عليه وانتزاع الخنجر منه ، فالآن أقول إن سبعة منهم كانت جراحهم خطيرة ، فتوفوا من النزف ، وسيجهزون للدفن وتشييع جنازتهم بعد صلاة العصر باحتفال كبير يمشى فيه المهاجرون والأنصار والبدريون ، وقد أمر جلالة الخليفة بأن ينوب عنه فى تشييع الجنازة ، صهيب

أما الستة الآخرون فجراحهم خفيفة ، وقد بعث اليهم جلالة الخليفة بابنه عبد الله بن عمر ليعودهم ويستفسر عن حالهم ، فشكروا له هذا العطف السامى ودعوا الله أن يعجل بشفائه

هذا وقد فحص الطبيب الشرعى الخنجر فتبين أنه مسموم فلا حول ولا قوة إلا بالله

وأذيعت نشرة طبية موجزة جاء فيها أن الاصابات ست فى الكتف والخاصرة والظهر ، وإن النزف منها شديد ، وقد سُقى جلالته لبناً فخرج من إحدى الطعنات أبيض كما هو ، فنصح الطبيب لجلالته بأن يعهد ، تولانا الله برحمته

صدر العدد التالى من « يثرب » مجللاً بالسواد ، وفيه نعت أمير المؤمنين الى العالم الاسلامى ، ورثته رثاء طويلاً ، ولخصت سيرته فى الجاهلية والاسلام ، ولا نحتاج أن ننقل من هذا شيئاً فانه معروف ، ووصفت تجهيزه للدفن ، وتشييع جنازته والصلاة عليه بالمسجد ، وحمله على سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودفنه معه الى جانب أبى بكر الصديق ، وسردت أسماء المشيعين من الأنصار والمهاجرين وغيرهم ، وروت فيما روت أن علياً وعثمان تقدما للصلاة عليه فردهما ابنه عبد الرحمن وقال منكراً عليهما ذلك : « لا إله إلا الله ! ما أحرصكما على الأمرة ! أما علمتما أن أمير المؤمنين قال ليصل بالناس صهيب ؟ » وأثبتت تصريحاته قبل موته ، لابن عباس ، ووصيته لمن يخلفه ، وقالت إنه دفع بها الى ابنه عبد الله وقال له : « إذا اجتمع الناس على رجل — أى أمير المؤمنين — فادفع اليه هذا الكتاب وأقرئه منى السلام » وما أمر به فى اختيار خليفته ، وما أوصى به أبا طلحة الانصارى والمقداد بن الأسود ، وكل هذا مشهور فلا داعى لنقله

ولكن حادثاً وقع بعد ذلك ، تعد « يثرب » مسئولة عنه ، فقد ذهبت الى أن قتل عمر كان عن تآمر من جفينة النصرانى والهرمزان الفارسى ، وأنهما هما اللذان أغريا أبا لؤلؤة بقتله ، وروت ماشهد به عبد الرحمن بن أبى بكر وغيره فى ذلك ، وأيدت ذلك بالدليل العقلى ، فهاج عبد الله بن عمر ، ومضى الى ابنة أبى لؤلؤة فقتلها ، ثم الى جفينة والهرمزان فألحقهما بها ، انتقاماً لأبيه ؛ ولم يكفه هذا ، فهم بأن يقتل رجالاً من الأنصار والمهاجرين ظنهم شركاء فى دم أبيه ، وشاع عزمه على ذلك حتى بلغ صهيبا ، ولم يكن الذين وُكل اليهم التشاور فى أمر الخلافة قد فرغوا ، فبعث صهيب عمرو بن العاص الى عبد الله ، وكان عمرو داهية ، فلم يزل يحاوره ويداوره ويمسح منه فى الذروة والغارب حتى سكنت نفسه ، فأخذ منه سيفه ، ثم جاء سعد بن أبى وقاص فقبض عليه وحبسه فى داره

ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة ، استشار أصحابه فى أمر عبد الله بن عمر ، فأشار بعضهم بقتله فيمن قتل ، ولكن آخرين استنكروا أن يقتل الأب أمس ويقتل الابن اليوم ، ووجد عمرو بن العاص مخرجاً من هذه الورطة ، فقال لعثمان :

« يا أمير المؤمنين ، إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ، ولك على المسلمين سلطان ، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك »

أى قبل أن تكون خليفة ، فال عثمان الى الرأفة ، ورفض رأى علىّ بن أبى طالب ، وكان يذهب الى قتل عبد الله بن عمر ، وقال عثمان : « أنا وليهم ، وقد جعلتها دية واحتملتها فى مالى »

وقد أثنت يثرب على مشورة ابن العاص ، ومروءة عثمان بن عفان ، وقالت إن هذا درس عسى أن ينفع العجم والنصارى فيصرفهم عن التآمر مرة أخرى ولكن فريقاً من الأنصار كتبوا اليها يفندون رأيها ، ويقولون إن الواجب كان أن يقتل ابن عمر ؛ فكان هذا أول خلاف فى عهد عثمان

ولم ننقل هـذا إلا لأن الفريق الذى طالب بقتل ابن عمر كذب ما رونه « يثرب » فى ملحقها من أن أبا لؤلؤة قاتل عمر انتحر لما كثر عليـه الناس وأيقن من الهلاك ، وأكد أنه لم ينتحر ، وإنما ثار رجل من المصلين فقتله وأخذ منه الخنجر

وكذب أيضاً أن الخنجر كان مسموماً ، ولم يحفل ما قاله الطبيب الشرعى فى ذلك ، وقال إن سـتة ممن طعنهم أبو لؤلؤة بخنجره هذا شفوا ونجوا ، ولو كان الخنجر مسموماً لماتوا ، وإنما مات من مات لاصابته فى مقتل ، أو من شدة النزف

وطال الجوار والأخذ والرد بين «يثرب» ومخالفيها فى الرأى حتى لأنكروا عليها أن الحدث كان عن تآمر ، واستهجنوا منها أن تحض على اضطهاد العجم والنصارى ، وقالوا إن هذا التحريض من سوء الرأى ، وإنه خليق أن يفسـد أمور الدولة ويخلق لها متاعب هى فى غنى عنها فى عهد التأسيس ، وأنه توجد عصبيات لا يؤمن شرها فى المستقبل ، وتفاقم الخـلاف بين الفريقين حتى لدعا على كرم الله وجهه ، الخليفة الى إغلاق يثرب ، أو على الأقل تعطيلها حتى تقر الفورة وتهدأ النفوس ، ولـكن الخليفة شق عليه أن يصيب حرية الرأى فى عهده أى سوء ، فاكتفى بالنصح لجريدة « يثرب » ألا تسرف فى دعايتهـا ، وأن تتقى اللجاجة وما قد تجر اليه من الفتنة

وقد آثرنا التلخيص ، لأن النقل يطول ، والقارىء أدرى بالصحف وكيف تبدىء وتعيد حتى تعكر الجو وتضجر وتقلق . وقد بلغ من تفرق الرأى فى ذلك الوقت أن الناس كانوا يجلسون فى المسجد حلقات وفى أيديهم أعداد « يثرب » ، فهذا يؤيد ، وذاك يعارض ويكذب ، حتى خيفت الفتنة وحسبنا هذا القدر

ابراهيم عبد القادر المازنى

الفلسفة الاسلامية ودراستها

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

قد يكون من عبث القول أن نحاول اليوم إثبات وجود فلسفة إسلامية انفردت عالما من خصائص ومميزات ؛ فقد انقضى الزمن الذى ادعى فيه (رينان) ومن نحا نحوه أن فلاسفة الاسلام اكتفوا بترديد نظريات (أرسطو) دون أن يغيروا فيها شيئاً[١]. هناك فلسفة إسلامية ، كما أن هناك فلسفة مسيحية ، أو بعبارة أخرى تقابل المدرسة الفلسفية العربية فى الشرق ، المدرسة اللاتينية فى الغرب . ومن هاتين الفلسفتين مضافاً اليهما الدراسات اليهودية يتكون تاريخ البحث النظرى فى القرون الوسطى . للاسلام فلسفة قد امتازت بموضوعاتها وأبحاثها ، بمسائلها ومعضلاتها ، وبما قدمت لهذه وتلك من حلول وأجوبة . فهى تعنى بمشكلة الوجود والتعدد (le problème de l'Un et du multiple) والصلة بين الله ومخلوقاته (le rapport entre Dieu et le monde) التى كانت مثار جدل طويل بين علماء التوحيد المسلمين[٢] . وتحاول أن توفق بين الوحى والعقل ، بين العقيدة والحكمة ، بين الدين والفلسفة ، وأن تبين للناس أن الوحى لا يناقض العقل فى شىء ، وأن العقيـدة اذا استنارت بضوء الحكمة تمكنت من النفس وثبتت أمام الخصوم ، وأن الدين اذا تآخى مع الفلسـفة أصبح فلسفياً ، كما تصبح الفلسفة دينية[٣] . وقد وصل الفلاســفة المسلمون فى كل هذه النقط الى نتائج جديرة بالتقدير والاعجاب .

لا يستطيع باحث أن ينكر أن هؤلاء الفلاسفة قد أخذوا عن (أرسطو) معظم آرائه ، وتأثروا بأفلاطون (Plotin + 270) الى حد كبير . ومن ذا الذى لم يتتلمذ على من سبقه ، ولم يقتف

(١) لقد تناقض (رينان) Renan, Averroès, p. II, 46. مع نفسه ؛ فبعد أن نفى أولا وجود فلسفة إسلامية ، عاد فقرر « أن العرب ، مثل اللاتينيين ، مع تظاهرهم بشرح (أرسطو) قد عرفوا أن يخلقوا لأنفسهم فلسفة مملوءة بعناصر خاصة بها ، ومختلفة تمام الاختلاف عن تلك الفلسفة التى كانت تدرس فى الليسيه » (Ibid., p. 89)

(٢) Madkour, La place d' al Fârâbit, pp. 46 et suiv.

(٣) Ibid., pp. 181 et suiv.

أثر من تقدموه ؟ . . . وها نحن أولاء أبناء القرن العشرين لانزال عالة فى كثير من المسائل على أبحاث الأغريق والرومان . غير أن الفلسفة الاسلامية ، وإن بنيت على أفكار السابقين ، تشتمل على نظريات جديدة ؛ فهى فلسفة أنتجتها البيئة والوسط ، وأملتها الظروف المحيطة بها ؛ وتلك سنة من سنن التاريخ ، وأصل من أصول الاجتماع . على أنا إذا نظرنا الى المسألة من وجهة الفرد ، وجدنا القانون لا يتغير ، ولاحظنا أن الفكرة الواحدة إذا تناولها بالبحث أشخاص متعددون ، ظهرت فى مظاهر متباينة . لفيلسوف أن يقترض من آخر بعض آرائه ، ولن يمنعه ذلك من أن يأتى بنظريات خاصة وفلسفة متميزة . (فاسبينوزا + ١٦٧٧) مثلا ، رغم متابعته الواضحة (لديكارت + ١٩٥٠) ، يعد بحق صاحب مذهب فلسفى مستقل . وكذلك (الفارابى + ٩٥٠) و (ابن سينا + ١٠٣٧) و (ابن رشد + ١١٩٢) ، الذين كانوا تلامذة مخلصين (لأرسطو) ، قد اعتنقوا آراء تمتاز كثيراً عما جاء به أستاذهم . وإذاً استطاع العالم الاسلامى أن يكوّن لنفسه فلسفة تلتئم وظروفه الدينية والاجتماعية

بيد أن الفلسفة الأسلامية ، فى تاريخها ، فى نظرياتها ، فى رجالها ، لم تُدرس الدرس اللائق بها ، ولا تزال الحلقة المفقودة فى تاريخ الفكر الأنسانى [1] . ففى الساعة لم يبين الباحثون بدقة أصل نشأتها ، وتاريخ تكوينها ، والعوامل التى أدت إلى نهوضها ، ولا الأسباب التى انتهت بانحطاطها والقضاء عليها ، ولم يناقشوا نظرياتها واحدة واحدة ليوضحوا ما اشتملت عليه من أفكار الأقدمين ، وما أنتجت من ثروة جديدة . وأما رجالها فغرباء فى أوطانهم ، مجهولون لدى أقرب الناس اليهم ؛ ولا أدل على ذلك من أن كثيرين منا يعرفون عن (روسو + ١٧٧٨) أو (سبنسر + ١٩٠٣) ما لا يعرفون عن (الكندى + ٨٧٠) أو (الرازى + ٩٣٢) ، ولو لم يقيض الله لفلاسفة الأسلام جماعة من المستشرقين وقفوا عليهم جزءاً من أبحاثهم ودراساتهم ، لأصبحنا ونحن لا نعلم من أمر الفلسفة الأسلامية شيئاً

إلا أن هذه الدراسات وتلك الأبحاث قليلة جدا ومعيبة من وجهين : أولاً اهمالها للجانب الفلسفى واشتمالها على كثير من

(١) Id., L'organon d'Aristote dans le monde arabe, p.269

الأخطاء اللغوية والفنية والتاريخية . ولعل سر ذلك أن أغلب من كتبوا فى تاريخ الفلسفة الأسلامية لا يجيدون العربية ، ولا يحيطون تمام الأحاطة بتاريخ الثقافة الأسلامية ؛ أو إن عرفوا ذلك فهم يجهلون تاريخ الفلسفة العامة ، ولم يتوفر لديهم التفكير الفلسفى المنتظم ؛ ولسنا فى حاجة إلى سرد أمثلة ، فان هذا الحكم ينطبق ، إذا استثنينا طائفة محدودة ، على عامة الكتب المتصلة بتاريخ الفلسفة والفلاسفة المسلمين . وأما العيب الثانى فيل شديد الى الاختصار يكاد يخل بالغرض المطلوب ، ويحول دون القارىء والنفوذ إلى صميم ما يقرؤه . ومن أوضح الأمثلة على ذلك مختصر قيم حقيقة للعالم الهولاندى (دى بور) ؛ غير أن عيبه الهام يرجع بالتحديد إلى اختصاره البالغ فيه [1] ؛ وفوق هذا فان هذه الكتب فى جلتها قديمة العهد ، قد ألفت فى زمن ما كان يُعرف فيه عن التاريخ الأسلامى إلا الشيء القليل . أما اليوم وقد تقدمت معلوماتنا تقدماً محسوساً فى هذه الدائرة ، فنحن فى حاجة ماسة إلى أبحاث تتناسب مع مصادرنا الجديدة ، ومع ما استكشفنا من مخطوطات ومؤلفات للفلاسفة والعلماء المسلمين

لا يقاس انتشار صوت مفكر أو مخترع بمقدار ما أحدث من آراء ومخترعات فقط ، بل بدرجة نبوغ الوسط الذى يعيش فيه والشعب الذى ينتمى اليه . فالأمم النبيلة تزيد أبناءها عظمة على عظمتهم ، وتعمل على رفعتهم بقدر قد لا يصلون اليه وحدهم . ورب نظرة عادية لاقت مشجعين فنموها ، وأخذوا بيدها حتى صعدت إلى عنان السماء ؛ ورب فكرة ممتازة صادفت منبت سوء فماتت لساعتها . عرفت ذلك الشعوب الناهضة ، فأشادت بذكر علمائها وفلاسفتها ، وخدمت فى الوقت نفسه العلم والثقافة الأنسانية . فهى تخلد ذكرى رجالها بمختلف الوسائل ، وتعمل على نشر آثارهم ما وجدت إلى ذلك سبيلا . فمن تماثيل مقامة فى المدن والقرى ، ومن جمعيات نشر وترجمة وتأليف قد أخذت

(١) نشير هنا إلى الكتاب الآتى : Boer (T. J. de), Geschichte der Philosophie in Islam, Stuttgart, 1901. وقد ترجم الى الأنجليزية (جونس) تحت هذا العنوان The History of Philosophy in Islam. London, 1903. وقد نفد الأصل الألمانى وترجمته الأنجليزية ؛ ويغلب على ظننا أن المؤلف يفكر فى إعادة طبعه فى هذه الأيام

على عاتقها إذاعة ما أنتج السلف من أفكار . فهل آن لنا أن نحتذى بهذه المثل الصالحة ، وأن نعرف لتاريخنا حقه كى نُعرَف وننال منزلتنا تحت الشمس ؟ متى يكتب الناس عن (الفارابى) بقدر ما كتبوا عن (موسى بن ميمون + ١٢٠٤) ؟ ومتى تُعرف مؤلفات (ابن سينا) كما عرفت كتب (سان توما + ١٢٧٤) ؟ ومتى يُدرس (الغزالى + ١١١١) بقدر ما دُرس (ديكارت) ؟

إن دعوتنا هذه موجهة إلى كل بلاد الشرق ، وبوجه خاص إلى مصر التى تستطيع بحكم مركزها الاقتصادى والاجتماعى والعلمى أن تخدم البحث والتأليف . فالى أبناء مصر عامة ، أفراداً وجماعات ، شعباً وهيئات ، وإلى الحكومة والجامعة المصرية خاصة ، نتقدم بكلمتنا هذه آملين أن يعيروا تاريخ الفلسفة والبحث العقلى فى الاسلام جانباً كبيراً من الأهمية . إن ميدان العمل فسيح ، وإن سبله عديدة ، ولسنا الآن بصدد أن نرسم خطة شاملة ، أو أن نبين منهجاً مكتمل المواد ، وإنما نريد أن يتولى الشرقيون بالدرس فلاسفة الاسلام على النحو الذى درس به الغربيون رجالهم . لنترجم لمفكرينا ترجمة مستفيضة ، ولنصف وصفاً دقيقاً نواحى حياتهم المتعددة ؛ لنبحث عن أصول نظرياتهم لدى حكماء الأغريق والهند والعراق ، ولنقارن هذه النظريات بما جاء به اللاتينيون فى القرون الوسطى ، ولنبين وجوه النسبة بينها وبين الأفكار الحديثة . إنا لا ننكر أن هذه الأبحاث مملوءة بالمصاعب ، إذ تستلزم معرفة عدة لغات : قديمة وحديثة ، شرقية وغربية ، وتستدعى الاطلاع على مصادر لا حصر لها ، ولكن إن لم يكن فى هذه الدراسة إلا أنها عمل جديد من نوعه لكفى مرغباً فى مزاولتها والاقبال عليها

وأخيراً لنعمل على طبع ونشر مؤلفات الفلاسفة المسلمين ، فانا لا نستطيع أن نفهمهم فهماً حقاً دون أن نقرأهم بلغتهم وفى كتبهم ؛ وهنا نتجه بصفة خاصة إلى الجامعة المصرية التى سلكت فى هذا الباب مسلكاً تحمد عليه ، فقد بدأت منذ زمن ، متبعة سنة الجامعات الأوربية ، فى أحياء المخلفات العربية ، وجمع المخطوطات الاسلامية وطبعها [1] . وعلها تخطو فى هذه السبيل خطوات أخرى حثيثة ومتتابعة . إنه لمحزن أن يبقى قدر من مؤلفات (الفارابى) مخطوطاً حتى اليوم ، وموزعاً بين مكاتب أوربا المختلفة : ليدن ، باريس ، والاسكوريال [1] . على أن ما طبع من كتب هذا الفيلسوف العظيم مملوء بالأخطاء . فهل لنا أن نسعى إلى جمع مؤلفاته فى شكل Corpus وطبعها كلها طبعاً مناسباً ، مصحوباً بوسائل التحقيق والايضاح الضرورى . الفكرة تخامرنا منذ زمن ؛ وقد أشرنا اليها فى كتابنا على (الفارابى) ، ونحن نرحب بكل من ينضم إلينا فى تنفيذها [2] . وليس (ابن سينا) بأعظم حظا من سلفه وأستاذه ؛ فان كتابه الأكبر فى الفلسفة : «الشفاء» ، قد طبع طبعة مشوهة فى طهران منذ خمسين سنة . وقد أهمل الناشر الجزء الأول منه ، الخاص بالمنطق ، والذى اهتدينا اليه أخيراً فى مخطوطة بالبرتش ميوزيم (British Museum) [3] وأخرى بالأنديا أوفس (India Office) . وإنا لنأمل أن نوفق يوماً لنشر هذه المخطوطة وضمها إلى الجزءين الآخرين فى طبعة جديدة مستقيمة

تلك سلسلة من الأعمال تبين نواحى النقص فى دراسة الفلسفة الاسلامية ، وهناك ملاحظات كثيرة متعلقة بكبار فلاسفة الاسلام الذين لم نشر اليهم قد أرجأناها إلى فرصة أخرى . وكلنا رجاء أن تتضافر الأيدى على حرث وزرع هذا الحقل المترامى الأطراف ، وأن نتعهده متكاتفين حتى يؤتى أثماره الطيبة

ابراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

(١) من الأمثلة الطيبة لمطبوعات الجامعة المصرية كتاب نقد النثر لقدامة القاهرة ، ١٩٣٣

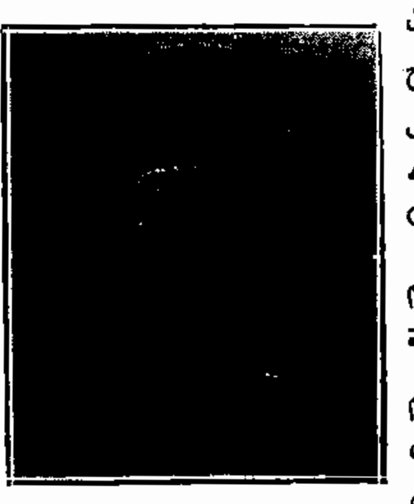
(1) Brockelmann (c.), Geschichte der arabischen Literatur, Berlin, 1902, I. I., p. 211.

(2) Madkour, La place d' al Fârâbî, pp. 223 — 25.

(3) Id., L' organon d'Aristote..., p. 20.

بلال يؤذن

للدكتور عبد الوهاب عزام



كاد الليل ينسلخ عن النهار ، وبشّرت بالصبح أنفاس الأسحار ، والدجى مهوّد وسنان ، سيفزعه عماقيل ذنب السرحان(١) والناس هاجدون وكأنهم أيقاظ ينتظرون صلاة الصبح ؛ وكأن آذانهم مصيخة تلقاء المسجد ، تحجين دعاء المؤذن ، وكأن قلوبهم إبر المغناطيس ترصد قطبها ، وتتجه الى إمامها ، والأمام هاجد برعاء ربه ، تنام عيناه ولاينام قلبه . وملء الأرض والسماء السكينة والسلام

وسرى فى أحشاء الليل سار كطيف الخيال ، اتخذ من الليل جلباباً ، وطوى من الصبح قلباً وجناباً ، « آدم شديد الأدمة ، نحيف طوال أجنأ ، له شعر كثير ، خفيف العارضين ، به شمط كثير » (٢) تحمل جمّته الشمطاء ، تباشير الصباح الوضاء

ويرتقى جدار المجلس ، فيجلس مقلّباً وجهه فى السماء ، ثم ينتفض قائماً ، فيضع سبّابتيه فى أذنيه ، فيبعث فى حواشى الظلماء ، صوتاً يجلجل فى الأرجاء : الله أكبر الله أكبر — الله أكبر الله أكبر ! أترى فلول الظلام مذعورة تلوذ بالباطل المنهزم ، أم ترى الباطل مذعوراً يلتفّ فى تلك الظلَم ؟ ذلك النور المنبثق من الأفق الشرق بسمة الفجر الصادق لهذا الصوت الآلـهى ، بل ذلك النور الوضاء ، استجابة النهار لهذا النداء . فما الفجر إلا صوت نورانىّ ، يتلألأ بنغمات ذلك النور الصوتى ؛ ليت شعرى أيهما الصباح ، وأيهما أذان بلال بن رباح ؟ وعضى بلال يصدع قلب الظلام ، بشهادتى الاسلام : أشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . ثم يحيعل بالصلاة والفلاح ، ثم يعيد التكبير فى تمديد ، فيختم بكلمة التوحيد : لا إلـه إلا الله !

ويحسب بلال أن صوته لم ينفذ الى القلوب ، فلم تتجافَ عن مضاجعها الجنوب ، فيثوّب بالقوم : الصلاة خير من النوم(١)

يتهلل وجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) لصوت الحق مدوّياً فى أعقاب الباطل ، ويبسم لصوت الحق عالياً طليقاً ملأ مابين الأرض والسماء ، والمشرق والمغرب . يبسم حين يسمع دعوة الحق فى قلب الجزيرة العربية على لسان عبد حبشىّ . وهل فى شرعة الأسلام عبد وحر ؟ وهل فى سُنة محمد عربىّ وحبشىّ ؟

وتنبعث فى كل أذن من هذا الصوت نغمة ، وفى كل قلب من هذا النور إشراق . فيهب الأصحاب من مراقدهم ، تقشعرّ جلودهم ، وتطمئن قلوبهم . فتستيقظ كل دار بأهبة الصلاة من الرجال والنساء والولدان والولائد

وينزل بلال فيقف بباب الحجرة النبوية قائلاً : « حىّ على الصلاة ، حىّ على الفلاح . الصلاة يارسول الله (٢) »

ويسفر النهار وتنثال الجموع إلى المسجد فانظر من ترى :

يخرج نفر الى المسجد من خوخات فى دورهم ، فهذا الآدم الربعة عظيم العينين ذو البطن سيف الله الغالب على بن أبى طالب ، يخرج من حجرة فاطمة . وهذا الآدم الطويل الجسيم الأصلع عمر الفاروق ، وهذا الأسمر الرقيق البشرة ضخم المنكبين كثير شعر الرأس عظيم اللحية عثمان ذو النورين ، والصدّيق كان فى السُّنح(٣) هذه الليلة فيقدم مسرعاً فتراه أبيض نحيفاً معروق الوجه غائر العينين خفيف العارضين أجنأ (٤) . ويُقبل من دور بنى زهرة بجانب المسجد ثلاثة : أحدهم قصير دحداح ذو هامة عظيمة ، شثن الأصابع ، كثير الشعر يخضب بالسواد ، هو سعد بن مالك بن أبى وقاص ، والثانى آدم نحيف قصير له شعر يبلغ ترقوته ، يلبس ثوباً ناصع البياض ، تضوع منه ريح

(١) ذنب السرحان الفجر الكاذب وهو الضوء الذى يظهر فى الأفق مستطيلا قبل الفجر ، وكان بلال يسبق الفجر بأذانه

(٢) طبقات ابن سعد

(١) زاد بلال هذه الكلمة بعد الآذان فأقره عليها الرسول

(٢) طبقات ابن سعد

(٣) السنح محلة فى المدينة على ميل من المسجد كان لأبى بكر دار بها

(٤) حلية الخلفاء الراشدين من الطبرى ، وبقية الصحابة من الأصابة وطبقات ابن سعد

الطيب ، يمشي في وقار وسمت ، هو عبد الله بن مسعود ، والثالث ضخم طويل شديد الأدمة هو المقداد بن الأسود . ويُقبل آخران : فهذا الطويل الجسيم خالد بن الوليد ، وهذا القصير الأبلج الأدعج عمرو بن العاص ، وفي أثرهما رجل جميل عظيم الهـامة مكتحل يخطر في مشيته هو معاوية بن أبي سفيان ، وبجانبه رجل نحيف طوال معروق الوجه خفيف اللحية اجنأ أثرم الثـنيّتين هو أبو عبيدة ابن الجراح . ويقبل من ناحية الحرة الشرقية رجلان : سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ؛ ويأتي رجل طويل نحيف كثير الشعر عليه سيما الحزن هو سلمان الفارسيّ ، ووراءه رجل ربعة أحمر شديد الحمرة كثير شعر الرأس ، يخضب بالحناء هو صهيب الرومي ؛ وانظر بين الجمع طلحة والزبير وأبا موسى الأشعري وأبا أيوب الأنصاري . ويأتي بنو الصحابة ، فهذا الغلام الطويل الأحمر عبـد الله بن عمر ، وهـذا الغلام الطويل الأبيض المشرب بالصفرة الجسيم الوسيم الصبيح الوجه عبد الله ابن عباس ، وهذا الصبي الذي يشبه أبا بكر عبد الله بن الزبير .

ويخرج رسول الله صلوات الله عليه ، فيقيم بلال الصلاة : الله أكبر الله أكبر الخ ، فيسوّي الرسول الصفوف ، ويسدّ الفُرَج فيها ويكبّر فيكبرون . ويذهب هذا التكبير نغمة متّسقة بين ضوضاء العالم وجلبته ، ودعوة للحق بين أكاذيبه وأباطيله . يذهب هذا التكبير في الأرجاء طمأنينة لقلوب ، ورعدة لقلوب ، ورجاء لقوم ، وخوفاً لآخرين ، يبشر الضعفاء والمظلومين بملكوت الله في الأرض ، وينذر الجبارين والظالمين بالقصاص العادل . إنما مزق شمل الظالمين هـذه الصفوف لا صفوف القتال ، وإنما زلزل عروش الجبارين ذلك التكبير لا وقع النبال

ويقرأ الرسول في الركعة الأولى آيات من سورة النور منها : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »

ويقرأ في الركعة الثانية آيات من سورة الحج منها :

« إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، إن الله لا يحب كل خوان كفور . أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنا الله ، ولولا دفع الله الناسَ بعضَهم ببعض لهدّمت صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اسمُ الله كثيراً . ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوّي عزيز . الذين إنْ مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوُا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور »

هذه جماعة عصمها الله ليورثها أرضه ، ويعلمها لتقوم بين الناس بعدله . وهذا الصف من العُبّـاد يجمع خلفاء الأرض وأمراءها وولاتها وقضاتها ومعلميها وقوّادها وجندها ، وتلك الشرذمة من الزهاد هم ورثة العروش والتيجان عما قليل ، الذين يقسم الله رزقه بأيديهم ، ويصرف حكمه في الأرض بألسنتهم . جماعة تضمهم جُدُر المسجد اليوم ولا يسعهم العـالم غداً ، جماعة في أرض فقيرة بين لابتين[1] ، سينتشرون بين المشرقين والمغربين ، وستجف الأرض بحملاتهم ، وتقرّ بعدلهم ، وتضيء بإيمانهم

قضيت الصلاة ، وانتشر المصلون

***

لا إلـه إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده . قد فتحت بهذه الجماعة الأقطار ، وعمرت بهم الأمصار ، هذا عمر في الشام قد أزال عنها سلطان الروم ، ثم جاءها ليبرم العهود ، ويتفقد الرعية ؛ وهذا بلال في جيش المجاهدين غازياً ؛ ينظر عمر الى بلال يودّ أن يسمع أذانه ، ويهاب أن يستمع لمؤذن رسول الله . ويقول الناس لعمر : لو أمرت بلالاً أن يؤذن ! ويقترح عمر على بلال الأذان ، فينهض الشيخ ابن السبعين تحت أعباء السنين ، فيدوّي في الأرجاء : الله أكبر ، الله أكبر ...[2]

لقد كان أذان الشام تصديق أذان المدينة . . . . اجل أجل لقد صدق الله وعده ! !

ولكن انظر الى عمر ، ألا تراه ينشج ؟ ألا ترى دموعه تبلّ لحيته ؟ ألا ترى القوم في بكاء ونحيب ؟ مادهاهم ؟ ما أبكاهم ؟ لقد نصرهم الله ومكّن لهم في الأرض ، وأغناهم وأعزهم . فما دهاهم وما أبكاهم ؟ يبكون إذ رأوا المؤذن ولم يروا الامام ! يبكون إذ سمعوا مؤذن رسول الله ، ثم نظروا فلم يجدوا رسول الله !

عبد الوهاب عزام

---

(١) اللابة الحرة ، والمدينة بين حرتين شرقية وغربية

(٢) كان هذا في السنة الثامنة عشرة من الهجرة

ألحان الفجر

بقلم أمجد الطرابلسي

« ترفع إلى مجد الهجرة وفجر الاسلام »

فى هدأةِ الكونِ وصمتِ الورى ... قامَ يُوالى فى الظلامِ اللحونْ
يدعو لشكرِ اللهِ صرعى الكرى ... والناسُ فى أحلامهم مُغرقون

يا مُنشداً فى السَّحَرِ الرائقِ ... رَدِّدْ علىَّ النغماتِ العِذابْ
لعلَّها تَنْفُثُ عن خافقى ... بَرْحَ العوادى ومُمِضَّ العذاب

مؤذِّنَ الفجرِ عداكَ الأذى ... أصمَّنا عنكَ غرورُ الحياهْ
أسمعْتَ لو يَسمعُ أهلُ البِلَى ... فكفكفِ الدمعَ وناجِ الإلهْ

سبِّحْ فإن الكونَ تحتَ الحَلَكْ ... سبَّحَ للهِ وأبدى الخشوعْ
وابعثْ أغاريدَكَ تشجى الفَلَكْ ... وإن أثارتْ فى شؤونى الدموعْ

وارحمتا للناسِ وارحمتاهْ ... من عَبَثِ الدنيا ومن شرِّها
ضلوا مع اليقظةِ كُنْهَ الحياه ... فساءلوا الأحلامَ عن سرِّها

تعدو على الفجرِ عوادى الدُّجونْ ... والفجرُ من بعدِ الدُّجى يسطعُ
والناسُ فى ليلِ المُنى مُدلِجون ... يَرجونَ فجراً وهو لا يَطْلُعُ

هل نحنُ فى الدنيا سوى قافلهْ ... تَعبُرُ فى الليلِ صحارى الحياهْ
تمضى كهذى الأنجمِ الآفِلَهْ ... من قبلِ أن يبلغَ فردٌ مناه

تَخُطُّ فى الرَّملِ رسومَ الخُطى ... وتملأ الجوَّ برَجْعِ الحُداءْ
فتَطمِسُ الريحُ خطوطَ السُّرى ... ويُطفئُ الضجَّةَ رَحْبُ الفضاءْ

يا فجرُ إنى قد أطلتُ النظرْ ... فى الكوكبِ المضطربِ الساهمِ
وقلتُ علِّى أستشفُّ القَدَرْ ... وراءَ هذا الأفقِ الحالمِ

حدَّقتُ لكنْ ما عسى أن أرى ... والبصرُ الظامئُ فى الأفقِ تاهْ
كونٌ هَنِىءٌ فى خِضَمِّ الكرى ... يحلُمُ مغموراً بعطفِ الإلهْ

لا هُمَّ أغرانى وهاجَ الخيالْ ... تثاؤبُ الأكوانِ بعدَ الرُّقادْ
ربَّاه، ربَّاه، أفضتَ الجمالْ ... حتى ازدهى الحىُّ وزفَّ الجمادْ

فى كلِّ ما نُبصرُه نفحةٌ ... من حُسنكَ الضافى ومن لُطفِكا
ربِّ وفى كلِّ صدًى نغمةٌ ... تشدو بآلائكَ أو عطفِكا

ربِّ تجلَّيتَ لأرواحنا ... فى نَبَجِ الدَّوِّ وشُمِّ الجبالْ
وفى مآسينا وأفراحنا ... وبسمةِ الفجرِ وصمتِ الليالْ

وفى اصطخابِ الموجِ إذ يَصْطَخِبْ
وفى سكونِ اليمِّ إذ يسكُنُ
وفى هزيمِ الرعدِ إما غضِبْ ... وفى نُواحِ الطيرِ إذ تحزَنُ

والقريةِ الهادئةِ الحالمهْ ... والروضةِ الفوّاحةِ الناضرهْ
والليلةِ القمِرةِ الباسمهْ ... والأنجمِ البرّاقةِ الحائرهْ

لا هُمَّ إن الكونَ ذا مَعْبَدُكْ ... أرنو فلا أبصرُ فيه سواكْ
وكلُّه ألسنةٌ تَحْمَدُكْ ... تشدو بما يغمرُها من نَداكْ

وارحمتا ربِّ لمن لا يراكْ ... هل يعرفُ السلوى تُرى قلبُهُ؟
ما حالُه إن طوَّقتْه الشِّراكْ ... وآدَهُ من دهرِهِ خَطْبُهُ؟

يا زورقَ الأكوانِ فِضْ بالمُنى ... واجرِ رُخاءً فى خِضَمِّ الأبدْ
واعزِفْ بمجدافِكَ لحنَ الهنا ... بين رؤى الأمسِ وآمالِ غدْ

سِرْ آمناً فى لُجِّهِ حالما ... فإن رُبَّانَكَ جمُّ الحنانْ
قد وسِعتْ رحمتُه العالَما ... مذ أبدعَ الكونَ وأجرى الزمانْ

يا روعةَ الفجرِ أطلَّتْ السكونْ ... تحتَ الدياجى وأطلَّتْ الوجومْ
فزحزحى عن منكبيكِ الدجونْ
فقد نزتْ فىَّ خوابى الهمومْ

غشَّتْ على عينى سُحْبُ الضجرْ ... حتى كأنى أبداً فى ظلامْ
مِن أين تأتينى سودُ الفِكَرْ؟ ... من أين ينصبُّ علىَّ الألمْ؟

ماحيلتى والقلبُ مستعبرٌ ... جمُّ الأسى حَفَّ به غيهبُ
أرجو له البِشْرَ فلا يَحْبَرُ ... وأنشد السلوى فلا يطرَبُ

ربَّاه قد أضنى فؤادى الأسى ... وآن للجاهدِ أن يستريحْ
أكلما افترَّتْ زهورُ المنى ... طاحتْ بها فى حومةِ اليأسِ ريحْ

النظرية الموسيقية
عند العرب القدماء
بقلم حسين سراج

ما هي الحقائق المختصة بنظرية الموسيقى العربية ؟

تقول الآنسة « Schlesinger » إن علم الموسيقى الذي تطور على أيدي كتاب العرب تطوراً عظيماً — يعزى اقتباسه من الفرس الذين غلبهم العرب الى أمر النبي ، وإذا أردنا زيادة في التدقيق قلنا إنه أخذ من اليونان (١)

ولتسمح لي الآنسة أن أقول بصراحة إنه لا مبرر للرأي القائل إن النبي أمر بشيء كهذا . والحقيقة — كما يعرفها المستشرقون — هي أن الغناء في الاسلام كان ولا يزال معدوداً من الملاهي المحرمة ، وأن كل فرقة من المذاهب الأربعة قررت حرمة السماع ، أو على الأقل جعلته غير لائق دينا ، وقد كتبت مئات من الرسائل في أحاديث النبي عن تحريم الغناء(٢)

لم تنشأ الثقافة العربية ولا الحضارة البدوية مع البدو الرحل أو الاسلام — كما افترضت الآنسة Schelesinger وإنما نجد منذ أوائل العصر الألفي الثاني قبل الميلاد أخباراً عن مملكة عرب الجنوب ، حيث تتلمس حضارة زاهية تضاهي ثقافة البابليين والأشوريين ، وفي الحقيقة أن اليونان مدينون بثقافة للعرب ، ويعتقد « همّل » وآخرون أن من الرجح أن يكون اليونان قد أخذوا عن عرب الجنوب لا « أبولو Apollo » « وليتو Lets » و « ديونيسوس Dianoysos » « وهرمس Hermes » فحسب ، بل « الفاء » و « السين » من حروف الهجاء (١) أيضاً

وقبل الاسلام بزمان طويل نقرأ في ثنايا الكتب عن الكفاية الموسيقية عند العرب القدماء ، ومن الاجحاف أن ندعي أنه لم تكن عندهم نظرية موسيقية إذا واجهنا أو قابلنا بين مانعرفه من الثقافة العامة عند الكلدان والمينيين والسبئيين والنبطيين والتدمريين ، وبين من جاء بعدهم من اللخميين والغساسنة

وتتبع الآنسة « Schelsiuger » المدرسة القديمة القائلة — قبل قرن أو أكثر — إن العرب لم تكن عندهم نظرية موسيقية غير ما اقتبسوه من الفرس أو اليونان ، وتسترسل في القول أن كلا الشعبين (اليونان والفرس) كانت لهما نظم موسيقية خاصة بهما ، ولم يكن عند العرب حتى هذا الوقت نظام يستطيعون أن يجعلوه نظرية . ولدينا عبارة مماثلة لهذا القول في كتابها « رسل أسرة الكمنجة » (ص ٣٩٧ — ٣٩٨) اذ تقول : « افتتح العرب فارس في القرن السادس ، ومن سجلاتهم نقرأ أنهم وجدوا نظام الفرس الموسيقي أرقى بكثير من نظامهم ، فاقتبسوه ودرسوه درساً عميقاً على أساتذة وطنيين (٢) »

أما الحقيقة فهي أن العرب افتتحوا فارس في القرن السابع ، وكان لهم نظام صيروه نظرية قبيل فتح فارس

ونجد المغنين العرب من حين الى آخر يفاخرون بالتقاليد الموسيقية التي تحدرت اليهم من عصور الجاهلية مثل المغنية الجاهلية « رائقة » معلمة « عزة الميلاء » (٣) . وكان العرب في هذه الحقبة التي ظن فيها حدوث هذه المارية الأجنبية حذرين من أي تعد على ذلك الشيء المقدس وهو القومية العربية . وهل يتساهل العرب في دخول الطرق والعادات الأجنبية بهذا القدر وكل كلمة من عمر تدعو الى الجامعة العربية ؟ (٤)

ولئن قلنا إن العرب لم يكن عندهم نظام موسيقي في هذا الوقت (أي وقت فتح فارس) ليبنوا عليه نظرية لا تتفق مع

(١) Arabian Musical Influence p. 48
(٢) Arabian Musical Influence p. 48

(١) Enyclopaedia of Islam I. p, 380
(٢) Arab. Mus. Inf. p. 50
(٣) أغاني ج ١٦ ص ١٣ (٤) جرجي زيدان التمدن ج ٤ ص ٣٢

رَبَّاه كم نُؤْتُ بما أحمِلُ ... وكنت يا ربِّ مَناطَ الرجاء
رباه لولا عطفُكَ المُسبَلُ ... ما ساغَ لي طولَ حياتي عزاء

لا همّ أفعمتَ الدُّنا بالضياء ... وانجاب عنها ليلُها الأغبرُ
فاسكُب على قلبيَ نورَ الرجاء ... من قبلِ أن يطويَه المَقبَرُ

(دمشق) أمجد الطرابلسي

الحقيقة ، فلدينا شواهد كثيرة على وجود موسيقى وغناء فى عصور الجاهلية ، ويكاد يكون مستحيلاً أن نتصور هؤلاء القوم الذين كانت الموسيقى لهم من الحاجات الضرورية ، والذين استطاعوا تهذيب أشعارهم كما نراها فى المعلقات والحماسة والمفضليات ، غير قادرين على تنظيم غنائهم (١)

ومن حسن الحظ أن حفظ لنا الفارابى مطولات عن نظام جاهلى فى سلم الطنبور البغدادى كان يتوصل اليه بتقسيم طول الوتر الى أربعين قسما ؛ ويرجح أن عرب الجزيرة ورثوا هذا السلم «Scale» عن الكلدان الذين ورثوه عن الأشوريين والبابليين ، وحينما حل محله النغم الفيثاغورى فى الشرق الأدنى المثقف وفارس كما حل بين عرب سوريا والحيرة ، عاش هذا الطنبور فى أرجاء الحجاز واليمن القاصية ووجد له عشاقاً حتى القرن العاشر بعد الميلاد

كانت الحيرة فى أيام الجاهلية المركز الأعظم للآداب العربية ومنها انتشر الشعر فى أنحاء شبه الجزيرة . وبما أننا نعلم الصلة الشديدة بين الشعر والموسيقى فمن الممكن أن نتصور أن الموسيقى نفقت سوقها كالشعر ، وفى الحقيقة يجب أن تكون الحيرة على ثقافة موسيقية عالية متى علمنا أن ملك الفرس العظيم بهرام غور (٤٣٠ — ٤٣٨ م) أرسل الى بلاط اللخميين العرب فى تلك المدينة ليتثقف ، وهناك تعلم الموسيقى بين الآداب العربية الأخرى (٢) . وكان هذا قبل أن يتغلب العرب على الفرس . ولربما سأل سائل : ما الذى اضطر يزدجرد الأول والفرس الى ارسال الأمير الصغير الى شعب ليس له أسلوب خاص فى فيطلمه عليه (كما تقول الآنسة «Schelesinger») ومن المستغرب أيضاً أن فارس وهى النبع المشهور للنظام الموسيقى العربى تفتقر تحت حكم بهرام غور الى مغنين محترفين يرسلون اليها من الخارج (٣)

ويضع الطبرى بين سقطات النعمان الثالث (٥٨٠ ـ ٦٠٢م) آخر ملوك اللخميين ميله للغناء . ومن الحيرة اقتبس العرب حوالى آخر القرن السادس الميلادى ذلك الغناء الذى حل محل « النصب » والعود والمزهر (٤)

أما أن العرب كان لهم نظام موسيقى محلى فيثبت جلياً بحجج عديدة . وأما أن يكون هذا النظام قد تأثر بنظريات الفرس والبيزنطيين وفيما بعد بالأصول اليونانية القديمة فرأى يسهل قبوله ؛ كذلك لا ينكر أن الفرس والبيزنطيين تأثروا جميعاً بالنظرية الموسيقية العربية (ولو كانت التسمية مرشداً لقلنا إن النظرية الفارسية مبنية بالكلية على الأصول العربية) (١)

كان التأثير الأجنبى على الموسيقى العربية سطحيا ولم يكن له فى البدء أثر على النظرية . قرأنا عن المغنين المتقدمين أمثال طويس وسائب خاثر الذين قلدا أسلوب الفرس فى الغناء وفى نفس الوقت وجدنا مغنياً فارسياً كنشيط يدرس أسلوب العرب فى الغناء . ليس هنالك تقييد نظرى وجل ما هنالك هو اقتباس شعب من آخر شكلاً خاصاً أو أسلوباً غنائياً

على أن تبعة الظن بوجود صبغة موسيقية أجنبية تلقى على ابن خلدون الذى يقول فى مقدمته إن اتصال المغنين من الفرس والروم بالحجاز ولعبهم على العود والطنبور والبربط والمزف والمزمار قاد العرب إلى اقتباس ألحان الفرس والروم فى أشعارهم (٢)

هذا القول لا يتفق مع أقوال المؤرخين الأول كابن عبد ربه والأصفهانى والمسعودى أولاً : لأن هذه الرواية تضلل الناس وتجعلهم يعزون بغير حق الفخر للفرس والبيزنطيين بأدخال هذه الآلات المذكورة إلى البلاد العربية . وفى الواقع أنها كانت عند العرب من قبل (٣) . ثانياً : لم يذكر كتاب الأغانى وهو أعظم مصدر لأخبار الغناء عند العرب مغنياً رومياً واحداً . وإذا استثنينا نشيطاً فمن المرجح أن كل من يدعون بالمغنين الفرس ولدوا بالجزيرة أو تثقفوا فيها

والحقيقة ان المغنين البارزين الذى أتوا من غير الحجاز فى هذا الزمن أربعة : نشيط الفارسى ، وأبو كامل الغزيل الدمشقى ، وابن الطنبورة اليمنى . وحنين الحيرى ؛ ولهذا نرى أن أى تأثير خارجى فى الموسيقى العربية حتى بالطريقة العرضية التى ألمنا اليها أتى على أيد عربية

لم يقرر المؤرخون نهائياً ولا فى موضع ما ما اقتبس العرب

(١) Arab. Mus. Inf. p. 51
(٢) الطبرى ج ١ ص ١٨٥
(٣) Arab. Mus. Inf. p. 52
(٤) المسعودى ج ٨ ص ٩٤

(١) أغانى ج ١ ص ١٥١
(٢) ابن خلدون ج ٢ ص ٣٦٠
(٣) مسعودى ج ٨ ص ٨٩ . . . الحماسة ج ١ ص ٥٠٢ ، الطبرى ج ١ ص ٣٠٧ ، الأغانى ج ٢ ص ١٧٢

من الفرس والبيزنطيين فى قضية النظرية . دعونا قبل كل شئ نحرر أذهاننا من الظن بأن العرب أقروا بأن الفرس كان لهم نظام موسيقى أرقى بكثير من نظامهم . ثم فيما يتعلق بالرسائل فان أقدم كتاب فارسى فى الغناء مؤلف فى القرن الثانى عشر الميلادى . ولكن عندنا رسائل فى الموسيقى العربية يرجع تاريخها إلى القرن التاسع (الكندى توفى سنة ٨٧٤ م) : ولدينا دليل على تأليف مصنفة فى القرن الثامن (يونس الكاتب توفى سنة ٧٦٠ م والخليل بن أحمد توفى سنة ٧٩١) (١)

وفى الحقيقة أن كل ما نعرفه عن الموسيقى الفارسية الأولى أتى من مصادر عربية ، والمرجع الوحيد الذى يعالج هذه القضية بتوسع هو المسعودى (توفى سنة ٩٥٦ م) فهو يقول ـ مستشهداً بقول ابن خرداذبة (القرن التاسع) وهو كاتب متقدم ـ « اخترع الفرس النغم والتوقيعات والمقاطع « Soesusae » والطرق الملوكية « Royal melodies » (٢) ولكى نقدر تماماً قيمة هذه الفقرة علينا أن نتذكر أن الغناء كان محرماً عند المسلمين وأن المؤرخين لم يكونوا مهتمين بالتماس عذر لمن يتجاوز مصدراً محلياً لشئ « منكر » كالغناء كما يطلق عليه المتشرعون من المسلمين (٣)

ويجب ألا ننسى أن عصر الأمويين عصر ساد فيه الشعور القومى فعُظمت فيه المثل الوثنية العربية وهذبت أكثر التأثيرات الأجنبية فى الموسيقى العربية ، وقد أشار اليها « لاند Land » بقوله : « ما استورده العرب من الفرس والروم لم يحل محل الموسيقى الوطنية بل طعم على جذر عربى وبقى له شكله الخاص » (٤)

ما أخذ العرب من الفرس لا يمكن التأكد منه بالضبط ، وجل ما نعرفه أن الفائدة التى نشأت من الاحتكاك الفارسى هى من جهة الآلات الموسيقية . فمثلاً كلمة « دستان Fret » فارسية استعملها العرب لمواضع الاصبع على لوحة رأس العود الخشبية أو الطنبور (٥) . ومن المؤكد أن العرب لم يأخذوا السلم الفارسى . لأننا نجد أنهم انتقدوا لاستعمالهم الأنغام الفارسية التى كانت متمثلة فى سلم الطنبور الخراسانى (٦) ، فأدخل « زلزل » أحد المغنين فى

(١) Arab. Mus. Inf. p.55
(٢) مسعودى ج ٨ ص ٩٠
(٣) Arab. Mus. Inf. p. 55 (٤) Arab. Mus. Inf. p. 57
(٥) Hist. of arab. Music p. 70 (٦) العقد الفريد ج ٣ ص ١٩٠

عصر العباسيين شكلا جديداً من العود حل محل العود الفارسى وسمى هذا العود بعود « الشبوط Perfect Lute »(١)

وهنالك أسباب تحملنا على الاعتقاد بأن العرب عدلوا دوزان (عودهم) على النمط الفارسى . فقد كان الدوزان العربى القديم كما يظهر « A — G — D — C » ولكن بدخول النمط الفارسى لحن على « C — G — D — A » ولعل هذا يوضح لنا الأسماء الفارسية « زير » و « بَمّ » المرموز بهما للوترين الأول والرابع بينما الوتر الثانى والثالث اللذان لم تصبغهما الفارسية ظلا محافظين على أسميهما العربيين وهما : المَثنى والمَثلث (٢)

أما الخطة التى سار عليها البيزنطيون فى قضية النظرية الموسيقية فليس لنا بها علم ، فمنذ القرن الرابع حتى القرن الحادى عشر الميلادى — وهو يشمل القسم الأكبر من عهد البيزنطيين — لم تصلنا مؤلفات بيزنطية . ومن المرجح أنه لم يكتب شيء بالنظر الى الحالات الثقافية التى نعرفها ، ومن المؤكد أن اللاتينيين « امدوا Cop ella » و « mertianus » و « Boëttius » و « Cassio dorus » فى القرنين الخامس والسادس ، ولكنهم لم يدونوا نظرية معاصريهم ، كلا ولا خبرة اللاتين لأن تآليفهم عبارة عن مجموعات المشتغلين بالأمور النظرية من اليونان القدماء . أما الشيء القليل الذى نعرفه فى هذه الحقبة عن نظرية البيزنطيين ومزاولتهم للموسيقى ، فقد أتى الينا من مصادر عربية وسريانية

ليس لدينا رسائل بيزنطية أو فارسية تثبت وجود الموسيقى حتى القرنين الحادى عشر والثانى عشر تقريباً . ولكن حق للعرب أن يفاخروا بعشرات من الرسائل القديمة . ويجب علينا قبل كل شيء أن نكون حذرين فى قبول الروايات المختصة بما اقتبس العرب من الفرس والبيزنطيين . أما أن يتسرب شيء من التأثير من هذين المصدرين فمن الممكن تجوزه (٣)

وأول خبر لدينا عن تأثير فارسى وبيزنطى محدود فى الموسيقى العربية ، هو ما ذكره الأغانى عند كلامه عن ابن مسجح الذى يعزى إليه ادخال الأنغام الموسيقية الأجنبية على الفن المحلى

(١) Hist of Arab. Music p.108
(٢) Hist of Arab Mus.p.70 (٣) Arab. Music. Inf. p. 56—57

يقول صاحب الأغانى : « وفى سورية تعلم ابن مسجح الألحان الرومية وتلقى ارشادات الباربطية (Barbition playus) والأسطوخسية . وبعد ذلك انقلب إلى فارس فأخذ بها غناء كثيراً وتعلم الضرب (accompaniment) ثم رجع الى الحجاز وقد أخذ محاسن تلك النغم وحذف منها ما استقبحه من النبرات والنغم والتى هى موجودة فى نغم غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب (١)

فما اقتبسه العرب فيا بعد من البزنطيين والفرس لا يمكننا إثباته بالتحقيق ، ومن المحتمل أن النظامين المعروفين « بالمجريين Two Courses » كانا من أصل بيزنطى أو لعلهما عرفا بين تعاليم الساميين(٢) أما الأصول العامة للأسطوخسية البيزنطيين فلم يأخذها العرب ، وإذا كان هنالك شىء فهو قليل لأن مخطوطة الكندى التى ألمعنا اليها قبلاً تقول إن مبادىء الأسطوخسية الرومية تختلف عن المبادىء العربية (٣)

أما مسألة الايقاع والقيم القياسية فنحن نعلم أن العرب كان لهم نظام منذ أوائل القرن السابع الميلادى(٤) فقد كتب الخليل ابن أحمد « كتاب الايقاع » فى القرن الثامن(٥) . ونجد فى القرن التاسع نظاماً يصفه الكندى جيداً بقوله « وهنا لدينا قسم موحد من الموسيقى العربية نظامه — كما يظهر — تطور وفقاً لنظام على(٦) » وقد اقتبس الفرس توقيماتهم وقوافيهم من العرب(٧)

ولقد غير اسحاق الموصلى (٧٦٧ — ٨٥٠) شكل النظرية العربية القديمة فى وقت ترجمت فيه النظريات اليونانية القديمة الى العربية ولكن هذا التغيير حدث بدون الاستعانة بكتاب اليونان . يقول صاحب الأغانى : « كان اسحاق أول من ضبط الألحان والتوقيعات وقسمها بطريقة لم تعرف من قبل ، وكان العالم المتقدم يونس الكاتب المتوفى سنة ٧٦٠ قد أشار اليها . ويقال إن اسحاق توصل فى عمله الى نتائج أقليدس والأوائل الذين كتبوا عن علم الموسيقى ، ولكنه توصل الى هذه النتائج بتجاربه الخاصة المنفردة بدون معرفة كتاب واحد من كتب الأوائل(٨) » أما أن اسحاق لم يعرف شيئاً عن المشتغلين بالنظريات من اليونان القدماء فثبت فى فقرة أخرى(١) . وكان نظام اسحاق شائعاً فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلادى . وقد وضح هذه العبارة بجلاء تام صاحب الأغانى(٢) ويحيى بن على الذى ميز هذا النظام من نظام اليونان (٣)

فاستنادنا الى ما فصله الكندى وغيره من الكتاب كصاحب الأغانى فى تعريفه النظام العربى القديم قبيل زمن الشراح (Scholiasts) اليونان كاف لأن يثبت لنا أن هذا النظام كان يختلف عن نظام فارس والروم واليونان

أما فى تاريخ الأنغام « modes » ففى استطاعتنا معرفة ما اقتبسه العرب من فارس وبيزنطة

كان لدى الهنود — على رأى « رامیانا — Ramyana » سبعة « Jētis » وهى أشبه بالرقص « Rēgrs »(٤) . ويقول أمين « كان للفرس سبعة أنغام إلا أنها فى أيام خسرو ابروز (٥٩٠ — ٦٢٨) أصبحت اثنى عشر نغماً(٥) » . ويسجل « بار هبروس السريانى » هذه الاثنى عشر لحناً للفرس . ومع أن بعضاً منها قلده العرب على أصله أو بتحريف قليل فيا بعد ، تذكر أيضاً أن العرب استعملوا أنغامهم الوطنية زمناً طويلا قبل هذا التقليد

ففى القرن الثامن الميلادى ألف يونس الكاتب (توفى سنة ٧٦٠م) والخليل بن أحمد (توفى سنة ٧٩١ م) كتاب النغم . ونقرأ فى كتاب الأغانى (كتب فى القرن العاشر) عن ثمانى نغمات لم توضع لها أسماء خيالية كما هى فى الفارسية واليونانية ، وانما هى أسماء بعد أصابع . وكان للسريان أيضاً « آحادهم Ikhadias » ومثلهم اليهود ، ولكنها (أى الأنغام) لم تكن كالأنغام اليونانية ، وهى حالة يجب أن ننعم النظر فيها . أما النغمات العربية والفارسية والبيزنطية فى القرن التاسع فكانت مختلفة ، كما ثبت فى الرسالة المنسوبة للكندى(٦) التى أشرت اليها قبلا . ويظهر جلياً

(١) الأغانى ج ٣ — ٨٤
(٢) Hist of Arab Music p. 71 (٣) Berlin MS. - 5530
fol. 30 (٤) أغانى ج ٢ ص ١٧٠ ، ج ١٦ ص ١٣ (٥) الفهرست ص
٤٣ (٦) Arab. Mus. Inf. p. 58 (٧) Browne, Litt. Hist. of
presia p. 12 (٨) أغانى ج ٥ ص ٥٢ — ٥٣

(١) أغانى ج ٥ ص ٥٣
(٢) أغانى ج ١ ص ٢ (٣) Arab. Music. Inf. p. 59
(٤) Popley « Music of India, » p, 10
(٥) Jones, Sir W., « Music of Hindustan, » p. 63
(٦) Arab. Music. Inf p 60

أن للنظام الأساسي لكل من هذه الشعوب ميزة هامة [١] . يقول اخوان الصفا : « . . . إذا تأملت فلكل أمة من الناس ألحان ونغمات يستلذونها ويفرحون بها ولا يستلذها غيرهم ولا يفرح بها سواهم مثل غناء الديلم والأتراك والعرب والأكراد والأرمن والزنج والفرس والروم وغيرهم من الأمم المختلفة الألسن والطباع والعادات [٢] »

وقد نجد في تأثير النظام العربي القديم على أوربا الغربية مايدعم قولي ويزيده ايضاحاً . على أني وإن لم أهيىء المدة تماماً للاعراب عن هـذا التأثير . فاني أجتزئ باليسير من آراء كتاب غربيين عن هذا التأثير :

« مما لاريب فيه أن أوربا الغربية شعرت على العموم بتيار الثقافة العربية من جراء الاحتكاك السياسي Political Cantact وأرى أن الموسيقى الأوربيـة تأثرت في هذه الناحية بتجوال المطرب العربي أو المغربي

كان أكثر ما اقتبسه الغرب من الشرق في هـذه الناحية هو الآلات ، قال « كار انجل Car Ingel » : « لما أتى العرب أوربا في ابتداء القرن الثامن كانوا أكثر تقدماً من الشعوب الأوربية في الثقافة الموسيقية ، أو على الأقل في تركيب الآلات الموسيقية . وهكذا لا يسعنا إلا تقدير تأثيرهم الموسيقي الرائع [٣] »

وهم كما يقول « فارمر Farmer » أول من أتحفونا بوصف علمي حقيقي للآلات الموسيقية . . . » وما كان لدينا من نظم في تعليم الآلات في العصور الوسطى فمقتبس من العربية . » وتسلم الآنسة « Schelesiugr » أن للعرب فضلاً على أوروبا في العصور الوسطى في مسألة الآلات الموسيقية ولكنها تنكر أن أوروبا — أخذت أي نظرية منهم ، وهـذا القول يتجاهل تأثير نقطتي الاحتكاك الثقافي العربي وهما :

(١) أغاني ج ٥ ص ٥٧
(٢) إخوان الصفا ١ ص ٩٢ — ٩٣
(٣) Early Hist of the Vialin Family p 79

(١) الاحتكاك السياسي الذي ابتدأ في القرن الثامن وانتشر في الخارج خصوصاً على أيدي العازفين

(٢) الاحتكاك الفكري الأدبي الذي ابتـدأه المفليون Intellectuals [١]

إذن يمكنني أن أستنتج — استناداً على ما أدليت من الحجج — أن العرب كان لهم نظام موسيقي قديم يختلف عن نظام الفرس والروم واليونان القدماء ، وأن القائلين بنسبة هذا النظام الموسيقي العربي الى فارس وغيرها ، جديرون بالعدول عن أقوالهم أمام هذه البراهين ؟

بيروت — حسين سراج

نعتذر للقراء نيابة عن الكاتب من ضعف الأسلوب ، وحرفية الترجمة ، والرجوع في الأسانيد العربية إلى ترجمتها لا إلى أصلها (الرسالة)

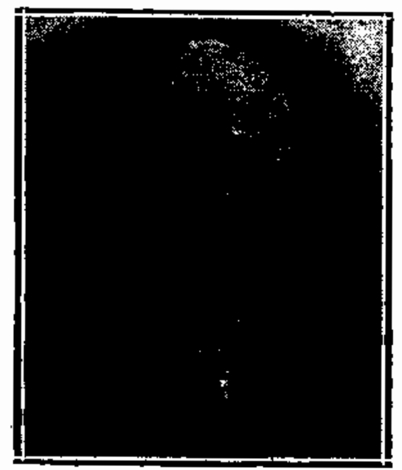
(١) Arab Music Inf p 62

من تراثنا الأدبي

احياء مخطوطات

للأستاذ محمد كرد علي

عضو مجمع اللغة العربية الملكي



وعدت أن أتكلم على الكتب التي نشرها العلامة كرينكو، ومنها هذه الثلاثة الكتب المهمة. أولها كتاب التيجان لوهب بن منبه والثاني أخبار عَبيد بن شَرْيَة، والثالث كتاب الحماسة لابن الشجري.

ويهمنا أن نعرف أولاً من هو وهب بن منبه. كان وهب من علماء التابعين، وهو من الأبناء أبناء فارس اليمنيين مع سيف ابن ذي يزن لقتال الحبشة في اليمن. فهو على الأرجح فارسي الأصل، وكتاب التيجان كما قال فيه ابن خلكان ترجمه بذكر الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم. وهو رواية أبي محمد عبد الملك بن هشام عن أسد بن موسى عن أبي ادريس بن سنان عن جده لأمه وهب بن منبه. وتوفي وهب في صنعاء اليمن في سنة عشر وقيل أربع عشرة وقيل ست عشرة ومائة

ذكر ابن سعد صاحب الطبقات الكبير في ترجمة وهب بن منبه أنه قال: لقد قرأت اثنين وتسعين كتاباً كلها أنزلت من السماء، اثنان وسبعون منها في الكنائس، وفي أيدي الناس، وعشرون لا يعلمها إلا قليل، وجدتُ في كلها أنه من أضاف الى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر. قال: وفي مقدمة كتاب التيجان: قرأت ثلاثة وسبعين كتاباً مما أنزل الله على الأنبياء، فوجدت فيها أن الكتب التي أنزلها الله على النبيين مائة كتاب وثلاثة وستون كتاباً: أنزل صحيفتين على آدم بكتابين: صحيفة في الجنة وصحيفة على جبل لبنان، وعلى شيث بن آدم خمسين صحيفة، وعلى أخنوخ وهو أدريس ثلاثين صحيفة، وعلى نوح صحيفتين، وعلى ابراهيم عشرين صحيفة، وعلى موسى خمسين صحيفة وهي الألواح

بدأ وهب كتابه بأحوال خلق العالم، ونسب ولد سام وحام ويافث، وملك حمير ووائل والسكسك ويعفر وعامر ذي رياس، والمافر بن شداد وشداد بن عاد ولقمان بن عاد، والهمال بن عاد والحارث بن الهمال والصعب ذي القرنين، وأبرهة والعبد بن أبرهة وعمرو بن أبرهة، وشرحبيل والد وهب وملك بلقيس وملك رحبعم بن سليمان وغيرهم من المتوجين من ملوك غسان، وغيرهم من ملوك اليمن والتبابعة وقصة النار التي تعبدها حمير الى آخر من ذكر من الملوك المتوجين

وأهم ما في الكتاب هذا القسم التاريخي. ومن قرأ القصائد الواردة فيه بامعان يستنتج منها مادة تاريخية، بيد أن كتاباً عرف مؤلفه باكثاره لا يخلو من مسائل نعدها اليوم ترهات، وربما كانت في عصره وقطره حقائق مسلمة

أما الكتاب الثاني، فقد نقل عن عَبيد بن شَرْيَة من المعمّرين من أهل اليمن أيضاً كان وفد على معاوية بن أبي سفيان في الشام، فلما رآه معاوية آية في تاريخ اليمن وملوك العرب والعجم روى أخبارهم مشفوعة بأشعار، أمر كتابه أن يدونوا ما يتحدث به عبيد بن شرية في كل مجلس يسمر فيه مع معاوية، فعبيد هذا كان الرواية والمدونون كتاب معاوية

وفي هذا الكتاب حديث هلاك عاد وثمود وجرهم وخروجهم من اليمن الى الحرم، وناشر النعم بن عمرو بن يعفر بن حمر، وشمر يرعش بن افريقيس بن أبرهة بن الرائش، وتبع الأقرن وهو ذو القرنين، وملكي كرب بن أسعد ابن تبع الأكبر، وأسعد أبو كرب الأوسط. وتتخلل كل ذلك قصائد عليها مسحة السذاجة والبداوة، والغالب أنها أو بعضها من شعر الجاهلية القريب العهد بالاسلام، كان ينقل من الصدور ثم دوّن في السطور

ذكر ابن النديم صاحب الفهرست أن معاوية لما أمر بتدوين ما يرويه في مجلسه عبيد بن شرية أمر أن ينسب اليه، وأن لعبيد عدة كتب. وكان معاوية يعجب بحفظ عبيد ويستزيده، وقال له مرة: «خليق يا عبيد أن يكون هكذا، فزادك الله علماً وفهماً،

وزادنا بك رغبة وعليك حرصاً فانا لا نحصى أياديك ، فزادك الله فضلاً الى فضل وهدى الى هدى »

وفى تدوين معاوية روايات عبيد دليل بأن التدوين حدث منذ القرن الأول ، فقد ذكروا أن زيد بن ثابت ألف كتاباً فى علم الفرائض ، وأن عبد الله بن عمر كان يكتب الحديث وألف كتاب فى قضاء علىّ فى عهد ابن عباس ، وأن واثلة بن الأسقع من أهل الصُّفَّة المتوفى سنة ثلاث وقيل خمس وثمانين ، كان يملى على الناس الأحاديث وهم يكتبونها بين يديه . وكل هذا يدل على أن القوم بدأ تدوينهم فى عصر الصحابة ، وإن لم يدونوا ما أفرد فى التأليف إلا فى القرن الثانى للهجرة

أما عبيد بن شرية هذا فهو من الأخباريين ، ولناشر كتابه الأستاذ كرينكو رأى فيه . كتب الىّ يقول : « إنك تعتقد كما اعتقد قبلك ياقوت الحموى وابن خلكان أن عبيد بن شرية كان رجلاً اخبارياً بالحقيقة ، وأنا أخالف رأيك ، ورأى من سلف ، وأعتقد أن روايته من موضوعات محمد بن اسحق مؤلف السيرة ؛ ومن الدلائل على هذا أن أكثر المصنفين الذين تكلموا فى هذا الكتاب لم يروه ، بل نقلوا ما وجدوه فى الكتب التى تداولوها ، وكثرة الأشعار الركيكة التى لامعنى لها فيه تخالف أسلوب الشعر القديم كما نجدها فى دواوين القدماء البدويين والحضريين مثل حسان بن ثابت وأقرانه . ولم يكن لى غير نسختين كلتاها مكتوبة فى صنعاء ، وهما من أصل واحد بلا شك ، إذ أغلاطهما واحدة ؛ وما كان عندى يوم تصحيح كتاب التيجان سوى نسختين ، نسخة مختصرة فى خزانة برلين ، والنسخ الثلاث الأخرى مكتوبة فى اليمن . ولو أنعمت النظر فى الكتابين كتاب التيجان ورواية عبيد تجد أن مؤلفهما كتبهما ليزيد مفاخر اليمن على النزارية ، وليثبت أن مجد اليمن أقدم وأكبر مما كان مجد النزارية ، وهذا تعصب منه على قريش ، ولهذا لم تكن لها سوق فى سائر بلاد العرب ؛ وتجد كثيراً من أساطير اليمانيين مختلطة بالآثار الصحيحة . وقد نقل الهمدانى كثيراً من الروايات غير المحققة فى كتاب الأكليل ، ولا سيما فى القبوريات ؛ ثم جاء عبد الملك بن هشام مع تعصبه لليمانية فشوش الكتاب كما شوش السيرة ، ولم ينبه عليه أحد ؛ إلا أن المحدثين كلهم يضعّفون أبا إسحاق ويسمونه أخبارياً لامحدثاً ، وقد أبنت رأيى فى ذلك فى أطروحة باللغة الانجليزية نشرتها قبل طبع التيجان فى مجلة الثقافة الاسلامية Islamic Cultura »

* * *

أما الكتاب الثالث ، فهو كتاب الحماسة لهبة الله بن الشجرى المتوفى سنة ٥٤٢ ، فهو سفر صغير فى نحو ثلثمائة صفحة ، أورد فيه أطايب من شعر الجاهليين والمخضرمين والمحدثين على مثال حماسة أبى تمام وحماسة البحترى . وابن الشجرى معروف عندالعلماء بأماليه ، وأماليه طبعت فى مصر، وهى كأمالى المرتضى فى اللغة والشعر والأدب والنحو والبيان ، ولاتشبه أمالى القالى ، وهى فى شعر الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين

وقد كسر ابن الشجرى حماسته على أبواب وفصول ، فساق فى الأبواب أشعار الحماسة واللوم والعتاب والمراثى والمديح ، والهجاء والأدب ، والنسيب والحنين الى الأوطان ، والارتياح عند هبوب الرياح ، والاشتياق عند لمان البروق ، والنزاع عند نوح الحمام ، والشوق عند حنين الابل ، والطيف والخيال ؛ وساق مقطعات من غزل جماعة من المحدثين وصفات النساء والتشبيهات ؛ وأورد فى الفصول « طيب النكهة وعذوبة الريق » و « طيب الريح » و « وصف العين والنظر » و « حسن الحديث وطيبه » و « المضاجعة وشدة الالتزام » و « وصف النار » و « وصف التنائف ، والوحش والابل والركب ، وأخبية السفر » ، والصفات والتشبيهات فى الليل ، والنجوم والمجرة والهلال والصبح ، والصفات والتشبيهات فى الرياض والمياه والنبات ، والصفات والتشبيهات فى السحاب والبرق والغيث ، وصفات آلة الحرب وتشبيهاتها ، وصفات الكتب والخط وآلته ، وصفات الشمر ، وصفات الشيب والشباب والخضاب ، والتشبيهات الخمرية ، والتشبيهات فى الغناء وآلته والمغنين ، والتشبيهات الغزلية ، وتشبيهات المدح ، وتشبيهات الهجاء ، وتشبيهات وصفات فى معان مختلفة . وختم الكتاب بباب الملح وبالأشعار المزيدة على الأصل . ودونك طريقته فى الاستشهاد ، وقد يحل بعض العويص والغريب من المفردات حلاً مختصراً مقبولاً ، قال فى صفات آلة الحرب وتشبيهاتها :

« قال امرؤ القيس يصف فرساً »

وقد اغتدى والطير فى وكناتها   بمنجرد قيد الأوابد هيكل

مكر مفر مقبل مدبر معاً ... كجلمود صخر حطه السيل من عل
له أيطلا ظبي وساقا نعامة ... وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

وقال البحتري :

أراجعتي يداك بأعوجي ... كقدح النبع في الريش اللؤام
بأدهم كالظلام أغر يجلو ... بغرته دياجير الظلام
ترى أحجاله يصعدن فيه ... صعود البرق في جون الغمام

وله وكان وصافاً للخيل :

أما الجواد فقد بلونا يومه ... وكفى بيوم مخبراً عن عام
جارى الجياد فطار عن أوهامها ... سبقاً وكاد يطير عن أوهامه
جذلان تلطمه جوانب غرة ... جاءت مجيء البدر عند تمامه
واسودّ ثم صفت لعيني ناظر ... جنباته فأضاء في إظلامه
مالت جوانب عرفه وكأنها ... عذبات أثل مال تحت حمامه
وكأن فارسه وراء قذاله ... ردف فلست تراه من قدامه
لانت معاطفه فخيل أنه ... للخيزران مناسب بعظامه
في شعلة كالشيب تم بمفرق ... غزل لها عن شيبه بغرامه
وكأن صهلته إذا استعلى بها ... رعد تقعقع في ازدحام غمامه
مثل الغراب مشى يباري صحبه ... بسواد صبغته وحسن قوامه

وله :

وأغرّ في الزمن البهيم محجل ... قد رحت منه على أغر محجل
كالهيكل المبني إلا أنه ... في الحسن جاء كصورة في هيكل
ذنب كما سحب الرداء يذب عن ... عرف وعرف كالقناع المسبل
جذلان ينفض عذرة في غرة ... يقق تسيل حجولها في جندل
تتوهم الجوزاء في إرساغه ... والبدر فوق جبينه المتهلل
فكأنما نفضت عليه صبغها ... صهباء للبردان أو قطربّل
وتخاله كسي الخدود نواعماً ... مهما تواصلها بلحظ تخجل
وتراه يسطع في الغبار لهيبه ... لوناً وسراً كالحريق المشعل
هزج الصهيل كأن في نغماته ... نبرات معبد في الثقيل الأول
ملك العيون وإن بدا أعطيته ... نظر المحب إلى الحبيب المقبل

وأهدى البحتري إلى عبد الله بن خاقان فرساً وكتب إليه :

ماذا ترى في مدمج عبل الشوا ... من نسل أعوج كالشهاب اللامع
يختال في شية يموج ضياؤها ... موج القتير على الكمي الرامح
لو يكرع الظمآن فيها لم يمل ... طرفاً إلى عذب الزلال السائغ
أهديته ليروح أبيض واضح ... منه على جذلان أبيض واضح
فيكون أول سنة متبوعة ... أن يقبل الممدوح رفد المادح

وقال عبد الله بن المعتز :

وخيل طواها القودُ حتى كأنها ... أنابيب سمر من قنا الخط ذبّل
صببنا عليها ظالمين سياطنا ... فطارت بها أيد سراع وأرجل

إلى آخر الفصل . . .

وروى فيها فصل صفات الكتب والخط وآلته

قال الكندي يصف الدفاتر :

خرس تحدث آخراً عن أول ... بعجائب سلفت ولسن أوائلا
سقيت بأطراف اليراع بطونها ... وظهورها طلا أحم ووابلا
تلقاك في حمر الثياب وسودها ... فتخالهن عرائساً وثواكلا
وتريك ما قدفات من دهر مضى ... حتى تراه بعين فكرك ماثلا

وقال آخر :

نعم المحدث والنديم كتاب ... تلهو به إن ملّك الأصحاب
لا مفشياً سراً إذا استودعته ... ولديه ما تحيا به الألباب

وقال المهلبي يصف كتاباً :

وفضضته فوجدته ... ليلاً على صفحات نور
مثل السوالف والجباه الـ ... بيض زينت بالشعور
وكنظم در كالثغو ... ر وكالعقود على النحور
أنزلته مني بمنـ ... زلة القلوب من الصدور

وقال أبو تمام يصف كتاباً :

فضضت ختامه فتبلجت لي ... غرائبه عن الزهر الجني
وضمن صدره ما لم تضمن ... صدور الغانيات من الحليّ

وقال آخر في وصف كتاب :

مداد مثل خافية الغراب ... وأقلام كرهفة الحراب
وقرطاس كرقراق السراب ... وألفاظ كأيام الشباب الخ

* * *

هذا ما نشره الأستاذ كرنيكو من كتب العرب وهو ينشر اليوم في القاهرة كتاب « المؤتلف والمختلف » للآمدي ، و «رسالة ابن الجراح » وما بقي من معجم الشعر للمرزباني ، وفي هذا الكتاب أخبار لا توجد في الكتب التي بأيدينا فضلاً عما حوى من الشعر القديم . وبعد هذا ألا نشكر لعلماء المشرقيات غيرتهم على نشر كتب العرب وإظهارها بمظهر من التحقيق الدقيق يغبطون عليه

القاهرة — محمد كرد علي

أثر الفن الاســـلامى
فى فنون الغرب
للدكتور زكى محمد حسن
الأمين العلمى لدار الآثار العربية



ورث الاسلام فنون رومة وبيزنطة وإيران وكلديا وأشور، وتأثر المسلمون بالأساليب الفنية فى البلاد التى خضعت لهم وانتشر فيها دينهم، فظهر فى عالم الوجود فن بل فنون إسلامية أثرت بدورها فى فنون الغرب، وتركت فيها ذكريات قل أن تخفى على من لهم دراية بتاريخ الفنون فى العالم

والواقع أن العالم المتمدين فى القرون الأولى بعد الميلاد كان قد سئم الفن اليونانى القديم، وتاق إلى نوع من التجديد ينقذه من منتجات هـذا الفن التى أعوزها التنوع والابتكار، فتطلع إلى تقاليد فنيـة أعظم أبهة وأكثر حرية فى الزخارف والموضوعات لايعدل ما فيها من خيال ساحر وجاذبية ومفاجأة عظيمتين إلا ماتمتاز به من أسرار فى مزج الألوان تملأ البصر وتبهج الخاطر. تلك الأساليب الفنية المنشودة وجدها العالم المتمدين عند الساسانيين أولاً، ثم فى الفنون الاسلامية بعد أن امتدت الأمبراطورية العربية واتسعت أرجاؤها. أما حلقتا الاتصال بين الشرق والغرب، والميدان اللذان اتخذتهما الأساليب الاسلامية للوصول إلى أوربا، فهما الأندلس، والحروب الصليبية

ففى الأندلس أينعت المدنية الاسلامية، وأدخل العرب صناعة الورق، وأصبحت قرطبة فى القرن العاشر أكثر المدن فى أوروبا ازدهاراً وأعظمها مدنية؛ وكان عصر ملوك الطوائف باعثاً على تعدد مراكز العلم والأدب والفن فى شبه الجزيرة. وجاء ملوك المرابطين والموحدين فكان اضطهادهم للمستعربين من بنى الأندلس سبباً فى هجرتهم إلى الشمال، فزاد بذلك محيط المدنية الاسلامية اتساعاً، ونقل هؤلاء المستعربون إلى مهجرهم الجـديد كثيراً من عادات المسلمين وأزيائهم وصناعاتهم، وما لبث نجم المسلمين فى الأندلس أن أذن بالأفول، فتقدمت فتوحات المسيحيين، وأخذ نفوذ العرب فى التقلص، ودخل كثير منهم تحت السلطان المسيحى، فصاروا يعملون للملوك والأمراء الاسبان، وتعلم منهم غيرهم، فانتشرت أساليبهم الفنية؛ وكان ســـقوط طليطلة سنة ١٠٨٥، وقرطبة سنة ١٢٣٦، وأشبيلية سنة ١٢٤٨، أكبر عامل على امتزاج الصناع العرب أو المستعربين بغيرهم. ثم كان سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ خاتمة هذا الطور الذى تعلم فيه صناع الغرب عن المسلمين كثيراً من أسرار صناعاتهم فى العمارة والفنون الفرعية؛ ولعل أهم مظاهر لهذا الطور الطرز الاسبانى الذى ينسب إلى المدجنين style mudéjar أو المسلمين الذين دخلوا خدمة المسيحيين بعد زوال دولة العرب؛ وقد نشأ هذا الطرز فى طليطلة واشتغل الصناع « المدجنين » بزخرفة الكنائس ودور الخاصة فى أنحاء اسبانيا، ونبغوا فى الفنون الفرعيـة كصناعة الخزف والمنسوجات والنقش على الأخشاب، وكانت لهم فى ميـدان العمارة آثار تذكر، وأهمها قصر أشبيلية L'Alcazar الذى بنوه للملك بدرو سنة ١٣٦٠ والذى ظل مقراً للأسرة المالكية حتى إعلان الجمهورية منذ سنوات فأصبح متحفاً يعجب الزائرون بعمارته العربية وبما جمعه فيه ملوك اسبانيا من تحف إسلامية نادرة

أما الحروب الصليبية فلا يعنينا من نتائجها إلا أنها كانت كالأندلس وجزيرة صقلية وسـيلة إلى نزاع دائم تتبعه علاقات متواصلة بين المسيحية والاسلام، وأوجدت هذه الحروب منفذاً لتجارة الجمهوريات الايطالية الناشئة كجنوا والبندقية وبيزا، وكان من النتائج العملية لتأسيس المملكة اللاتينية فى بيت المقدس نمو تجارة هذه الجمهوريات وإنشاء معاقل لها فى الشرق الأدنى

وإن صح القول بأن الأندلس وجزيرة صقليـة لعبتا الدور الأكبر فى نشر الثقافة الاسلامية فى المغرب، وأن فضل الحروب

الصليبية فى هذا الميدان لم يكن كبيراً نظراً لأنه لم يكن فى الشام فى عصر الحروب الصليبية مدنية تعادل مدنية الأندلس أو صقلية فضلاعن أن هذه الحروب لم تكن مرتعاً خصيباً للدرس والتحصيل وتبادل الثقافة ، نقول إن صح ذلك فى ميدان العلوم والآداب فانا نعتقد أن الدور الذى لعبته الحروب الصليبية فى نقل الصناعات والفنون الاسلامية إلى أوربا خطير لا يستهان به . ولعل استعمال الرنوك عند أمراء المسلمين فى الحروب الصليبية كان أكبر عامل فى تطور علم الرنوك والأشمرة عند الغربيين فأصبحت له اصطلاحاته الدقيقة وقواعده الثابتة ؛ وكانت الحروب الصليبية أيضاً وما تبعها من انتشار التجارة الغربية السبب فيما فعله البنادقة من صك نقود ذهبية للتعامل مع المسلمين وعليها كتابات عربيـة وآيات قرآنية فضلاً عن التاريخ الهجرى ، وظل هـذا حتى احتج البابا أنسونت الرابع سنة ١٢٤٩

وليس خفياً أن العمارة كانت أجل الفنون عند العرب فبلغوا فيها شأواً بعيداً ، وأخذوا من الأمم التى اختلطوا بها ما أخذوا ، وابتدعوا أساليب جديدة غاية فى الجودة والابداع ، ثم أخذت عنهم أوروبا كثيراً من هذه الأساليب . ولكن العلماء ليسوا على اتفاق فى هذا الرأى ، فبعضهم يرى أن العرب لم تكن لهم عمارة خاصة ، وإن صح أن هناك أوجه شبه بين طرُزهم المعمارية وبين الطرُز الأوربية فانما ذلك لأن مصدر هذه الطرز كلها واحد . ومهما يكن من شئ فاننا نفضل ألا نعرض للعمارة فى هذا المقال مكتفين بالتحدث عن الفنون الفرعيـة les arts mineurs أو المنقولة كما اصطلح بعضهم على تسميتها

ولسنا نذهب إلى أن المسلمين وصلوا فى هذه الفنون الفرعية إلى ما وصل إليه الغربيون . ولكنا لا نشك فى أنهم تفوقوا فى بعضها تفوقاً خاصاً وبلغوا فى صناعة الزخارف مبلغاً يشهد بعبقرية نادرة وخيال واسع

ولما كان تصوير المخلوقات الحية مكروهاً فى الاسلام ، فقد أصبح عماد الزخارف الاسلامية الأشكال الهندسـية والرسوم النباتية مضافاً إليها عامل جديد هو حروف الكتابة بالخط الكوفى أو بالخط النسخى أو بغيره من الخطوط ، ونحن نعلم كيف اهتم المسلمون وخاصة الفرس بتحسين الخطوط وزخرفتها ؛ وقد فطن الى ذلك صناع الغرب ، فأخذوا أحياناً يقلدون الكتابة العربية على مصنوعاتهم ، ومن أمثـلة ذلك صليب إرلندى من البرونز المذهب يرجع عهده الى القرن التاسع ، وهو محفوظ الآن بالمتحف البريطانى وعليه بالخط الكوفى «بسم الله» ؛ وفى المتحف البريطانى أيضاً عملة ذهبية ضربها الملك أوفـا Offa الذى حكم مرسية من سنة ٧٥٧ إلى ٧٩٦ ، وهذه العملة نقلها الملك المذكور عن دينار عربى ضرب سنة ٧٧٤ فنقل فيما قلّده التاريخ الهجرى والعبارة العربية المكتوبة عليه ، ولا نشك أنه فى الحالتين لم يفقه العمّال الغربيون معنى الكتابة العربية ، فنقلوها كزخارف فحسب ، وقلدهم فى ذلك كثيرون من بعدهم

وقد كان للخزف الاسلامى أثر كبير فى تطور صناعة الخزف فى أوربا ، وقد كان الغربيون ينسبون اللونين الأزرق والأبيض الصينى فى هذه الصناعة إلى بلاد الشرق الأقصى ، ولكن الحقيقة أن الصينيين كانوا يسمون هذا اللون الأزرق بالأزرق الاسلامى ، لأنهم أخذوه عن إيران الاسلامية فى القرن الخامس عشر

ومن المعروف أن صناعة الخزف ذى البريق الذهبى lustre قد ارتقت فى اسبانيا رقياً عظيما ، فكانت مصانعها تشـتغل لحساب كثير من الباوات والكرادلة والأسرات النبيـلة فى اسبانيا والبرتغال وإيطاليا وفرنسا ، ويروون أن الكردينال اكسيمينز قال عن هؤلاء الصناع « الكفرة » : « ينقصهم إيماننا وتنقصنا صناعاتهم »

وقد ظلت صناعة الخزف الاسبانى العربى hispano-maurespue فى الأندلس حتى القرن السادس عشر ، وتعلمها الايطاليون فى القرن الخامس عشر ، فتأثروا فى الصناعة والزخارف والأشكال بما كانوا يستوردونه من اسبانيا ، وأصبح أنموذجاً للصـناع فى Faenza و Urcino و Deruta ، وأطلق على هذه المصنوعات اسم مايولـكا majolique نسـبة الى جزيرة مايوركا من جزائر البليار الاسبانية

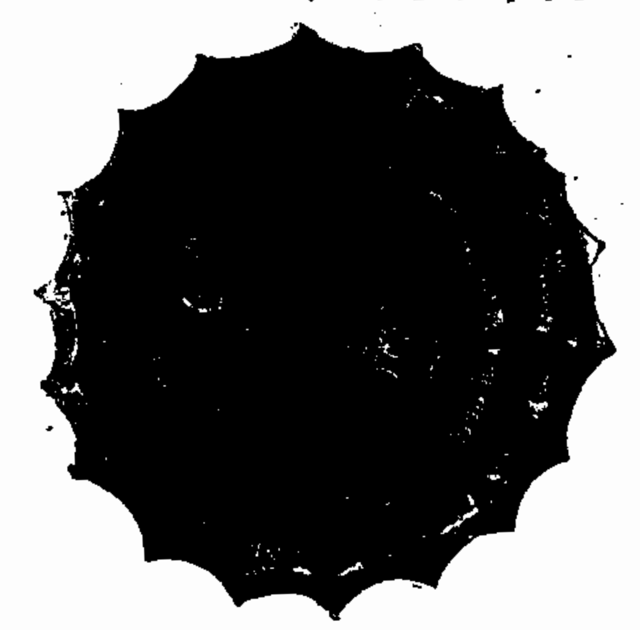
هذا وقد وصل الى الفنون الغربية من إيران وتركيا رسوم بعض الزهور التى لم تكن معروفة فيها حينئذ إلا بفضل رسومها على الخزف الاسلامى الوارد من الشرق الأدنى منذ القرن الرابع عشر

ولم يكن أثر صناعة المعادن الاسلامية فى أوروبا بأقل من أثر صناعة الخزف ؛ ولن يستغرب ذلك من يعرف ما وصلت اليه هذه الصناعة من التقدم فى عصر الفاطميين والماليك ومن قرأ

ما دونه المقريزى عن كنوز المستنصر بالله

ومما أخذه الأوربيون عن الشرق الاسلامى الاسطرلاب ، وهو آلة فلكية لقياس بعد الكواكب . اخترعها الأغريق وحسّنها بطليموس الجغرافى ثم علماء الفلك من المسلمين ، حتى أخذها عنهم علماء الغرب فى القرن العاشر . وفى المتحف البريطانى أقدم إسطرلاب عليه تاريخ صنعه أحمد ومحمود ابنا ابراهيم الاسطرلابى الاصفهانى سنة ٩٨٤ ، وفى المتحف نفسه اسطرلاب انجليزى تاريخه سنة ١٢٦٠ — وقد ظل البحارة يستخدمون الاسطرلاب فى مراقبة الجو وشؤون الملاحة ، حتى خلفته اختراعات أخرى فى القرن السابع عشر

وقد كان للأوربيين فى القرون الوسطى نوع من أوانى المياه كانوا يستعملونه فى غسل أيديهم قبل الأكل وبعده ، وأطلقوا عليه اسم aquamaniles ولا ريب أن صناعته متأثرة بما كان عند المسلمين من أوانٍ مماثلة على شكل طيور أو حيوانات من البرونز والنحاس ، ولعلّ أحسن مثل مكبّر لتلك الأوانى — وإن كان عظم حجمه يفرقه عنها — هو ذلك العقاب النحاسى الكبير المحفوظ الآن بالكامبو سانتو بمدينة بيزا فى إيطاليا ، والذى يظن أنه من عصر الفاطميين بدليل ما عليه من نقوش كوفية وزخارف هندسية ، وصور حيوانات وطيور ، وليس معروفاً من الذى نقله إلى ايطاليا ، ولا فى أى المناسبات كان ذلك



طست من البرونز من صناعة البندقية فى القرن الخامس عشر وهو محفوظ الآن بدار الآثار العربية بالقاهرة

وقد صنع المسلمون الثريات والأوانى والصناديق والكراسى والتنانير والمباخر من النحاس المكفّت بالفضة والذهب ، وكثر الاقبال على هذه التحف فى أوروبا ، وخاصة بعد أن عظمت تجارة الجمهوريات الايطالية فى الشرق منذ الحروب الصليبية ، وبلغت أوج عزها فى القرن الخامس عشر

والواقع أن اضمحلال هذه الصناعة بدأ فى الشرق منذ القرن الخامس عشر بعد ظهور المغول وغارة تيمورلنك على دمشق سنة ١٤٠١ ، ولكن المدن الايطالية وخاصة البندقية ورثتها عن الشرق ؛ وظهرت فى المدنية الأخيرة مدرسة من رجال الفن عملت على التوفيق بين ذوق الغربيين فى عصر النهضة ، وبين الصناعة والزخارف الاسلامية . ومن المعروف أن صنّاعاً من الشرق اشتغلوا بصناعات أجدادهم فى البندقية وجنوه وبيزا وفلورنسا . وفى المتاحف والمجموعات الأثرية أمثلة كثيرة من التحف الفنية النفيسة المصنوعة فى ايطاليا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، والتى تشهد بحسن الذوق وجمال الزخرف ودقة الصناعة . هذا ولا يفوتنا الاشارة الى ما فى اللغة الايطالية وغيرها من اللغات الأوربية من الألفاظ الاصطلاحية المنسوبة الى المدن الاسلامية فى صناعة المعادن كدمشق وبلاد العجم . وكان لصناعة الزجاج المموه بالمينا شأن كبير عند المسلمين كما يتجلى من مجموعة المشكاوات النفيسة المحفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة ، والتى يرجع عهدها الى القرنين الرابع عشر والخامس عشر

وقد تقدمت صناعة الزجاج فى البندقية منذ القرن الثالث عشر تقدماً كبيراً ، وبدأ البنادقة منذ القرن الخامس عشر يقلدون صناعة الزجاج عند المسلمين ، فما لبثوا أن برعوا مثلهم فى تمويه الزجاج بالمينا ، وانتشرت هذه الصناعة من البندقية الى غيرها من المدن الأوربية ، وظهرت زخارف وطرز جديدة دون أن تزول القرابة بينها وبين النماذج الاسلامية الأولى

أما أساليب المسلمين فى نقش الخشب وزخرفته وتطعيمه ، فقد ظهر تأثيرها فى فنون البلاد الأوربية التى كان لها بالعرب اتصال مباشر كالأندلس وجنوب فرنسا وصقلية ، ولكن هذا التأثير لم يكن كبيراً ، لأن هذه البلاد لم تكن أحوالها الجوية تستدعى ما اضطر اليه المسلمون من استعمال طريقة المربعات بله

ان رسم الخطوط والزخارف الهندسية لم يكن ليلعب فيها الدور الكبير الذى لعبه فى بلاد الاسلام

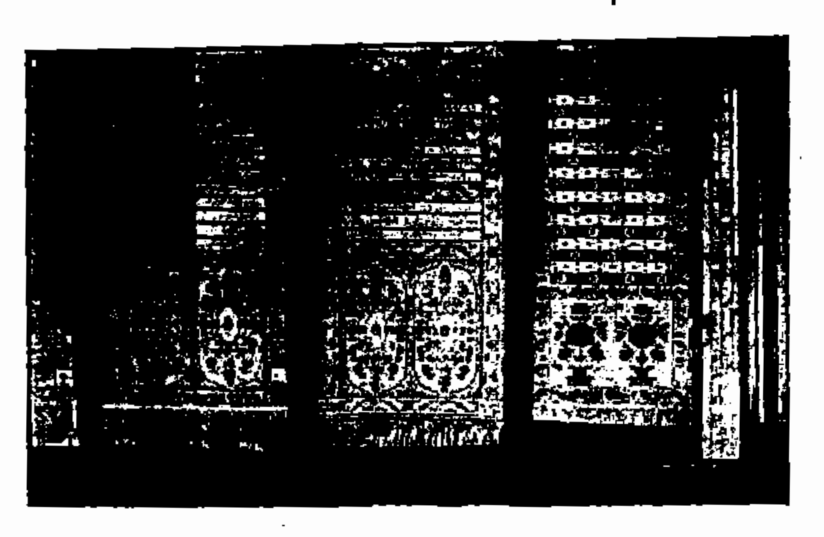


مشكاة من الزجاج المموه بالمينا من صناعة البندقية
وعليها كتابات باسم السلطان قايتباى

وكذلك قلد البنادقة صناعة التجليد الاسلامية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ونقلوا بعض أساليبها ، ونقلها عنهم غيرهم من صنّاع الغرب ، فلا عجب إن وجدنا حتى الآن فى صناعات التجليد الأوربية المختلفة كثيراً من تفاصيل الصناعة الاسلامية وزخارفها . ومعروف أيضاً أن بعض المجلدين المسلمين نزحوا إلى البندقية وعلّموا البنادقة اختراعات المسلمين فى هذا الميدان. ولا يزال « اللسان » المعروف فى صناعة التجليد العربية موجوداً فى تجليـــد بعض الكتب الأوربية ، ولا سيا كتب المحاسبين وأصحاب المصارف . ومما اشتهر به المسلمون فى الأندلس وصقلية صناعة الصناديق من العاج ، وفى المتاحف أمثلة عديدة منها ، وبينها وبين أمثالها من صناعة أوربا فى القرون الوسطى قرابة تنبئ عن تأثير الصناعة الاسلامية

بقى أن نتحدث قليلاً عن المنسوجات فى البلاد الاســلامية وعن أثرها الكبير فى صناعات النسج الأوربية ولسنا نجهل أن صناعة النسج كانت زاهرة فى فارس ومصر وسورية قبل الفتوح العربية ، ولكن تعضيـــد الخلفاء والأمراء ، وتولى الحكومة إدارة المصانع ، وعادة الخلع التى كان يمنحها الملوك وأولو الأمر ، كل هذا جعل الصناعة تخطو فى سبيل الكمال خطوات واسعة ، وكثر الاقبال على المنسوجات الاســلامية وتهافت على شرائها التجار فعمت شهرتها أوربا فى العصور الوسطى ، وأصبحت أكثر أنواع المنسوجات فى ذلك العهد تحمل أسماء شرقية أو تنسب إلى مدن إسلامية . ولما رأى التجار ذلك هب كثير منهم لانشاء المصانع فى أنحاء أوروبا المختلفة لمنافســة مصانع الشرق الأدنى والأندلس ، وكان العرب قد أقاموا فى صقلية مصانع شهيرة للنسج ظلت عامرة بعــد أن تقوض سلطان المسلمين فى الجزيرة ، فتعلم الايطاليون فى هذه المصانع أسرار النسج الاسلامى ودقائقه ونقلوه إلى بلدان إيطاليا المختلفة ، وحفلت المنسوجات الحريرية الايطالية فى القرن الرابع عشر بالزخارف الشرقية حتى الكتابات العربية منها

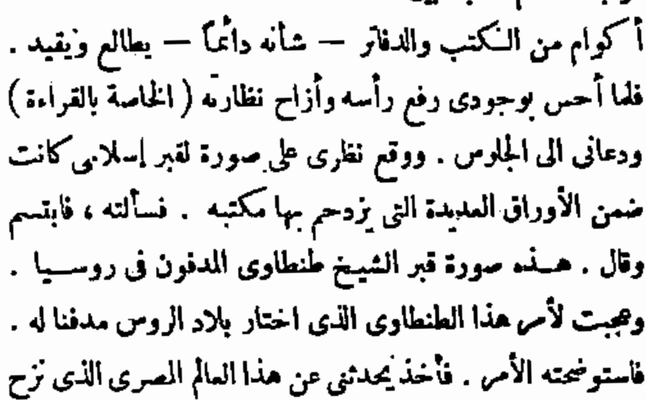
وبدأ النساجون الأتراك والايطاليون منذ القرن السادس عشر يتنافس كل منهما الآخر ويقلّده ، حتى لقد يصعب أحياناً التفرقة بين مصنوعاتهم ؛ وظهرت فى الأسواق بعد ذلك أحزمة من القماش من صـــناعة أوروبا على الطراز الشرقى وأطلق عليها اسم الأحزمة البولونية نسبة إلى بولندة حيث كثرت صناعتها



أحزمة من النسيج من صناعة بولندا على الطراز الشرقى

وكان السجاد أيضاً مما أخذه الأوربيون عن الشرق منذ القرن الرابع عشر ، فتعلم الصناع الغربيون صناعته من المسلمين واحتفظوا مدة طويلة بالأساليب العربية فى زخارفه

العلامة المستشرق
كراتشكوفسكى
للأستاذ محمود تيمور



فى عصر يوم من الأيام من نحو عشرة أعوام ذهبت لزيارة المرحوم والدى — كما كنت أفعل دائماً — بمنزله الخاص بالزمالك حيث كان يسكن وحيداً بين كتبه معتزلاً العالم . دخلت عليه فى حجرة عمله فوجدته أمام مكتبه بين أكوام من الكتب والدفاتر — شأنه دائماً — يطالع ويقيد . فلما أحس بوجودى رفع رأسه وأزاح نظارته (الخاصة بالقراءة) ودعانى الى الجلوس . ووقع نظرى على صورة لقبر إسلامى كانت ضمن الأوراق العديدة التى يزدحم بها مكتبه . فسألته ، فابتسم وقال . هــذه صورة قبر الشيخ طنطاوى المدفون فى روســيا . وعجبت لأمر هذا الطنطاوى الذى اختار بلاد الروس مدفنا له . فاستوضحته الأمر . فأخذ يحدثنى عن هذا العالم المصرى الذى نزح الى روسيا فى العصر الماضى ليدرس اللغة العربيــة وآدابها فى جامعة بطرسبرج — كما كان اسمها فى ذلك العهد — وكيف أقام فيها حتى وافاه الأجل فدفن بها . ثم كيف قام اليوم من بين الأساتذة المستشرقين من يعنى بهذا العالم المصرى فيحقق أمره ويؤلف رسالة عنه تخليداً لذكراه

واستهوانى هذا الحديث ، وجعلت أنظر إلى الصورة وأنا معجب نخور بهذا الأستاذ المستشرق الذى انبرى لعالم من علمائنا المنسيين بنشر حياته على الملأ ويشيد بذكراه . فينشر معه صفحة من صفحات تاريخنا المغمور ويشيد بذكرى بلادنا بين أصدقائنا البعيدين . ورفعتُ رأسى ونظرت إلى والدى مستفهما . فقرأ فى عينى ما يجول بخاطرى وقال :

— إن صاحب هذا البحث هو الأستاذ كراتشكوفسكى الروسى

فى هــذه اللحظة أحببت الأستاذ كراتشــكوفسكى وشعرت فى صميم قلبى بأنه ليس غريبا عنى . وشاهدت صورته فيما بعــد فراعنى منها مسحة الوقار المنطبعة على محياه ، وذلك الأشماع العجيب الذى يشع من عينيه — إشعاع الطيبة والأخلاص . واتصلت بالأستاذ عن طريق المراسلة ، فعرفت فيه رجلاً ذا خلق متين وعزيمة صادقة وأدب جم ، فقد وهب حياته منذ نحو ثلاثين عاماً لخدمة اللغة العربية وآدابها . فلم يهن ولم يتراجع بل ثابر وثابر حتى امتلك ناصيتها وتبحر فيها ، فأصبح علماً راسخاً من أعلامها ، وقرماً من قواها المتيدة

وإنى لا أنسى أول خطاب جاءنى من الأستاذ ، فقد وقفت أمامه حائراً مبهوتاً : خط عربى جميل ونظيف عائل فى وضوحه

وأما أثر المسلمين فى النقش والتصوير الأوربى فيكاد لا يستحق الذكر ، وما نقله الغرب فى هذا الميدان من أساليب فى تصوير الحيوان ليس إسلامياً فى جوهره ؛ وإنما يرجع الى الفنون القديمة فى الشرق الأدنى ؛ وليست لدينا أمثلة لمصورين مسلمين اشتغلوا فى أوربا فى القرون الوسطى ، اللهم إلا أولئك الذين عملوا فى بلاط روجر الثانى ملك صقلية فى أوائل القرن الثانى عشر لنقش بيعة فى بالرمو تعرف باسم الكابلاّ بلاتينا

هذا وقد أثرت الزخارف الاسلامية على الزخارف فى شمال أوربا ؛ ولا عجب فقد كان هناك اتصال بين أمم الشمال وبين الشرق الاسلامى ، وكان كلاهما يناهض أمم أوربا الوسطى والجنوبية ، بيد أن هذه الشعوب الجرمانية الشمالية لم تكن فقدت تماماً ذكرى تجوالها فى آسيا قبل أن تغزو أوربا ويسير بعضها حتى يصل الى شمال أفريقيا

ولا يسعنا أن نختم هذا المقال قبل الاشارة الى الأثر التركى الذى نراه فى كثير من زخارف أمم البلقان وسكان جزائر بحر الأرخبيل ، فقد كان استيلاء تركيا على هذه الأقاليم وحكمها إياها قروناً من الزمان أكبر عامل على طبع فنونها والحياة الاجتماعية فيها بطابع شرقى لم يزل كله بعد

زكى محمد حسن

وتنسيقه خطوط الآلة الكاتبة . تسوده روح لطيفة من سلامة الذوق في التعبير والبساطة والهدوء . كل ذلك في سلاسة عجيبة وصفاء غريب . وغمرني شعور لطيف فيه شيء من الزهو لوجود مثل هذا الصديق الكبير لنا - معشر العرب - في بلاد نائية قد وقف حياته على خدمة آدابنا وإعلاء كلمتنا

وازداد اتصالي بالأستاذ فتوالت الرسائل بيني وبينه . وأهدى إلى كثيراً من مؤلفاته بالروسية ، ومضت الأعوام ومعرفتي بالأستاذ تزداد اتساعاً . وكلما عرفت عنه شيئاً جديداً قويت محبتي له وعظم تقديري إياه

بدأ الأستاذ دراسته للعربية وبعض اللغات السامية الأخرى كالحبشية والعبرية في جامعة بطرسبرج عام ١٩٠٨ . ثم رحل إلى الشرق فزار مصر وسورية ، وأقام فيهما أكثر من عام انكب أثناءه على دراسة الأدب العربي القديم والحديث . واهتم بالشعر وعلم البيان بنوع خاص . وما إن عاد إلى روسيا حتى أخذ ينشر مقالات عن الأدب العربي . وظهر له بحث مستفيض عن القصة التاريخية في الأدب الحديث وهو بحث نقدي تحليلي عن روايات جورجي زيدان ويعقوب صروف وفرح أنطون وجميل مدور . (صاحب كتاب حضارة الأسلام في دار السلام) وتوالت بعد ذلك أبحاثه القيمة . ومن أعماله المشهورة اصداره ديوان أبي الفرج الوأواء الدمشقي باللغة العربية مع ترجمة روسية ومقدمة مسهبة عن الشعر في العصر العباسي تعد من أنفس ما كتبه العلماء في ذلك الموضوع ؛ كذلك يجب ألا ننسى بحثه التاريخي عن حياة الشيخ طنطاوي ، وهو بحث فذ مبتكر حقق فيه بطريقته العلمية المعروفة كثيراً من النقط الغامضة التي تكتنف حياة هذا العالم المصري (المنسي) . ومن أعماله الهامة إصداره كتاب البديع لابن المعتز باللغة العربية مع مقدمة للكتاب بالأنجليزية ، وهذا الكتاب يعد من أنفس الكتب التي عالجت علم البديع في الأدب القديم . هذا خلاف رسائله الأخرى التي والى وبوالى إصدارها ، وآخر ما صدر له ترجمة بالروسية لكتاب الأيام للدكتور طه حسين ، مع مقدمة عن المؤلف وتعليقات عن الكتاب

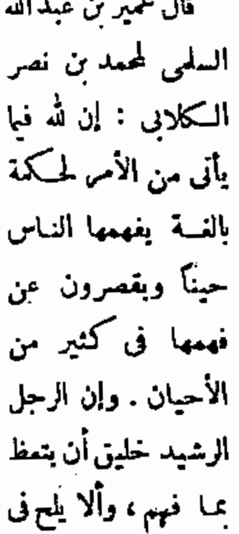
أكتب هذه الكلمة الصغيرة بمناسبة الاحتفال بتكريم الأستاذ في روسيا أحييه فيها أصدق تحية ، معبراً له عما يكنه العالم العربي عامة والأمة المصرية خاصة من عواطف الولاء والشكر له . فان رجلاً قصر حياته على نشر ثقافتنا العربية في العالم الغربي ، وأوسع لنا الطريق لنتبوأ مكانتنا بين آداب الأمم العالمية لجدير بأن يحتل في قلوبنا أكبر مكانة

محمود تيمور

على هامش السيرة

نزيـــل حمص

للدكتور طه حسين



قال عمير بن عبد الله السلمى لمحمد بن نصر الكلابى : إن لله فيما يأتى من الأمر لحكمة بالغة يفهمها الناس حيناً ويقصرون عن فهمها فى كثير من الأحيان . وإن الرجل الرشيد خليق أن يتمظ بما فهم ، وألا يلح فى تأويل ما لم يفهم ، وأن يطمئن قلبه إلى أن حكمة الله بالغة ، وإلى أن قضاءه منتهٍ إلى الخير دائماً

قال محمد بن نصر لصاحبه : هو ذاك ، وما أظن أن أحداً منا ينكر ذلك أو يمارى فيه فما تحدّثك به ؟ وما هذا التفكير العميق الذى أرى آثاره بادية فى وجهك ؟ وكان هذان الرجلان من فتيان قيس ، شديدى البأس ، قد ملأ قلبهما إيمان قوى بالله ، وحفاظ قوى للعرب ، واعتزاز قوي بالنفس ، وحب قوى للجهاد . وكانا قد مضيا مع الصائفة غازيين حتى بلغا ثغراً من ثغور الروم ، فأمعنا فى الغزو ولقيا فيه من الجهد والشدة ، واحتملا فيه من المشقة والبلاء شيئاً عظيماً ، لم يزدهما إلا إيماناً على إيمان ، وحفاظاً إلى حفاظ ، وحباً للجهاد إلى حبهم القديم للجهاد ، وكان الله عز وجل قد قضى لهما أن يعودا من هذه الغزوة موفورين ، فلما بلغا مأمنهما مع الجيش من بلاد المسلمين نذرا لئن مد الله فى حياتهما حتى ينقضى الشتاء ، وتستأنف الصائفة من قابل غارتها على بلاد الروم ليكونن لهما فى هذه الغارة بلاء ، وليضمن كل واحد منهما نفسه فى مقدمة الجيش المغير ، وكانا قد أزمعا من أجل ذلك ألا يبعدا فى الرجوع إلى موطنهما ، وأن ينفقا فصل الشتاء فى مدينة من مدن المسلمين هذه المنبثة فى الشام ، والتى ترابط فيها الجنود ، قد قسمت بينها تقسيماً ، ووزعت عليها توزيعاً ، ولم يكونا من أصحاب الديوان فى جند من أجناد الشام ، وإنما كانا رجلين قد باعا أنفسهما من الله وتطوعا فى الجهاد ، وأقبلا يبتغيان المثوبة ، فلحقا بالصائفة فيمن يلحق بها من المتطوعين ؛ ولم يصرفهما عن حمص أنها لم تكن للمضرية داراً ، وما يريدان إلى المضرية أو إلى اليمنية ، وهما إنما يمران بهذه المدينة مروراً ينتظران أن ينقضى فصل من فصول العام ويقبل فصل آخر ليستأنفا نشاطهما وليقبلا على ما يبتغيان من ثواب الله مجاهدين ؟

فلما استقر بهما المقام فى حمص أياماً وأسابيع أخذا يدوران فيها ويتعرفان بعض أمرها ، ويسمعان إلى ما كان يجرى على ألسنة أهلها من بعض الحديث . وقلما كان أحدهما يخرج منفرداً ، إنما كانا فى أكثر أوقاتهما متلازمين كأن ما دفعهما إلى الهجرة من أوطانهما قد جمع بين نفسيهما فى الجهد والبأس ، كما جمع بين نفسيهما فى الرخاء واللين . فقلما كانا يفترقان أثناء الغارة على اختلاف الظروف وتباين الخطوب التى كانت تعرض للجيش وتلم بالمغيرين . وهما الآن لا يفترقان أو لا يكادان يفترقان ، وقد أظلهما الأمن وضمنتهما سلم لا يخافان معها شدة ولا بأساً ولا فراقاً . ولكنهما فى هذا اليوم لم يكادا ينفتلان من صلاة الغداة حتى فرقت بينهما حركة الناس وازدحامهم مسرعين كأن هناك أمراً ذا بال يروعهم ويدعوهم إلى الازدحام ويدفعهم إلى أن يشهدوا مشهداً يجب أن يشهده الناس . وقد دفع محمد بن نصر مع المزدحمين وأسرع مع المسرعين ، لم يكن له فى ذلك رأى أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن حمد ما أدركه من ذلك ، فمضى مع الماضين مختاراً لا كارهاً ، وحرص على أن ينتهى إلى حيث كانوا يريدون أن ينتهوا . وقد سمع فى أثناء ذلك ما سمع ، ورأى ما رأى ، وامتلأ قلبه بالعظات والعبر ، وشغل عقله بالتفكير المتصل العميق ، حتى إذا تفرق الناس وكلهم يملأ نفسه العجب عاد إلى صاحبه يحدثه بما سمع ويحدثه بما رأى ، ويبدأ حديثه بهذا الكلام الذى أوجزته لك آنفاً

فلما سأله صاحبه عما به قال : لقد شهدت اليوم أمراً عظيماً : شهدت جنازة رجل ملأ قلوب الناس حباً وبغضاً ، ورضى وسخطاً ،

وأثار فى نفوسهم كثيراً من الحفيظة ، بل حفيظة لا تنتهى ، وأثار فى نفوس الناس كذلك إعجاباً وإكباراً ، وأطلق ألسنة الناس بالذم الشنيع ، وأطلق ألسنة الناس بالثناء الكثير ، ورسم على وجوه الناس آثار الموجدة المنكرة ، ورسم على وجوه الناس كذلك آثار الاعتراف بالجميل ، ورسم على وجوههم بين ذلك ابتسامات فيها سخرية وازدراء ، وفيها عطف واشفاق ؛ ثم رأيت الناس يعودون من تشييعه إلى قبره ، وإن الحيرة لتملأ قلوبهم ، وإن الشك ليضطرب فى نفوس كثير منهم ، وإنهم على هذا كله ليقولون فيما بينهم مثل ما كنت أقوله لك منذ حين ، وإنهم على هذا كله ليظهرون الثقة بحكمة الله البالغة والاطمئنان إلى عفوه الذى ينال به من يشاء

قال عمير بن عبدالله : ما رأيت كاليوم رجلاً يؤثر التلميح على التصريح ، ويقصد إلى الغموض دون الوضوح ، فحدثني بحديثك لا أبالك ولا تطل ؛ فما تعودت منك اطالة ولا املالاً . قال محمد بن نصر : فالله يعلم ما آثرت تلميحاً ، ولا اجتنبت تصريحاً ، ولا قصدت إلى غموض ، ولا تنكبت وضوحاً ، وإنما أصور لك نفسى كما أجدها ، وما أدرى كيف أتحدث إليك بهذا الحديث ، وما أعرف من أين آخذه . آخذه من مبتدئه أم آخذه من منتهاه ، أم آخذه مما بين ذلك ، فان كل موضع منه تملؤه العبرة والعظة ، وتظهر فيه هذه الروعة التى تتأثر لها القلوب ، وتفكر فيها العقول . إنه رجل لم يعرف الناس من أول أمره إلا أنه كان عبداً حبشياً لسيد من سادات قريش فى مكة ، هو جبير بن مطعم ، وكانوا يرونه فتى شديد البأس عظيم الأيد شجاعاً جريئاً ، يعمل لسيده فيما يعمل فيه الرقيق ، ولو أن الرق لم يعرض له لكان خليقاً أن يسود فى بلده وبين قومه هؤلاء السود . ولكن الرق عرض له كما عرض لكثير من أشراف الروم والفرس فألقاه إلى هذا الحى من قريش ، وفرض عليه ما يفرض على الأرقاء ، من الخنوع ، والخضوع ، ومن الذلة والهوان ، ومن العمل فيما لا يعمل فيه أصحاب النجدة والمروءة من الناس . وكان هذا الفتى ضيقاً بحياته أشد الضيق ، منكراً لها أعظم الانكار ، جامحاً حين يتاح له الجموح ، شامساً حين يتهيأ له الشموس ، لا يخفى بغضه للرق وطمعه فى الحرية مهما يكلفه ذلك من غضب سادته وزجرهم ، ومن اعناتهم له والحاحهم عليه بالاعنات . وكانت قريش قد لقيت من النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه جهداً شديداً يوم بدر ، وفقدت جماعة من ساداتها وأشرافها ، وذاقت الهزيمة المنكرة ، وذاقت فقد الأحباء ، وذاقت هذا الذل الذى يكره العرب أن يذوقوه ، ذل الموتور الذى لم يدرك وتره ؛ وكانت قريش تتجهز لادراك الوتر والأخذ بالثأر ، وشفاء حزازات النفوس ، وارضاء قتلاها من أهل القليب ؛ وكان جبير بن مطعم قد فقد عمه طعيم بن عدى يوم بدر ، وكان حريصا على أن يثأر به وينتقم له من قاتله . ولم يكن قاتله إلا حمزة ابن عبد المطلب عم النبى ، وأسد الله ، وشجاع قريش ، وحامل لواء المسلمين لأول ما عقد اللواء . قال عمير بن عبد الله : فانك إنما تتحدث عن وحشى ، فما خطبه وما الصلة بينه وبين هذا الرجل الذى شهدت جنازته منذ اليوم ؟ قال محمد بن نصر : فان هذا الرجل الذى شهدت جنازته منذ اليوم هو وحشى نفسه . قال عمير : ليتنى عرفت مكانه من هذه المدينة حين أقبلت اليها إذن لسعيت اليه ، ولسمعت منه ، ولسألته عن بلائه ذلك المنكر . قال محمد بن نصر : وكذلك قلت لنفسى أنا منذ حين ، ولكنى رأيت من رآه ، وسمعت ممن سمع منه ، ولقد رأى من رآه رجلاً كان خليقا أن يرى ، وأن الذين سمعوا منه ليتحدثون من أمره بالأعاجيب . قال له سيده حين أجمعت قريش أمرها : إنى أرى شوقك إلى الحرية وكلفك بها ، وإسرافك فى الجموح ، وامتناعك عما لا ينبغى لمثلك أن يمتنع عنه من الطاعة والأذعان لمواليه ، وإنى أعرض عليك هذه الحرية التى تهواها ، فان شئت فأد ثمنها ، وما أظنك تفعل . قال العبد : فقد شئت أن أؤدى إليك ثمن هذه الحرية لو أنى أستطيع أن أبلغه فى جو السماء أو فى أقصى الأرض . قال جبير : فانه أدنى إليك من ذلك ، إنه فى يثرب ، فاذهب مع قريش فى حربها هذه التى تتجهز لها ، ثم عد إلى بمقتل حمزة وأنت بعد ذلك طليق

قال العبد : أما إنى ذاهب مع قريش فعائد اليك بمقتل صاحبك أولاق من دون ذلك الموت فهو أهون على وآثر عندى من حياة الرقيق

ولقد سمع الناس منه حديثه عن ذلك البلاء المنكر الذى أبلاه يوم أحد ، وما أرى إلا أنك تعرفه كما أعرفه ، فقد أخذ يرقب حمزة ، وهو يقوم من المسلمين مقام الأسد يذود عن أشباله ، يهز الجيش بسيفه هزاً ، والناس يرونه من بعيد كأنه الجمل الأورق ، فتمتلئ قلوبهم لمنظره رعباً ، وينصرفون عن موقفه انصرافاً ،

وهو يتحداهم ويدعو فرسانهم ومغاويرهم . والعبد قائم قد استتر عنه بشجرة ينظر اليه ويرتقب غفلته ، وحمزة لا يراه ولا يحس بمكانه . فلما أمكنته الفرصة هز حربتـه حتى رضى عنها ، ولم يكن له بغير الحربة من السلاح علم ، فلما تهيأت له الرمية رمى ، وإذا الحربة تصيب حمزة فى مقتـل فيخر صريعاً ، والعبد قائم مكانه لا يريم ، يرقب أسد الله صريعاً بعد أن كان يرقبه جائلاً فى الميدان ؛ فلما استوثق من أن صريعه قد قضى أقبل يسعى اليه ، فانتزع حربته ثم عاد إلى المعسكر فأقام فيه . لم يصنع قبل مقتل حمزة شيئاً ، ولم يصنع بعد مقتل حمزة شيئاً ، وما يعنيه من أمر هذه الحرب بين قريش والأنصار ، وإنمـا أقبل يشترى حريته بمقتل هذا الرجل العظيم ؛ وقد ظفر بما أراد ، فانتظر تقول قريش إلى مكة ، ولم يشهد ما كان من تمثيل هند وصاحباتها بعم النبي ، ولم يشهد ما كان من حزن النبي حين رأى عمه فى منظر لم ير (صلى الله عليه وسلم) قط منظراً أوجع له وأثقل عليه منه . ولم يسمع العبد نذير النبي حين أقسم لئن أظفره الله على قريش ليمثلن منهم بسبعين مثلة لم تعرفها العرب قط ، ولم يعلم العبد أن النبي قد رُد عن ذلك رداً ، وأن الله قد أنزل فى ذلك قرآناً ، وأن النبي قد تلا قول الله عز وجل : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »

ولم يعلم العبد أن النبي قد اضطر إلى أن يكفر عن يمينه ، ثم لم يعلم العبد أن النبي قد عاد الى المدينة محزوناً أسفا ، فلما سمع نساء بنى الأشهل يبـكين قتلاهن قال : ولـكن حمزة لا بواكى له ! وسمع ذلك منه الأنصار ، فأرسلوا نساءهم يبكين حمزة عند بيت النبي ، وخرج نساء النبي فبـكين معهن حتى ردهن النبي داعيا لهن ، ثم أصبح فنهى عن البكاء

لم يعلم العبد من هذا شيئاً ، وماذا يعنيه من هذا ، إنما كان يريد حريته وقد بلغها ، وماذا صنع البائس بحريته ؟ لم يعـد الى بلده ، وكيف سبيل العودة اليها ؟ ولم يسد فى مكة ، وكيف السبيل الى السيادة فيها ؟ إنما عاش بين قريش حراً كالعبد ، وطليقاً كالأسير . ثم لم يعلم العبد بشيء من هذا ، ولـكنه علم ذات يوم أن جيوش المسلمين مقبلة على مكة ، ورأى ذات صباح جيوش المسلمين تدخل مكة ، واستيقن العبد أنه مقتول إن ظفر به المسلمون ، ففر وانطلق فى الأرض يلتمس لنفسه مأمناً فلا يجده . هؤلاء المسلمون ينتصرون على العرب يوم حنين ، وهذه أرض العرب كلها تذعن للنبي ، فأين الملجأ من الله إلا الى الله ؟ لقد آوى العبد الى الطائف وقاوم فيها المسلمين ما قاومهم أهلها ، ولـكن وفد الطائف يتهيأ للسفر الى المدينة ، وما هى إلا أيام حتى تذعن الطائف لمـا أذعنت له مكة . والآن يفكر العبد فى مهاجرة البلاد العربية كلها . ولـكن كيف السبيل الى الهجرة ؟ لقد أُخذت عليه سبيل الحبشة ، وأُخذت عليـه سبيل الروم ، وانبسط سلطان النبي على الشمال والجنوب . لقد كانت الهجرة ميسورة قبل الآن . فأما الآن فقد تقطعت من دونها الأسباب

هنالك يلقى بعض الناس فى نفس العبد أن النبي لم يقتل قط رجلاً جاءه مسلماً ؛ وأن النبي ذات يوم لجالس بين أصحابه ، وإذا رجل قائم على رأسه يشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ وينظر النبي فيرى العبد فيعرفه ، ولـكن الله قد عصم دمه بالاسلام ، وما قتل النبي قط رجلاً جاءه مسلماً ، وإن كان قد قتل عمه حمزة . فيأمر النبي ذلك العبد أن يجلس ويحـدثه كيف قتل عمـه ؛ وهذا العبد قد جلس وهو يعيد على النبي بلاءه المنكر ، وحديثه يملأ قلب النبي حزناً ولوعة وأسى ؛ والعبد بين يديه ، لو أراد لأرضى حزنه ولوعته بمصرعه ، ولـكن أنى له ذلك وقد اعتصم العبد بالاسلام ؟

وقد آثر النبي أن يعفو ، وآثر أن يصبر . أليس قد عفا عن هند وقد مثّلت بعمه ولاكت كبده ، وجدعت أنفه وأذنيه ؟ فما له لا يعفو عن عبد مأمور ؟ ولـكنه قال للعبد : غيب وجهك عنى ، فجعل العبد لا يرى رسول الله إلا تنكب طريقه واجتنب لقاءه

وعاش وحشى فى المدينة حراً كالعبد ، وطليقاً كالأسـير ، وجعل الندم يحز فى قلبه حزاً ، ويمزق فؤاده تمزيقاً ، يؤرقه إذا دنا الليل ، ويعذبه إذا أقبل النهار

ولـكن العرب يرتدون ، ويذهب خالد بن الوليد لقتـــال مسيلمة ، وهذا العبد يذهب معه ليقاتل فى سبيل الله بعد أن كان يصد عن سبيل الله

وهذا العبـــد يهز حربته ذات يوم كما هزها يوم أحد ، ويتهيأ لرميها كما تهيأ يوم أحد ، ثم يطلقها كما أطلقها يوم أحد ، وإذا

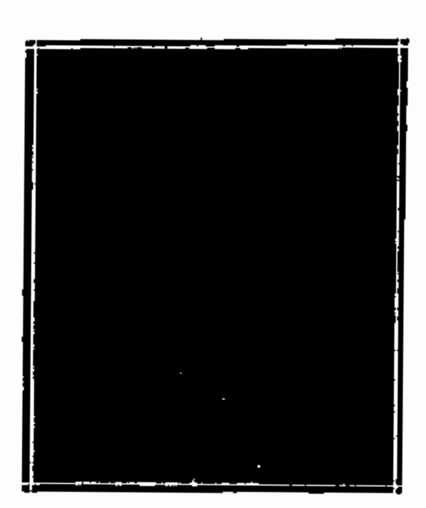
هى تصيب رجلا فتصرعه ، واذا الحربة التى قتلت حمزة قد شاركت فى قتل مسيلمة ، واذا وحشى قد قتل خير الناس ، وقتل شر الناس . وقد عفا النبى عن قاتل عمه ، وعفا المسلمون عن قاتل أسد الاسلام ، ولكن نفس وحشى لم تعف عن وحشى ، ولكن دم مسيلمة لم يغسل من نفسه دم حمزة . وهذا العبد الحر يمضى مع جيوش المسلمين غازياً فيقاتل الروم وينتصر مع المنتصرين ، ويستقر مع المستقرين فى مدينة حمص هذه . ولكن بلاءه أيام الردة وبلاءه أيام الفتح ، وما احتمل فى هذا كله من جهد ، وما ناضل فى هذا كله عن الاسلام ، لم تغسل عن نفسه دم حمزة ، ولم تبرئ نفسه من الندم لمقتل حمزة ؛ ولم يبلغ الاسلام من قلب هذا الرجل ما بلغ من قلوب كثير من الناس فيمحو من قلبه ما قدم فى جاهليته ، واذا هو يستعين على الندم بالخمر ، واذا هو يشرب ويسرف فى الشرب ، واذا هو يُضرب فى الشراب فلا يمنعه الحد من معاودة الشراب ، واذا هو معروف فى أهل حمص بما قدم من خير وشر ، واذا هو معروف فى أهل حمص بسكره اذا سكر ، وبصحوه اذا صحا ، واذا هو يسكر حتى يصبح مخوفاً على من يدنو منه ، ويصحو حتى يصبح عاقلا حلو الحديث . والندم يلح عليه حتى يبغضه الى نفسه تبغيضاً ، ويصرفه عن الصحو صرفاً ، وكلما مضت عليه الأيام ازداد امعاناً فى الشراب ، والسن تتقدم به ، وجسمه يضعف شيئاً فشيئاً ، وعقله يذهب قليلاً قليلاً ، والندم ماثل مع ذلك فى نفسه ، ملم بداره ، يأخذه من كل وجه ، وهو لا يجد سبيلا الى الفرار منه إلا الى الشراب ، وهو يُضرب فى الشراب ، وقد ضعف وفنى فلا يحتمل الضرب فيموت . ونشهد جنازته اليوم

أرأيت أنى لم أكن ملحا ولا مؤثراً للغموض حين كنت أحدثك بما كنت أحدثك به من هذه المواطف المختلفة التى كانت تثيرها جنازته فى نفوس الناس . قال عمير : أشهد أن حكمة الله بالغة ، وأن الرجل الرشيد خليق أن يتعظ بما فهم من قضاء الله ، وأن يطمئن إلى عدل الله وعفوه إذا أشكلت عليه الأمور . قال محمد بن نصر : فانى لا أعرف شيئاً يغسل عن النفس اثمها وينقيها من السيئات كهذا الذى نحن فيه من جهاد عدو الله ما وجدنا الى هذا الجهاد سبيلاً

طه حسين

حول الهجرة

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى



تحتفل (الرسالة) اليوم بذكرى حادث كريم لم يكن بعد النبوة أعظم ولا أبعد أثراً منه فى تاريخ الاسلام بل فى تاريخ الانسانية . فلولا الهجرة ماظهر الاسلام ولا غلب على جزيرة العرب ، ثم على أهم مواطن نصف الكرة الشمالى من الأرض .

ولولا ظهور الاسلام ، وما استلزمه من جهاد فى سبيل الله ، وما أنزله الله من هدى يهدى به المجاهدين سُبُلَه ، لحُرم الانسان ذلك الهدى ، ولظل فى أموره موكولاً إلى نفسه ، لا يكاد فى السلم يقف عند حد فى طلب اللذة ، ولا يكاد فى الحرب ، كما تشهد الحرب العظمى ، يقف عند حد فى إتيان ما يظن أنه يكفل له النصر . فالعهد الذى كان فى الاسلام قبل الهجرة إنما هيأه الله ليؤدى بقدَر منه إلى الهجرة ، ثم إلى ما كان فى حياة الرسول بعد الهجرة . وهو إلى ذلك كان عهد تشريع من الله على يدى رسوله للناس فيما ينبغى أن يفعلوه إذا كانوا فى حالة من الضعف لا يملكون معها من أمورهم إلا القليل : يصابرون فى سبيل الله ويصبرون ما استطاعوا ، ويهاجرون إن استطاعوا بدينهم فى سبيل الله إلى حيث يمكنهم أن يقيموا دينهم آمنين ، فان أمكنتهم بعد ذلك قوة يستطيعون بها الدفاع عن دينهم ولو بالسلاح ، فقد وجب الدفاع . إنما عليهم فى كل ذلك ، مهما يكن الحال ، أن يستمسكوا بدينهم كما يستمسك الغريق بحبل النجاة

والعهد الذى كان فى النبوة بعد الهجرة كان ، فيما كان ، عهد تشريع من الله على يدى رسوله للناس فيما يجب عليهم وما ينبغى لهم فى حال القوة ، سواء أكانت قوة ناشئة قد قام حيالها الأعداء أم كانت قوة غالبة قد مكن الله لأهلها فى الأرض ، فلم تبق يد أعلى من أيديهم ، ولا كلمة تنافس كلمتهم فى الرفعة والسلطان .

وفيما بين هذين الحالين أحوال تتقلب فيها الأمم الناشئة ، لولا الهجرة ما عرف الانسان سنن الله فى مثلها ولا طريق الفلاح فيها

فالهجرة إذا شئت هى نقطة الانقلاب من الضعف إلى القوة لا فى تاريخ شعب فحسب ، ولكن فى تاريخ دين شاءت رحمة الله بالبشر أن يمن عليهم به ليعرفوا ما لم يكونوا لولاه ليعرفوه من سنن الله فى الانسانية بحذافيرها ، لا فيما يتعلق بالفرد فقط ، فقد كان فيما أنزل الله قبل الاسلام من دين ما يكفى لأن ينجو به الفرد مما يتهدد نفس الفرد من أخطار ، ولكن فيما يتعلق بالمجموع على الأخص ، أى فيما يتعلق بالانسان من حيث هو أمم وشعوب ، ثم من حيث هو جنس واحد ، أبدعه إلّه واحد ، وجعل طريق بلوغه أعلى غاياته التى قدرت له فى التعاون فى الله والاجتماع ، لا فى العزلة والافتراق

ولعل هذه الناحية هى الفرق الأكبر بين الاسلام وبين ما قبله من الأديان التى أنزلها الله . فالأديان قبل الاسلام هدى الله الانسان من حيث هو فرد ومن حيث هو جماعة منعزلة ؛ وبالاسلام هدى الله الانسان من حيث هو فرد ومن حيث هو جماعة منتشرة متصلة ، ثم من حيث هو جنس حياته ورقيه فى اتباع سنن الفطرة التى فطر الله الناس عليها وفطر عليها الكون . وكان عهد التشريع الالّهى للجماعة العامة هو ما بعد الهجرة ، وعهد التشريع للفرد كان فيما قبل الهجرة ، ثم فيما بعد الهجرة ضمن دائرة الجماعة . فكأن الله سبحانه حين أراد أن يكمل للانسانية دينها فى الاسلام ، ويجمع لها فيه الدين كله ، جعل الاسلام عهدين يكادان يتساويان : عهد الفرد قبل الهجرة ، وعهد الجماعة بعد الهجرة . فقبل الهجرة كان عهد التضحية فى سبيل الله من الناحية الفردية البحتة كما كان يحدث فى الأديان التى قبل ، كالنصرانية . وبعد الهجرة كان عهد تكون الجماعة وتطورها إلى جماعة كاملة تسير فى الاجتماعيات طبق الفطرة : قانونها كتاب الله ، ولا حكم فيها ولا سلطان عليها إلا لله . فتاريخ النبى صلى الله عليه وسلم يمثل تاريخ الأنبياء قبله فى شطره ، ويختص ويمتاز فى الشطر الآخر ، وبالشطر الآخر . فهو من مبدئه إلى منتهاه يمثل تاريخ ترقى الله بالانسان فى الدين ، كما يقولون إن تاريخ خلق الله الانسان يتمثل فى خلق الجنين

إن الانسان خارج دائرة الدين لايزال يتخبط فى الاجتماعيات الى الآن . قد استطاع فى عهده الحديث أن يتوصل إلى كثير من سنن الله فيما ليس بانسان ، أما سنن الله فى الانسان خصوصاً من الناحية الاجتماعية فلا يكاد يعرف منها شيئاً يقينياً ، وما يسميه علم الاجتماع ، على ضيق مداه ، أكثره آراء لاتزال تنتظر التمحيص . ومن عجيب لطف الله بالانسان أن وكله الى نفسه فيما لا يتعلق بالروح ، ولم يكله الى نفسه فيما يتعلق بالروح . وكله إلى نفسه فى العلوم الطبيعية فلم يرسل رسولاً يعلم الناس حقائق العلم ، وإن دلهم على طريق التوصل الى ذلك بأنفسهم فى كثير من آيات القرآن فى معرض التذكير والتعريف به سبحانه . لكنه لم يكله فى أمر الروح الى نفسه ، وإلا لقضى على أجيال كثيرة من الأرواح ، إن لم يكن على جميع أجيالها ، بالهلاك . ترك الانسان يتوصل بمجهوده وتجاربه الى سنن الله فى كل محسوس تستطيع أن تتناوله تجارب الانسان ، لكن ما لا تستطيع أن تتناوله التجارب مما يتعلق بنفس انسانية الانسان فقد اقتضت حكمة الله سبحانه ورحمته أن يتولاه هو من الانسان ، لا بتعريفه بتلك السنن كما نعرف أمثالها فى العلوم ، ولكن بتيسيره للأنسان الاستفادة من تلك السنن كما لو كان محيطاً بها ، خبيراً بطرق تطبيقها على نفسه وعلى مجتمعه . وما الدين إلا النظام العملى الكامل لحياة الانسان طبق الفطرة التى فطره سبحانه عليها . والفرصة بعدُ فسيحة أمام الانسان ليعرف قوانين تلك الفطرة بالبحث والنظر إذا شاء وإذا سلك اليها الطريق . لكن ليس سبيل ذلك التجارب يجربها الفرد فى معمله ، لأنه إن استطاع أن يخضع المادة والطاقة بل والخلية الحية فى معمله للتجربة فلن يستطيع أن يخضع الروح لمثل ذلك . وإن استطاع ذلك إلى حد لا يكاد يذكر فى امتحان الفرد ، فلن يستطيع ذلك إلى حد ما فى الجماعة . لا . ليس طريق الوصول الى سنن الله فى الاجتماعيات التجربة العلمية ، إنما سبيل ذلك النظر العلمى فى تاريخ الأنبياء ، وفى ما شرع الله بواسطة الأنبياء للناس . حوادث ذلك التاريخ وأحكام الله كما تبينها أفعال أنبيائه ، وكما تنطق بها كتبه المنزلة ، هى المادة التى يجب أن يُستخلص منها سنن الله فى الناس ، كما إن نتائج التجارب العلمية هى المادة التى يستخلص منها سنن الله فى غير الانسان . وكل الذى يتطلبه العلم فى هذا ، إذا قُدّر أن يتجه العلم هذا الاتجاه ، هو صدق المادة ؛ هو صحة حوادث التاريخ وصحة نسبة الأحكام . ولا أدرى إلى أى حد يمكن الاعتماد الآن على ما كان قبل الاسلام من ذلك ، إنما الذى أدريه أن ما كان فى الاسلام من ذلك ممكن

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

٩ـ قصـــة المـكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur

نالت غزاة المكروب

— ١ —



مات اسپلنزانى ، وجاء ثلث قرن من بعد وفاته وقف فيه البحث عن المكروب وقوفاً تاماً ، ونسى الناس تلك الأحياء واستصغروا أمرها ، واتجهوا بهمّهم إلى علوم أخرى كانت تخطو فى طريق التقدم خطوات سريعة

وكانت القُطُر البخارية قد أخذت تشق طريقها فى البلاد ، ضخمة دميمة ، تَسْعَل كالمصدور فتُفزع الخيل والبقر فى أوروبا وأمريكا . والتلغراف كاد يَهُمّ بالظهور . واختُرعت مكرسكوبات عجيبة ، ولكن لم يتقدم رجلٌ للتحديق فيها ليثبت للدنيا أن هذه المكروبات الضئيلة تستطيع أن تقوم من العمل النافع الجدى مالا تستطيعه تلك القاطرات المقعّدة الفظيمة — لم يتقدم أحد ليقول للناس ، ولو إيحاء وتلميحاً ، إن هذه الخلائق تستطيع قتل اللايين من البشر فى خفاء وسكون ، وأنها فى قتلها أكثر حصاداً من الجيلوتين ، وأبعد مدى من مدافع واترلو Waterloo

فى يوم من أيام أكتوبر عام ١٨٣١ ، بقرية من قرى الجبال بشرق فرنسا ، تجمهر نفر من أهل القرية على دكان حدّاد . وكان الفزع يبدو على وجوههم الشاحبة ، وكان الهلع يستبين فى أحاديثهم الخافتة ، وقد حوّلوا جميعاً وجوههم شَطْرَ الحدّاد بداخل الدكان . وإذا بطشيش يسمع كطشيش الشّواء ، وإذا بصراخ يعقبه من تباريح الألم مكظوم ، وإذا بطفل فى التاسعة يخرج من حافّة هذا الزحام هارباً إلى بيت أبويه وقد أخذ منه الرعب ما أخذ . أما الرجل المسكين الذى أنضج الحديد لحمه ففلاح يدعى نقولا Nicola ، لقيه فى الطريق ذئب هائج مسعور ، نزل على القرية يعوى عُواء الجنون ، ويُزبد فاه برُغاءٍ مسموم ، فهجم على صاحبنا فمزقه تمزيقاً . وأما الطفل الهارب فكان اسمه لويس بستور Louis Pasteur ، ابن دباغ فى أربوا Arbois ، وحفيد خادم عبْدٍ لكونت أدرسيه Count Udressier

ومضى على هذا المشهد أسابيع سقط فيها ثمانية رجال فريسةً لداء الكَلَب ، وعانوا منه ما عانوا من جفاف الحلْق ، وضيق الخِناق ، وجنون النفس ، وصرخوا طويلاً فترددت أصداؤهم فى أذن صاحبنا الطفل ، فارتاع فأسماه بعض القوم جباناً ، وانطبع فى ذاكرته أثر الكيّ الذى رآه وشمه فى دكان الحداد انطباع الحديد فى لحم ذلك الفلاح البائس

وسأل لويس أباه : « ما الذى يصيب الكلاب والذئاب بالجنون ؟ ولم يموت الناس بعضة منها ؟ » . وكان أبوه فى زمان مضى جاويشاً قديماً فى جيش نابليون ، فرأى عشرات الألوف من الناس تموت من الرصاص ، ولكنه لم يَدْرِ لِمَ يموت الناس من الأمراض . فكنت تسمع هذا الدبّاغ التقى يجيب ابنه السائل فيقول : « من الجائز يا بنى أن شيطاناً من الشياطين دخل جلد الذئب ، وإذا قضى الله لك بالموت فلا مَرَدَّ لقضائه » . هذا جواب ، لو تأمّلته لوجدته على بساطته كأحسن ما يجيب به أكثر العلماء حكمة ، وأعلى الأطباء أجوراً . ولم يكن أحد يعرف فى عام ١٨٣١ لِمَ يموت الناس من عضّة الكلب المسعور ، فأسباب هذا المرض كانت غامضة مجهولة

أنا لا أحاول أن أدخل فى روعك أن هـذا الحادث الذى وقع لـ«بستور» فى صباه كان السبب الذى حدا به فى رجولته

الاعتماد عليه كل الاعتماد . ممكن الاعتماد على ما ضبط وصحح من حوادث النبوة وأفعال الرسول وهو شىء كثير ، أما القرآن فهو المعين الذى لا يغيض ، والكنز الذى لا يفنى ، والكتاب الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

لكن العلم لن يستطيع الانتفاع بذلك أو يؤمن ، وأظن العلم يقترب شيئاً فشيئاً من الأعان

محمد احمد الغمراوى

إلى كشف سبب هـذا الداء وكشف علاجه . إذن لزاد هذا في جمال قصتنا ، وكان كذباً وبهتاناً . ولـكن الحق أن هذا الحادث راعه طويلاً ، ولزمته ذكراه الأليمة طويلاً ، وتفكر فيه طويلا . والحق أنه أحسّ ريحَ الشِّواء تصعد من لحم الفلاح الى أنفه إحساساً أشد ألف مرة ممن أحسوها ، وأنه سمع صراخه فنفذ في نفسه الى أغوار أبعد من أغوار الآخرين ممن سمعوها ، واختصاراً أريد أن أقول إن هـذا الصبي كان مجبولاً من تلك الطينة التي يجبل منها الفنّانون ، وان ذلك الفن الذي فيه عاون عليه يداً بيد في اخراج تلك المكروبات الى الوجود بعد ازوائها مرة أخرى بوفاة « اسپلنزانى » . ولا أحجم عن القول إن «بستور» في السنوات العشرين الأولى من حياته لم تظهر عليه شارة تنبيء عصيره بحاثاً كبيراً ، فانه قضاها طفلاً جلْداً على الشغل ، ذا عناية بما يعمل ، ولـكن عين الناظر المنقد لم تكن تقف عنده طويلا . وكان يقضي فراغه في التصوير ، فكان يصور النهر الذي يجرى بجوار المدينة ، وكان يصور أختيه فَيَثْبُتان له ساعات حتى تتصلب أعناقهما ، وتتوجع ظهورهما . وصور أمه صوراً قاسية ، ليس فيها من الملق شيء ، وليس فيها من الجمال شيء ، ولـكنها أشبهت أمه



بستور

وفي هـذه الأثناء أهمل الناس حيوانات « اسپلنزانى » الصغيرة حتى نسوها ، وقام العالم السويدى « لينيأس » Linnaeus يقسّم الأحياء ويبوّب أجناسها ، فيجعل لكل جنس جُذاذة ، ويجعل من الجذاذات فهرساً عظيما ، حتى إذا جاء الى تلك الأحياء الصغيرة ، رفع يديه يأساً منها ، قال : « إنها أحياء شـديد صغرها ، مختلط أمرها ، وستظل على انبهامها ، وإذن فلأضعْها في باب الأشتات الغامضة » . ولم تجد تلك الأحياء من يدفع عنها ، ويتحدث بالحسنى عنها ، غير ارنبرج[1] Ehrenberg ، ذلك الألماني الشهير ، ذو الوجه البض الملىء ، فانه في الوقت الذي لم يكن فيه يقطع المحيطات أو يُمنح الأوسمة والمكافآت ، كان يشتبك في مجادلات عقيمة عن هذه الحيوانات : ألها أمعاء كسائر الحيوان ؟ أهي حيوان كامل الأعضاء ، أم هي بعضٌ صغير من كل كبير ؟ أم هي ليست بحيوان قط ، بل نبات ؟

ظل «بستور» يكد في الدراسة ويُكبّ على القراءة ، وبدأت تظهر عليه وهو في كلية «أربوا» سمات ، وتتراءى في خلقه صفات ، بعضها حسن وبعضها قبيح ، ولـكنها جميعاً خلقت منه شخصاً التقت فيه المتناقضات بقدرٍ لم تلتق على مثله في سواه . فقد كان أصغر التلاميذ في المدرسة ، ومع ذلك أراد أن ينصّب نفسه عليهم قيما . كانت به رغبة شديدة في تعليم غيره من الأولاد ، وعلى الأخص في حكمهم والسيطرة عليهم . ونال أمنيته فنصّبوه قيما . وقبل بلوغه العشرين ارتقى الى منصبٍ أشبه بمساعد مدرس في كلية بزانسون Besançon . وأجهد نفسه في العمل اجهاداً مريعاً . وأراد كلَّ من حوله على أن يعملوا بمقدار ما يعمل . وكتب الى اختيه المسكينتين كتباً شديدة اللهجة ، بارعة الأسلوب ، يحضهما فيها على العمل ، وقد كانتا — طيّب الله ثراها — تبذلان كل ما في وُسعهما من مجهود

كتب إليهما يقول : « أختيّ العزيزتين ، إن العزيمة شيء عظيم ، لأن العزيمة يتبعها العمل ، والعمل يتبعه النجاح دائماً ، إلا في القليل النادر . وهذه الأمور الثلاثة — الارادة ، والعمل ، والنجاح — تملأ الوجود الانساني . فالعزيمةَ العزيمةَ ، والعملَ العملَ ، فسيفتحان لكما أبواب السعادة والمجد . إن الطريق الطويل المجهد في آخره خير الجزاء عما صبّ الانسان على ترابه من عرق ، وأحق فيه من قدم » .

(١) هو كرستيان جتفريد ارنبرج Christian Gottfried Ehrenberg طبيعي ألماني ، ولد عام ١٧٩٥ ، ومات عام ١٨٧٦ . تعين أستاذاً للطب بجامعة برلين عام ١٨٢٧ . وقام برحلات علمية كثيرة ، منها واحدة الى = مصر زار فيها صحراء لوبيا ووادي النيل والشواطىء الشمالية للبحر الأحمر ، والحبشة وبلاد العرب وسوريا ، وجمع فيها مجموعات علمية كثيرة ، ودرس الرواسب الصخرية وأثبت أنها من أصول حيوانية ونباتية ، وأثبت أن فسفرة البحار واستضاءتها في الليل تنشأ عن أحياء في الماء « المترجم »

تلك عظاته الأولى فى شـبابه ، وهى هى عظاته الأخيرة عند ما بلغ السبعين — عظات بسيطة ، ولـكنها كانت تخرج من قلبه

وبعث به أباه إلى باريس ، إلى مدرسة النُرْمال ، فاعتزم أن يقوم هناك بأعمال كبيرة ، ولـكنه أحس حنيناً أليماً إلى وطنه ، وإلى روائح المدبغة التى خلّـف فى بلده ، فعاد إليها تاركاً فى باريس آماله وأحلامه . . . ولـكنه لم يغب عنها طويلاً ، فانه رجع إلى باريس بعد عام ، إلى نفس المدرسة ، وفى هذه المرّة أطاق الاقامة فيها بعيداً عن بلده وأهله . وذات مرة خرج من محاضرة دوماس [1] Dumas ، مُغتمِرَ الحس ، فائض النفس ، مغرورق العين ، يتمتم لنفسه : « ما أجـلّ الـكيمياء علماً ! ودوماس ، ما أمجده وأوفر حظه من محبة الناس ! » . عرف « بستور » حينئذ أنه سيكون يوماً كيميائياً كذلك عظيماً . ونظر إلى الحىّ اللاتينىّ [2] بشوارعه القاتمة ، وهوائه الخبيث ، وإلى عيشة الخلاعة والتخليط التى يعيشها الناس فيها ، فقال لا يرفع هـذا الحىّ من وهدته إلا الـكيمياء . كان « بستور » قد ترك الرسم والتصوير ، ولـكنه حفظ فى قلبه روح الفنّـان الشاعر

ولم يلبث أن بدأ أبحاثه ، بين قوارير من كل رائحة كريهة ، وأنابيب من كل سائل ذى لون بهيج ، فاشتغل بها وتعثر فيها . وكان يحاضر صديقه الطبيب شپيوس « Chappius » ساعات عن بلورات حامض الدُّرْدى [3] ، ولم يكن إلا طالب فلسفة ، فـكان المسكين لا يجد مندوحة عن الانصات كل تلك الساعات . وكان « بستور » يقول له : « إن من الحزن ألا تـكون كيميائياً مثلى » . كان يريد كل الناس على أن يكونوا كيميائيين ، كما أراد كل الأطباء بعـد أربعين عاماً على أن ينقلبوا بحّاثاً للمكروب

وبينا كان يُـكبّ بأنفه الأفطس ، وجبينه العريض ، على كَومات البلورات يتحنها ، كان رجـلان ، أحدهما فرنسى ، والآخر ألمانىّ ، قد أخـذا على انفراد يوجهان همهما إلى تلك الحيوانات الصغيرة الحية التى تدعى بالـكروبات ، يعتقدان أنها حيوانات على صغرها خطيرة نافعة كالخيول والأفيال . أما الأول فـكان اسمه كينارد دى لاتور Cagnard de la Tour ، وكان رجلاً متواضعاً متخاشعاً ، إلا أنه كان يعرف كيف يكشف من الحقائق عن ابكارها . فذات يوم كان يدور خلالَ الجعـة المختمرة فى أحواضها ، فأخرج من حوض قطرتين يعلوهما الرغوة ، ونظر اليهما بمجهره فوجـد أن حبات الخميرة قد نتأت على جوانبها نتوءات كما تتنبت البذور . فقال لنفسه : « إذن هذه الخمائر حية ، لأنها تتكاثر كغيرها من الخلائق » . وتابع أبحاثه فعرف أن الشـعير لا يستحيل إلى « البيرة » إلا حيثما وُجدت فيه هـذه الخمائر الحية المتزايدة . « إذن فهذه الخمائر ، وهى تمارس العيش ، تخلق من هذا الشعير كحولاً » . ونشر مقالاً صغيراً عما وجد ، ولـكن الدنيا رفضت أن تستمع إلى هذا الـكشف الجيد . وكان « كنيارد » حيياً ، ولم يكن دعّاء لنفسه ، ولم تكن له صلة بالصحافة

وفى نفس العام نشر دكتور ألمانى يدعى إشڤان Schwann مقالاً قصيراً ، فى جُمله طول ، وفيها إبهام ، يقصّ على الناس فيه خبراً عجيباً ، خال أنه سيُقيمهم ويُقعدهم ، فاذا بهم يستمعون له بصدور ضيقة وأمزجة فاترة . قال : « اغل اللحم إغلاء طيّباً ، وضعه فى قارورة نظيفة ، ثم أدخل الى القارورة هواء بعد إمراره فى أنبوبة حمراء بما حولها من النار ، يَبْـقَ اللحم صالحاً عدّة أشهر . ولـكنك إذا نزعت عن القارورة سِدادها ، فأدخلت اليها الهواء العادى بما فيـه من جراثيم ، فلن يلبث اللحم أن تخبث ريحُـه ، وتَتَنفّش بأحياء أصغر ألف مرة من رأس الدبوس ، هى التى تَعيث فيه بالفسادَ »

لو أن « لوفن هوك » سمع بهذا لفتح عينيه وسمّـهما لما سمع ، ولو أن « اسپلنزانى » جاءه هـذا الخبر وهو يصلّى بالناس فى الـكنيسة لفضّ جمعهم وهرع الى معمله . أما أوروبا فلم تحرك ساكناً . وقرأت الخبر فى الصحف فكان كبعض الأخبار . وكان « بستور » فى تلك الساعة على وشك أن يكتشف أول كشف خطير كشفه فى الـكيمياء

كشف بستور كشفه الخطير الأول وهو ابن ست وعشرين فبعد نظرات قريبة عديدة الى بلورات صغيرة دقيقة ، خرج على أن حامض الدردىّ يوجـد على صور أربع لا على صورتين ، وخرج على أن المواد الـكيمياوية منها مركبات قد تتساوى

(1) هو الـكيميائى الفرنسى الشهير (١٨٠٠ — ١٨٨٤) صاحب التقديرات الـكيميائية التى لا تزال تحمل اسمه الى اليوم

(2) حى الطلبة بباريس

(3) حامض الدردى أو حامض الدرد هو الذى يسميه كيماويو مصر خطأ بحامض الطرطير أو الطرطريك نقلا عن اللفظة الأفرنجية tartaric فهى مأخوذة عن العربية . والدردى أو الدرد رواسب الخمر التى توجد فى الدنان . وهى مقبثة . وفى المثل « أول الدن دردى » لمن يبـدأ الحديث فيقول ما تعافه النفس . المترجم

جزئياتها فى كل شىء ، فى عدد ذراتها ، وفى الحال التى تترابط عليها هذه الذرات ، حتى يكاد المركبان يكونان مركباً واحداً ، لولا اختلاف بسيط فى وضع ذراتهما ، وخرج على أن هذين الوضعين يختلفان كاختلاف الشىء وصورته فى المرآة [1]

تجلى «بستور» فاستقام ما انحنى من ظهره الوجيع ، واستبان قدر الكشف الذى أتاه ، فخرج مسرعاً من معمله الصغير المظلم القذر ، فبلغ البهو الكبير ، فالتقى بشاب فيزيائى لم يكن يعرفه إلا لماماً ، فاذا به يطوّقه بذراعيه ، ويقوده خارج المعهد إلى حدائق لكسمبرج Gardens of Luxembourg ، وتحت ظلال أشجارها الوريفة ، أخذ يصبّ على صاحبنا الكلم صباً ، ويَغْمُره بالشرح والتفسير غمرا . لم يكن له مندوحة من هذا . ملأه الحديث فلم يستطع كظمه . لابد أن يُفيض به إلى أحد . لا بد أن يخبر الدنيا بالذى وجد

— ٢ —

لم يمض شهر حتى أثنى عليه الأشياخ من الكيميائيين ، وحتى اصطحبه علماء أعمارهم ثلاثة أضعاف عمره . وتعيّن أستاذاً بجامعة استراسبورج Strasbourg . وفى فترات ما بين أبحاثه وقر فى نفسه أن يتزوج من ابنة العميد . ولم يكن موقناً من حبها ، ولكنه جلس فكتب لها كتاباً وَثِق أنها لن تقرأه حتى تحبه . كتب لها . « ليس فىّ ما يجذب فتاة صغيرة مثلك ، ولكن ذاكرتى تطمئننى إلى أن الذين عرفونى حقّ المعرفة ، أحبونى أصدق الحب »

وتزوجته ، فصارت بذلك من أشهر الزوجات فى التاريخ ، ومن أكثرهن مكابدة ومقاساة ، ومن أكثرهن هناءة وسعادة من بعض الوجوه — وسنذكر فى هذه القصة الكثير منها

ولما أصبح ربَّ أسرة ، زاد بذلُه من نفسه للعمل ، فنسىَ ما تفرضه الزّيجةُ الحديثة على الزوج من واجبات ، وما تنتظره من مُحاسنات وملاطفات . وغلا فقلب ليلَه بالعمل نهاراً . كتب فى ذلك يقول : « أنا على وشك أن أرفع الحجاب عن خبايا غامضة . وأرى هذا الحجاب يشف كل يوم عنها ، ثم يشف ، ثم يزداد شفوفاً . وتطول الليالى علىّ فى انتظار الصباح . وزوجى كثيراً ما تؤنبنى للسهر ، فأقول لها : « إننى بذلك إنما آخذ بيمينها إلى حظيرة الخالدين » واستمر يبحث البلورات ، ويسلك لاكتناهها طرائق لا تلبث أن تنسدّ فى وجهه فيرتد عنها خائباً ، ويدبّر من التجارب كل سخيف مستحيل ، تجارب لا تصدر إلا عن عقل مخبول . ولكنها كانت من ذلك النوع الذى لو صادف نجاحاً لصيّر هذا المخبول عبقرياً يدوى اسمه فى الآفاق ؛ فوضع الأشياء الحية بين مغناطيسيين كبيرين رجاء أن يغيّر بذلك كيمياء الحياة فيها . واخترع مَيكنات كمكنات الساعات ، وعلّق بها النباتات فأخذتْ تهتزّ كالبندول روحةً وجيئةً ، وحسب بذلك أنه يهز ذراتها فى جزيئاتها ، وحسب أنها تحولُ عن أوضاعها القديمة إلى أوضاع جديدة تنتسب الى الأولى انتسابَ الشىء إلى خياله فى المرآة ، أو كما ينتسب من حامض الدّردى جزيئُه الأيمن بجزيئه الأشول . . وأراد أن يقلّد الله فحاول أن يغيّر فصائل الأحياء

وكانت زوجه تسهر الليالى إلى جانبه ، وتُعجب بما يصنع ، وتثق به ، وتؤمن بكل الذى يأتيه . كتبتْ إلى أبيه تقول : « يجب أن تعلم أن التجارب التى هو قائم بها الآن ، لو نجحت ، فستخلق منه رجلاً يناهض فى الذكر « نيوتن » ، ويطاول فى المجد (جاليليو) » . لسنا نستطيع اليوم أن نؤكد أن مدام « بستور » كانت تقول ذلك فهماً لما يقوم به زوجها ، أم هو إعجاب المرأة ببعلها ، وعلى كل حال فلم تتحقق آمالها هذه المرة ، فان تجارب « بستور » هذه كان نصيبها الخيبة

أحمد زكى

---

(١) الشائع فى الناس أن الشىء وصورته وضعاها واحد ، والصحيح أنهما مختلفان ، فيمين الشىء شمال الصورة ، وشمال الشىء يمينها . وقد مهد اكتشاف بستور السبيل الى نظرية الأبعاد الثلاثة فى تركيب المركبات العضوية — المترجم

قصة

ومن يرقيه ؟

للآنسة سهير القلماوى



فى أيام عاشوراء كان قد اعتاد أن يجوب الطرق صباحاً منذ مطلع الفجر منادياً بصوته العذب العميق: « عاشورا المبارك ... حليمة رقت نبينا محمد من العين ... » وكان يحمل فوق رأسه مقداراً من مساحيق مختلفة الألوان والأصناف . كان الرجل فوق الأربعين ، وسيم الطلعة ، قوى البنية ؛ وكان أعذب ما فيه هذا الصوت الحنون العميق المؤثر الذى يرسله فى الفضاء كل صباح فيمتزج بنسيم الفجر ونور الشمس الباهت الرفيق ، فيوقظ النيام أجمل يقظة وألذها . لم تكن هذه حرفته بالطبع ، فقد كان طول العام يبيع الفواكه ، إما فى محل قريب له ، وإما سائراً هكذا فى شوارع القاهرة ؛ ولكنه اعتاد منذ أعوام عديدة أن يطوف هذه العشرة الأيام الأولى من العام الهجرى وعلى رأسه هذه المساحيق ليرقى بها من يخاف شر العين والحسد

كان الرجل يؤمن أشد الإيمان بالحسد وشر الحسد ، أليس قد ذكره الله تعالى فى قرآنه الكريم ؟ ألم يأمر الله نبيه الكريم أن يقول « أعوذ برب الفلق . . . ومن شر حاسد إذا حسد » ألم يرو لنا كيف رقت حليمة النبى محمداً من « أعين » الحساد ؟ أليس فى الحياة اليومية ما يثبت لنا شر هذا الحسد ؟ كانت لأخته طفلة جميلة ، وكانت تتركها دائماً قذرة الملابس وسخة الوجه لا يكاد يبين منها إلا أحجبة وتمائم وتعاويذ ، ولكنها لأمر ما نزعت هذه الأحجبة يوماً ، فاذا بها تمرض ، وإذا المرض يشتد بها يوماً بعد يوم ، ولم يعد بخور ينفع ، ولم تعد تمائم تصد إصابة « العين » ، وإذا « العين » أصابت فليس لإصابتها مرد . وبعد أيام جاهدت الطفلة فيها جهاداً لا تحتمله إلا تلك الأجسام التى زودت حديثاً بالحياة ، فهى حارة قوية فى بنيانهم ؛ بعد أيام توفيت الطفلة الجميلة فتوفيت معها أفراح الأسرة ومباهجها الى زمن طويل . أبعد هذا يوجد من لا يعتقد « بالعين » ؟

وفى ثانى يوم هذا العام كان الرجل يسير فى الطريق كالمعتاد يرسل صوته الجميل وهو متلذذ بسماعه مرات ومرات بهذا النداء المستحب وتلك النغمة الساذجة البديعة: « عاشورا المبارك . . . حليمة رقت نبينا من العين » ؛ وأطلت من النافذة فتاة فى نحو العشرين ، جميلة الصورة نجلاء العينين . وكانت عيناها أول ما يبدؤك منها لسوادها وجمالها . كانتا عينين تجذبان النظر اليهما جذباً كما يجذب الحديد الحديد بفعل الجاذبية الطبيعية

رفع الرجل بصره إلى النافذة فاذا بالعينين النجلاوين تنظران اليه فى احتجاب غير خاف . فأرسل صوته العذب الجميل بندائه العذب كأنما يعلن اليها عمله . فابتسمت ثم أسرعت وتركت النافذة عاطلة من أجمل ما يمكن أن يزينها

واستمر الرجل ينادى نداءه ، ويكرر ويطيل النداء ، ويتقن الغناء ، ولكن الفتاة لم تعد ؛ وأخيراً قال لنفسه : غداً تراها ، انك ستمر لثمانية أيام أخر . صبراً فى الغد الفرج

وفى الغد ما كاد يقترب من باب هذا المنزل حتى سمع صوتاً يناديه : « ياعم يا بتاع عاشورا ! » فالتفت صوب الصوت ، فاذا العينان ، عينا أمس تنظران اليه من جديد

جلست الفتاة على حافة السلم ، وقالت له فى صوت خافت إن سيدتها نائمة ، وإنها تخاف أن تصحو فتراها على تلك الحال فتطردها شر طردة . كل ما تريده منه هو أن يرقيها من عين خادم الجيران لأن هذه تغار منها لجمالها ، وتنظر اليها نظرات شريرة . ولقد زاد فى شر هذه النظرات أن خدم الجيران جميعاً لا يعبأون ولا يتقربون إلا من فتاتنا هذه ، فزاد ذلك فى نيران الغيرة ، ومتى

اشتدت الغيرة ، فالحسد وشرور الحسد متوقعة منتظرة

سمع الرجل هذه الاعترافات الساذجة فوجدها عادية ، وأخذ يقوم بعملية الرقية خالطاً بعض المساحيق متمتماً كثيراً ، وموصياً وصايا عدة ، وكان بوده أن يطيل ويطيل لولا أن نبهته تلك بأن سيدتها قد تصحو ، وفى تلك الصحوة عقاب لها أليم

سار الرجل مبتعداً عن البيت مكرهاً ، يحس فى نفسه ألماً لا يرى له مبرراً ولا سبباً ؛ إنه كان فى حلم ، كان فى سعادة ما بعدها سعادة ، كان فى سماء ثم هبط الى الأرض ، ثم صحا من الحلم اللذيذ فكانت صحوة ألمة بغيضة

وأخذ ينادى فاذا صوته كأنما هو صوت انسان آخر لا عهد له به . تبدل الصوت ولم يعد فيه الجمال الذى كان يلذه ويستمتع به . وعبثا حاول الرجل أن يقنع نفسه بأن هذه خيالات تتراءى لهوحده ، وعبثا حاول أن يقنع نفسه بأن الناس كلهم لم يشعروا عا طرأ على نفسه من تغير أثر فى صوته

عاد الرجل الى أهله كئيباً ملولاً برماً بكل شيء ، وأمضى ليله والعينان السوداوان النجلاوان تنظران إليه وتطيلان النظر ، فيحاول الفرار منهما فلاتلبثان أن تعودا من جديد أقوى تحديقاً وأعمق أثراً فى النفس

وفى الصباح عاد الرجل يجوب الطرقات منادياً كعادته . دار حول البيت المعهود مرة ومرات فلم ير إلا نوافذ مفتوحة كأنها فتحات القبور . لم ير العينين ! وأخذ طريقه كالمعتاد ، فسار وسار ينادى ، ولكن فى غير لذة وفى غير نشوة ، وإذا به يسمع من بيت قريب : « الله ! ما لصوت الرجل تغير ؟ ياخسارة ! كان صوته جميلا وحلوا ! لابد أنه مريض ! »

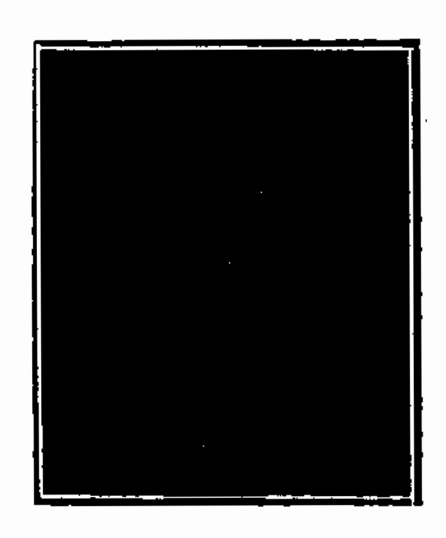
لم يعد مجال للشك . لقد فقد هذا الصوت الذى كان له ذخراً وأى ذخر : أصابته العين ولم يصبه إلا هاتان العينان السوداوان الواسعتان ، حُسِد وجازت فيه عين الحسود !

عاد إلى أهله ورقى نفسه ورقاه أهله ، ولكن الرقية ضاعت سُدى . لم يكن من يتقن الرقية إلا هو ، ولا يمكن أن يقوم بها لنفسه كما يقوم بها لغيره . فالرقية فن له حركاته وأعماله ومراسيمه . واليوم أصابته هو العين ، فيا ترى من يرقيه ؟

سهير القلماوى

بين الشرق والغرب

للأستاذ محمود الخفيف



غَنِّ ياشعرُ فقد طالَ البكاءْ   وَتَطَلَّعْنَا إلى بعضِ العَزاءْ
غَنِّ بالشرقِ وماضى عِزِّهِ   حانَ أن يُطرِبَنَا هذا الغناءْ
صُغْ من اللحنِ نشيدَ الأَمَلِ   وأهازيجَ الضُّحى المُقْتَبَلِ
هاتِ ياشعرُ أحاديثَ العلى   لا تَقِفْ عند حديثِ الأُوَلِ
عَلِّمِ الأشبالَ فى وثبتهمْ
كيف يرقون إلى أوجِ العلاءْ
أنشِدِ الألحانَ للصُّبحِ الوليدْ   واملأ الآفاقَ من هذا النشيدْ
أيقِظِ النُّوَّامَ من غفوتهمْ   وترنَّمْ بالأمانى من جديدْ
رَفَّ نورُ الصبحِ فى هامِ الشجرْ   وانجلتْ آياتُه ملءَ البَصَرْ
وسرَتْ فى الكونِ من أنفاسه   نفحةٌ نمَّتْ بأحلامِ الزَّهَرْ
عرَفَتْ رُوحى شذاها فانتشتْ
ورأى قلبى بها معنى الرَّجاءْ
هيهِ ما أجملَ أطيافَ الشفقْ   تتراءى بعدَ أن طال الغسقْ
صُوَرٌ ضاحكةٌ خافقةٌ   ضَحِكَ القلبُ إليها وخفقْ
لُمَعٌ توحى أحاديثَ الخلودْ   عن جلالِ الشرقِ فى صُبحِ الوجودْ
وعن العِزَّةِ إبَّانَ الضحى   وبنو الغرب على الذلِّ قعودْ
شدَّ ما تبهجُنى تلك الرُّؤى
وسنا أيامِها الغُرِّ الوضاءْ

همتُ بالشرق وضاق نوره   وهفت نفسى لخافى سره
كم ملأتُ العينَ من ألوانه   واجتلى قلبى الرؤى من سحره
ولكم كان لفكرى مسرحا   كلما أوحى لشعرى أفصحا
أبعثُ الغابرَ من أخباره   نسمات كالصبا أو أروحا
نسمات يهمسُ المجدُ بها
تلهم الأبناء معنى الكبرياء

خذ من النيل حديثَ الغابرين   وتأمل فى القرون الأربعين
واستزد دجلةَ من أخباره   عن بنيه النابهين الأولين
ورد الهند ففى غاباتها   وُلدَ الساحرُ من آياتها
واهبط الصينَ وزر مستلهماً   مهدَ (كونفشيوس) فى جناتها
سوف تلقى الشرق إما جئته
منبتَ الحكمة أرض الحكماء

نشأ الإيمانُ فى أحضانه   حسبُه ما فاض من إيمانه
حسبُه النورُ الذى أطلعه   فوق ما قدّم من إحسانه
أطلعَ الله الشموسَ النيرات   لجلوا فيه ظلامَ الشبهات
بلغ الانسان فى أرجائه   بهدى الخالق أعلى الدرجات
شدّ ما يبعثُ فى نفسى الهدى
مهبطُ الوحى ومهد الأنبياء

آنس النارَ بواديه الكليم   قبساً من جانب الطور القديم !
فأراه الله من آياته   وحباه العلم والرأى القويم
واجتبى عيسى من الشرق نبياً   فروى الآيات فى المهد صبياً !
بشّر الناسَ فتياً برسول   يحملُ الحق كتاباً عربياً
فطن الدهرُ إلى مقدمه
يوم هزّ الكونَ صوتٌ من حراء !

يابنى الغرب لنا العزُّ التليد   والمعانى الغرُّ والماضى المجيد
لاتقولوا أدبرت أيامنا   وتباهونا بنارٍ وحديد
كم رأينا بينكم من أثرة   وشهدنا ناركم مستعرة
ضربَ الحرصُ على آذانكم   وأذاع الشرُّ فيكم نذره
كل يوم خبرٌ عن فتنة
ينذرُ الأرضَ جميعاً بالفناء !

كم تفاخرتم بعلمٍ وذكاء   وسخرتم من خيال الشعراء ؟
ضاق وجهُ الأرض عن همتكم   فتلاقيتم على متن الهواء !
ليت شعرى هل تبادلتم سلاما   أم ملأتم جانب الجو خصاماً ؟
هل أفادَ العلمُ إلا فتنةً   وغروراً يبعث الموت الزؤاما ؟
حسبكم فى الفخر ما أجريتمو
من دموع وأرقتم من دماء !

خبّرونى كم لديكم من أجير   بات يبكى مثلما يبكى الأسير ؟
كم فقير بات يشكو ذلةً   وهوانا وهو بالرفق جدير !
لا ترون العيش إلا نهماً   هل عففتم أو عرفتم ندماً ؟
قد تمشّى السُّقم فى وجدانكم   فرأيتم كل عطف حُلُما
أين هذا البغىُ من حرية
طالما غازلتموها وإخاء !

كم بلونا من أفانين العذاب   ورأينا منكمو فتكَ الذئاب
كم فضحنا من طلاء خادع   فوق ما تخفون من ظفر وناب !
تلك أعراض البلاء القاتل   وعلاماتُ الفناء العاجل
قد ذهلتم عن مزايا جنسكم   واغتررتم بحطامٍ زائل
يوبقُ الروحَ لديكم جشعٌ
هل عرفتم غير روح الكهرباء

مالت الشمس إلى أفق المغيب   وسيغشى أرضكم ليل قريب
قد تلفتم إلى الخلف كما   لو رأيتم شبحَ الليل الكئيب
هل فزعتم من دنوّ المنحدر   فخفتم للصباح المنتظر ؟
أم ترى آمنتمو بعد الجحود   تؤمن النفس إذا الموت حضر
مالكم عدتم إلى الروح وما
شاع عنها من ظهور وخفاء ؟

هو ذا الصبح بدا فى (يوكهامه)   هل تبينتم على الأفق ابتسامه ؟
عادت الشمس إلى مطلعها   أبداً لن يخلف الكون نظامه
نهض المشرق من غفوته   واهتدى بالحق فى نهضته
جعلَ الماضىَ وحياً وهدى   ومضى يسعى إلى غايته
انظروا تلقوه فى إقدامه
ظافرَ الأيام خفّاقَ اللواء

محمود الخفيف

ابن ماجد

أسد البحر الهائج

للأستاذ قدري حافظ طوقان

لا يظنن القارىء أننا نستطيع أن نوفي ابن ماجد حقه بمقالنا هذا ، فذلك مالا ندعيه ومالا يمكن أن نقول به ، ولا سيما أن ناحية الملاحة عند العرب لا تزال غامضة لم تمط حقها من البحث والتنقيب عدا أنها لا تدخل في دائرة اختصاصنا . وجل ما أقصده من هذه العجالة إعطاء فكرة عن ابن ماجد عسى أن يكون في ذلك حفز الهمم للعناية بالمآثر الاسلامية والآثار العربية في شتى النواحي ، وعسى أن يكون في ذلك إثارة العزائم للكشف عن آثار أحاطها اهمالنا بالغموض والابهام . إن حياة ابن ماجد حافلة بالأعمال ، وقد تركت آثاراً جليلة ، وهي صفحة لامعة في التراث الاسلامي ، يحق لنا أن نباهي أمم الأرض بها كما يباهي البرتغاليون بصفحة فاسكو دي غاما الذي طاف حول الأرض . وجدير بالمنقبين من أبناء هذه الأمة أن يخرجوها للنشء حتى تثير فيه ما يحيي خصائصه الممتازة . نريد بل نطلب من أحد المتخصصين في التاريخ الاسلامي أن يتخصص في ناحية الملاحة عند العرب والمسلمين ، وفي تاريخ إنشاء الأساطيل عندهم ، ونريد منه أن يبحث ويدقق ، حتى يخرج من ذلك بسفر جامع يكون جزءاً من الثقافة الحديثة يمكن للخاص والعام أن يستفيد منه ، وإن في تلك الاستفادة ما يخلق في النفوس روح الاقدام وروح الاعتقاد بالقابلية والنبوغ ، ولا يخفى ما في هذا كله من قوى تدفع بالأمة الى المجد والسؤدد

كان العرب في بدء فتوحهم يخافون البحر ويهابونه ، وكيف لا يخافونه ويهابونه ، وهم أهل صحراء منقطعون عنه لم يتعودوا رؤيته فكيف ركوبه . . . ولم يكن الخلفاء الراشدون يشجعون على ركوب البحار لخوفهم على أرواح المسلمين ؛ وقد جاء أن الخليفة عمر بن الخطاب كان لا يشجع على ركوب البحر ، وكثيراً ما عاقب الذين يخوضون عبابه ، ويقال إنه عنف عرفجة بن هرثمة الأزدي لركوبه البحر حين غزوه عمان . وقد يكون السبب في منع الخلفاء هو خوفهم على المسلمين لأنهم لم يكونوا أهل بحر ولم يتعودوا السير على أعواده . وبقي الأمر على هذه الحال إلى أن اتسعت الفتوح الاسلامية والعربية ، وأصبح من العسير بل من المستحيل حماية بعض البلاد ، ولا سيما وقد أصبح المسلمون مجاورين الرومان وقد رأوا أن الحاجة ماسة لحماية الشواطىء ، ولقد اتخذوا في إنشاء السفن مثال الرومان ؛ ومن الغريب أنك تجدهم في مدة وجيزة قد صارت لهم دراية وخبرة بالبحار وركوبها ، وقد طافوا أشهرها وقهروا محيطات العالم ، واتصلوا بالبلاد البعيدة وعرفوا عنها الشيء الكثير ، مهروا في صناعة السفائن ، وأنشأوا لذلك دوراً عظيمة ، وصار لهم أيضاً في مختلف الأنحاء أساطيل أصبحت عرائس البحار وزينة الشواطىء ، متقنة الصنع كثيرة العدد تفننوا في عملها ، وأدخلوا تحسينات جمة على آلاتها ، ووضعوا لها الخرائط والمصورات البحرية ، كانوا على علم بالأوقات الملائمة لخوض البحار وعلى معرفة تامة بأوقات هبوب الرياح ، اتخذوا المنائر في المرافئ وفي المواضع الخطرة لهداية السفن ، واستعملوا الابرة المغناطيسية لتعيين الجهات ، ولقد وصل الأسطول الأندلسي في عصر عبد الرحمن الناصر إلى مائتي مركب ، وكذلك كان أسطول أفريقيا إذ وصلت أساطيل المسلمين في دولة الموحدين من العظمة والفخامة مالم تصله في أي عصر آخر ، وبلغت المراكب في أيام المعز لدين الله عصر ستمائة قطعة . ولسنا الآن في موقف نستطيع معه تعداد أمجاد العرب والمسلمين في الملاحة ، ولسنا أيضاً في موقف نتمكن معه من سرد مواقع المسلمين البحرية وبراعتهم في ذلك . فهذا كله لا تزال محاطاً بسحب الابهام ، لم ينفض عنه بعد غبار الاهمال ؛ ومما يؤلمنا أننا الى الآن لم نسمع عن جماعات علمية أو منقبين أقاموا أنفسهم لهذه البحوث وصرفوا أوقاتهم في تهيئتها ، وعلى كل حال يمكننا القول من مطالعة كتب التاريخ التي بين أيدينا أن العرب وصلوا في الملاحة الى درجة لم يصلها غيرهم من قبلهم . إذ جعلتهم سلاطين البحار وغزاة المحيطات ، وكان لذلك تأثير كبير على فتوحاتهم ، فلقد تمكنوا بأساطيلهم من فتح سردينيا وصقلية وقبرص ومالطة وأقريطش ؛ وكذلك فتحوا بها كثيراً من شواطىء البحر الأبيض المتوسط مما يلي أوروبا إلى بريطانيا في الشمال . وقد بقي العرب أسياد العالم في البحار إلى أن قامت عليهم قيامة الغرب بحروبه الصليبية ،

وإلى أن قامت عليهم أيضاً المغول والتتار ، وهبت عليهم عواصف الفتن والقلاقل من كل جانب ، فضعف شأنهم وأضاعوا عزهم ومجدهم ، واستولت عليهم غفلة طويلة وجود مروع كاد يذهب بالكيان والخصائص التى يمتاز بها العرب على غيرهم ، وكاد يستحيل كل هذا الى موت أكيد . . .

قلنا إن الأمة العربية وصلت الى درجة فى البحرية لم يصلها غيرها من الأمم التى سبقتهم ، أخضعوا البحار لأساطيلهم ، ولم يهابوا بعدها وجزرها ، وساحوا بسفنهم المحيطين الهندى والهادى ، وأصبح لهم دراية وخبرة فى الملاحة ، وان أمة كان هذا شأنها ، وكانت هذه درجتها لمن الطبيعى أن يظهر فيها من مهر فى الملاحة وبرع فى البحرية واطلع على أسرارهما ووقف على دقائقهما ، ومن الطبيعى أيضاً أن يظهر فيها من ألف المؤلفات العديدة ، ووضع الكتب الكثيرة فى علم البحار ، ولا عجب إذن إذا كانت هذه المؤلفات وتلك الكتب منهلاً نهل منه كثير من ملاحى الغرب ، ولا عجب إذن إذا استعانوا بها فى تسيير سفائنهم ورسم الخرائط والمصورات البحرية ، وفى معرفة المواقع والمرافىء والخلجان . ومن هؤلاء الذين نبغوا فى الملاحة ووقفوا على دخائلها وعرفوا أسرارها ابن ماجد الذى ظهر فى القرن التاسع للهجرة ؛ وهو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن معلق السعدى بن أبى الركائب النجدى ، كان يلقب نفسه بشاعر القبلتين ، وقد حج الى الحرمين الشريفين ويُعرف بسليل الأسود ، وكان أبوه ومن قبله جده من الذين اشتهروا فى الملاحة ، حتى أن جده كتب رسالة فى الملاحة فى البحر الأحمر خدمة للسفن التى تقل الحجاج ، ولقد زاد والد ابن ماجد على هذه الرســـالة نتيجة اختباراته الشخصية[1] . من هنا يظهر أن ابن ماجد منحدر من عائلة اشتهرت بالشئون البحرية والاعتناء بالملاحة ، فلا غرابة إذا نبغ هو فى ذلك ، ولا عجب أيضاً إذا فاق أجداده فى هذا كله . وقد اعترف بعض المنصفين من علماء الأفرنج بفضل العرب (وخصوصاً ابن ماجد) على الملاحة البرتغالية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد . وقد قال الأستاذ فران الفرنسى إن الفضل فى تفوق الملاحة البرتغاليــة يعود الى العرب[2]

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ج ١ ص ٢٨٤

(٢) » » » » » » » ٢٨٢

والأستاذ فران هذا هو الذى ترجم كثيراً من مؤلفات ابن ماجد وقد علق عليها ، وقد صدرها بعنوان « مؤلفات ابن ماجد الملقب بأسد البحر الهائج ربان فاسكو دى غاما الذى طاف حول الأرض . » وثبت لبعض علماء أوربا أن فاسكو دى غاما استعان بابن ماجد فى تسيير أسطوله حول الأرض من مالندى على ساحل أفريقيا الشرقية الى قاليقوت فى الهنـد . ووضع ابن ماجد مؤلفات عديدة ورسائل كثيرة فى علم البحار وكيفية تسيير السفن ، هى من الأهمية العلمية والتاريخية بمكان عظيم . ومن مؤلفاته القيمة المعروفة كتاب اقتناه المجمع العلمى العربى بدمشق وهو موجود الآن فى دار الكتب العربية الظاهرية . واسم هذا الكتاب « كتاب الفوائد فى معرفة علم البحر والقواعد » ، وقد كتب عنه المرحوم العلامة الشيخ سعيد الكرمى فى الجزء الثانى من المجلد الأول من مجلة المجمع مقالاً جاء فيه : « والكتاب عبارة عن مائتى صفحة كل صفحة ٢٣ سطراً يتضمن معرفة طريق سير السفن فى البحر بمعرفة منازل القمر ومهب الرياح ومعرفة القبلة . . . » ونجد فى هذا الكتاب كيفية الاستدلال بمنازل القمر والبروج على البلاد التى يقصدها المسافر ، ويتبين منه أيضاً أن المؤلف اتخـذ بنات نعش وسهيلا والناقة والحمارين والعيوق والعقرب والنسر الواقع والأكليل والسماكين والتير

من جملة الأدلة التي تساعد المسافرين في الأسفار ، وقال إنه علم ذلك بالاختبار ، واعترف بأن ثلاثة من مشاهير الربابين سبقوه الى ذلك ، وأن الفرق بينه وبينهم « أن ما ذكره هو مصحح مجرب ، وما ذكره أولئك ليس على التجريب منه شيء . . . . »

ويوجد أيضاً في هـذا الكتاب عرض بعض الثغور على الأقيانوس الهندي والبحر الصيني وشكل البرور ومراسي ساحل الهند الغربية والجزر العشر الكبرى المشهورة ، وفيه وصف تفصيلي للبحر الأحمر بما فيه مراسيه وأعماقه وصخوره الظاهرة والخفية ، وفيه أيضاً بعض أشعار تتعلق بالملاحة والبحار ، ويتبين من قراءة بعضها أنه كان معجباً بنفسه وبما استنبطه في علم الملاحة إذ قال :

يفوتك غفلة نظمي ونثري ... وتزعم أن ليلك ذو نهار
فوا الحرمين لم تظفر بعلم ... يسرك في البحار وفي البراري
إذا ما الراميات رمتك فاعلق ... بتصنيفي وحكمي في الجاري

ويجد القارىء في هذا الكتاب بعض أشعار تعلي من شأن العلم وتحببه للناس ويقول ناظمها إن طالبه والساعي اليه يزداد رفعة ، وإن الذي لا يسعى اليه ولا يهمه منه شيء يورثه الله الذل والهوان . . .

العلم لا يعرف مقداره ... إلا ذوو الاحسان عند الكمال
من ناله منهم ترق به ... ما بين أعيان الملا واستطال
ومن تراخى عنه هوناً به ... أحوجه الله لذل السؤال
فذاك بين الملا أخرس ... أقعده الجهل بصف النعال

ولابن ماجد رسائل عديدة أكثرها منظوم رجزاً كرسالة (حاوية الاختصار في علم البحار) ففيها بحث عن العلامات التي يجب على الربابين معرفتها استدلالاً على قرب البر وعن منازل القمر ومهاب الرياح وعن السنة الهجرية والرومية والقبطية والفارسية وعن طريق السفن على ساحل العربية والحجاز وسيام وشبه جزيرة ملقا وأطراف بلاد الزنوج وعلى سواحل الهند الغربية ، وسواحل القرومندل والناط والبنغال وسيام حتى جزيرة بليطون وجاوه والصين وفرموزه ، وعن سير السفن على سواحل جزر جاوه وسومطرة والقال ومدغشكر واليمن والحبش والصومال وجنوبي العربية والقران ، وعن المسافات بين الثغور العربية والثغور الهندية ، وعن عرض الثغور على البحر الهندي(١) . وله أيضاً رسالة (المعربة) وفيها بحث عن الخليج البربري ، ورسالة تبحث في معرفة القبلة في جميع الأقطار يقول في أولها : « لما رأيت الناس يميلون عن معرفة القبلة وليس لهم أصل علم يعرفونها به خصوصاً في المدن اللواتي بقرب البحر وجزره التي يمر بها المسافر ، نظمت هـذه الأرجوزة وأتقنها بأوضح الأدلة وأسهلها بأربعة وجوه : الوجه الأول بطول مكة المشرفة وعرضها وطول البلد الذي فيـه الانسان وعرضه ، الوجه الثاني على الجدى ، الوجه الثالث على بيت الابرة ، الوجه الرابع جهات الكعبة الأربع . . . . » وله أيضاً أرجوزة بر العرب في خليج فارس ، وأرجوزة السير في البحر على بنات نعش ، وقصيدة تبحث في علم المجهولات في البحر والنجوم والبروج وأسمائها وأقطابها ، وأرجوزة في بيان بر الهند وبر العرب ؛ وله أيضاً قصائد أخرى بعضها يبحث في معرفة الجهات من الشعرى والنسرى ومن سهيل والسماكين ، وله أراجيز غير التي مر ذكرها تتضمن ذكر المراسي على ساحل الهندي الغربية ، وعلى ساحل العربية ، وتبحث في فائدة بعض النجوم الشمالية في سير السفن ، ويذكر فيها أيضاً بعض الكواكب المفيدة للملاحة ، ومنها ما يبحث في الطرق البحرية من جدة إلى جنوبي بلاد العرب فبعض بلدان وسواحل أخرى ، ومنها ما يبحث عن الصخور البحرية والأعماق وعلامات البر وعن الحيوانات التي تعيش في الماء كالضفادع والأسماك والحيتان ، وعن علم الفلك والملاحة . . . الخ

هـذه بعض مؤلفات ورسائل ابن ماجد أتينا على ذكرها ليتبين للقارىء الكريم أنه وُجد في الأمة العربية من برع في الملاحة ومهر في تسيير السفن ومن ألّف في ذلك المؤلفات القيمة والرسائل الطريفة . ومن الغريب أن يجد المرء في هذه المؤلفات وتلك الرسائل ابتكارات ونظريات في علم البحار ما كانت لتخطر على بال المتقدمين ، وقد يعجب البعض إذا قيل له إن أكثر هذه المؤلفات ضاع وراح ضحية الاهمال وعدم الاعتناء وأن الموجود منها (وهو القليل) الذي عثر عليه بعض المنقبين والباحثين من الفرنجة بقي سنين عديدة المرجع الوحيد الذي يرجع اليه الملاحون في

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ج ٤ ص ٢٨٢

أوروبا . ولقد بقيت القواعد التي وضعها ابن ماجد من القرن الخامس عشر للميلاد إلى منتصف القرن التاسع عشر منهلاً عاماً لملاحي الشرق والغرب . وذكر برتن الانكليزي أن بحارة عدن في سنة ١٨٥٤ كانوا قبل السفر يتلون الفاتحة إكراماً لابن ماجد مخترع الابرة المغناطيسية . ومما لا ريب فيه أن نسبة اختراع بيت الابرة إلى ابن ماجد خطأ وليس فيه شيء من الصحة ، فقد ثبت لدى العلماء والباحثين أن استعمال الابرة كان معروفاً في أواخر القرن التاسع للهجرة أو الخامس عشر للميلاد ، فالقول بأنه هو مخترع الابرة غلط ، وقد تكون النسبة آتية من مهارته في تسيير السفن وبراعته في فن الملاحة ووقوفه على أصول الابرة وكيفية استعمالها وفهمه المبادئ المنطوي عليها عملها وتأليفه الرسائل فيها

ولقد ظهر في الأمة العربية كثيرون أمثال ابن ماجد من الذين أتقنوا الملاحة وتسيير السفن وعرفوا عنها شيئاً كثيراً ، وظهر فيها أيضاً من ألّف في ذلك التآليف القيمة التي بقيت قروناً عديدة منبعاً يستقي منه الأوروبيون ، وقد عرفوا كيف يستفيدون منها ويستغلون محتوياتها لما يعود عليهم بالتقدم والرقي ، ولو جئنا نعددهم ونذكر خصائص كل منهم لطال بنا المطال ، ولخرجنا عن موضوع هذا المقال ، ولكنا نكتفي بسرد بعض الربانين والملاحين الذين قطعوا أشواطاً بعيدة في علوم البحار وفي وضع الكتب الممتعة عن ذلك . من هؤلاء محمد بن شاذان وسهيل بن أبان وليث بن كهلان وسليمان المهري وعبد العزيز بن أحمد المغربي وموسى القندراني وميمون بن خليل وغيرهم . . .

. . . . . هذه ترجمة موجزة لملاح عربي مهر في الملاحة ونبغ في التأليف وترك آثاراً جليلة كانت خير معين للذين أتوا بعده من رباني الشرق والغرب ، إذ كانت لهم حلولاً لالغاز علم البحار ومفتاحاً للاطلاع على أسراره والوقوف على دقائقه . ولا ندعي أننا في هذا المقال قمنا بشيء من الواجب نحو ابن ماجد فقد قام بواجبه غيرنا من الفرنجة وقد عرفوا قدره أكثر منا ولم نكن نحن في هذا المقال إلا عالة على بحوثهم ونتاج قرائحهم ، وجل قصدنا من هذه الترجمة أن نثير في بعض الذين يعنون بالتاريخ الاسلامي اهتماماً يجعلهم يوجهون بعض عنايتهم لناحية الملاحة عند العرب لينفضوا عنها غبار الاهمال ويظهروها على حقيقتها واضحة جلية لا تشوبها غموض ، إذ الوقوف على هذه النواحي والتعرف على مآثر السلف في العلوم والآداب والفنون والاطلاع على سير رجالهم وما أدوه من جليل الخدمات للحضارة يخلق في النشء العربي روح الاقتداء بهم وروح اقتفاء آثارهم ، وما يذكي فيهم حفائظهم ويثير فيهم الشهامة وحب ركوب المخاطر ، وإن في هذا كله ما يخلق أيضاً روح الاقدام وروح المغامرة ، وهذا هو الذي يوصلهم إلى ما يصبون اليه من عز لأمتهم ورفعة لقوميتهم وإعلاء لشأن حضارتهم

نابلس قدري حافظ طوقان

كتاب حياة محمد

تأليف الدكتور محمد حسين هيكل

بقلم الأستاذ م . ف . ا

حل العام الهجرى الجديد ، ونرجو أن يكون حلوله مباركا على العالم أجمع ، وأن يشمل العالم من نعمة دين الهجرة فى العام الجديد أكثر مما ناله فى العالم المنصرم . إذا تطلب الانسان مثلاً أعلى فى الحياة تطلع إلى دين محمد ، وإذا تطلب الطمأنينة لجأ إلى كنف دين محمد ، وإذا اشتدت به الحياة المادية جنح إلى روحانية دين محمد ، فأى شىء أشهى إلى النفس من أن تقرأ شيئاً عن محمد فى مستهل العام الهجرى الجديد ؟

هكذا قد قرأت كتاب الأستاذ الفضل الدكتور محمد حسين هيكل « حياة محمد » عند ميلاد هلال العام الجديد ، فكانت بشرى ، وكانت مسرة ، وكانت عظة . والدكتور هيكل شاعر النفس ، وإن لم يقل الشعر . لم يكن لى عهد بقراءة شعر له ، حتى أعرف فيه هذه الصفة . غير أنى قرأت له الكتاب ، فاذا به فى بعض نواحيه شعر يملأ النفس ويثير أشجانها . ولئن كانت كتب السيرة كثيرة ، فان كتاب الدكتور هيكل له ميزة على سائر السير بأنه قد انعكست فيه مشاعر الكاتب وخلجات نفس الانسان ، فاذا قرأه القارئ وجده يصور صورة حيـة تامة ناطقة فى ثنايا ذكر الحوادث ووصف الحالات

يبلغ الكاتب زيارة الرسول للمدينة مع أمه آمنة . ثم عودتها منها وموتها فى الطريق ، فلم يشأ أن يذكر تلك الحادثة وحدها ، بل صور لها صورة ظاهرة الألوان ، حيـة تفيض عطفاً وقوة فيقول : « فلما كانوا بالمدينة أرت الغلام البيت الذى مات أبوه فيه ، والمكان الذى دفن به ، فكان ذلك أول معنى لليتم انطبع فى نفس الصبى ، ولعل أمه حدثته طويلاً عن هذا الأب المحبوب الذى غادرها بعد مقامه معها أياماً معدودة ليجيئه بين أخواله أجله .

ولما تم مكثهم بيثرب شهراً اعتزمت آمنة العودة ، فركبت وركب من معها بعيريهما اللذين حملاها إلى مكة ، فلما كانوا فى منتصف الطريق مرضت آمنة بالأبواء وماتت ودفنت بها ، وعادت أم أيمن بالطفل إلى مكة منتحباً وحيداً يشعر بيتم ضاعفه عليه القدر فيزداد وحدة وألماً . لقد كان منذ أيام يسمع من أمه أنات الألم لفقد أبيـه وهو جنين ما يزال ، وها هو ذا قد رأى بعينيه أمه تذهب كما ذهب أبوه ، وتدع جسمه الصغير يحمل هم اليتم كاملاً »

ولو شئنا أن نضاعف ضرب الأمثلة لضاق مجال هذه الكلمة عن ايرادها ، فالحق أن الكاتب قد أبرز فى الكتاب عاطفـة تكسو ما بين سطور السنين ، وتحيي جسد الحوادث إحياء

ولقد وفق الكاتب فى معالجة السيرة ومراعاة التناسب بين أجزائها ، فكان يطيل الوقفة عندما يجمل به الوقوف عنده ، وكان يمر سريعاً عندما يجمل الاسراع فى ذكر الحادثة . ونذكر على سبيل التمثيل وقفتين له أحسن فى التريث عندهما ، حتى يجلو عنهما ما قد أدخل أهل الحقد عليهما من الدلس : أعني مسألة اسماعيل ونسبة العرب إليه ، ومسألة الغرانيق العلا . فانه فى الوقفة الأولى كشف عن تلك البدعة الضالة المضلة التى يقصد بها إلى التشكيك فى أمر يكاد يكون من العقائد ، فأبان عن الوهن فى حجة المشككين إبانة لا تدع مجالاً المريب ؛ وفى الوقفة الثانية عرض لحجج الخائضين فانتظمها جميعاً فى طعنة قاضـــية . ولست أستطيع أن أذكر شيئاً من تلك الحجة ، فان المجال هنا لا يتسع لها ولا يصلح إيراد قطعة من حجة لا تكون مجزئة

على أن وقفاته التى من هذا القبيل كثيرة ، بل هى تتخلل الكتاب فى كل الفصول وفى كل وجوه البحث

غير أننا مع إعجابنا بالكتاب وأسلوبه ، ونقده وطريقته ، لا يسعنا إلا أن ننكر منه أشـياء إلا تكن فى صميمه فهى فى حواشيه ، نعني بذلك أولاً عنايته بقول من قال السوء من أعداء الاسلام ، فقد أورد من أقوال بعض الأفاكين من أهل الضلال والتضليل ما يجرح الأذن سماعه ، على حين لم يكن ذكره فى صميم الموضوع ولا فى عرض الحجة . فأى شىء يجديه علينا ذكر سباب شنيع للرسول الكريم ورد على ألسنة بعض أهل الحقد والزيغ ؟ ولقد قيل شىء كثير من أمثال ذلك فى أيام الجاهلية ، فتعفف أهل السير عن إيراده ، وخيراً ما فعلوا ، فان المؤمن إنما يتعرض لحجة خصمه ، لا لسبابه ولا لفحشه ، وما كان أغنانا أن نُسمع الناس بعض ما نز من قلوب هؤلاء الأنجاس

وأمر آخر نذكره عرضاً وننبه اليه الأستاذ الكبير ، وهو بعض ما سها فيه عند ذكر السنين ، ولعل ذلك كان خطأ فى الطبع أو المراجعة ، وذلك مثل قوله فى حوادث اليمن ؛ وما كان فيها من الحرب فى أيام جوستنيان أنها وقعت فى القرن الخامس

الميلادى والمقصود هو القرن السادس ، لأن حكم جستنيان يقع فيما بين سنتى ٥٢٧ و ٥٦٥ بعدالميلاد ؛ وكذلك قوله بعد ذلك إن هذا النزاع الذى كانت اليمن مسرحه منذ القرن الرابع المسيحى ، كما ننبهه الى قوله عند ذكر الأوس والخزرج إن الخزرج كانت على وشك أن تختار أحد زعمائها ملكا وهو (عبد الله بن محمد) ، يقصد عبد الله بن أبى

ومن هذا القبيل قوله فى فارس قبيل الاسلام « على أن فارس رغم انصراف شيرويه الى مسراته كانت ماتزال فى قمة مجدها » . والحق لقد كانت إنما تتعلل بماضى مجدها ، على حين كانت نهب الفتن ومعترك الأطماع وميدان الخطط الحربية التى تدبرها جارتها الدولة الرومانية

ولا يفوتنا أن ننبه الى شىء من التجوز فى سياق القول قد يؤدى الى شىء من سوء الفهم ، نعنى ما جاء فى وصف شباب الرسول وما مالت اليه نفسه من لهو الشباب ، فقد أورد المؤلف الخبر على أن الرسول إذ كان صبياً حدثته نفسه أن يلهو كما يلهو الشباب ، فأفضى الى زميله ذات مساء أنه يود أن يهبط الى مكة يلهو بها ويعبث عبث الشباب فى جنح الليل ، وطلب لذلك اليه أن يقوم على حراسة أغنامه الى آخر ما قال :

وذكر القصة على هذا النحو مخالف لما هو وارد فى السير ، لأنه قد يلقى فى ذهن القارىء الخالى الذهن أن الرسول المعصوم قد كان فى نفسه فى شبابه ذلك الميل المضطرم الى العبث واللهو . فليس فى الأمر أكثر من أن الرسول عليه الصلاة والسلام طلب إلى زميل له أن يحرس غنمه حتى ينزل إلى مكة ليسمر فيها كما يسمر الفتيان ، فلما بلغ أعلى مكة سمع صوت غناء ومزامير ، فسأل عنها فقيل له عرس فلان وفلانة ، فعرج على العرس يلتمس السمر ، ولكنه لم ينشط إلى ذلك الطرب ، بل ضرب الله على أذنه فنام ، وبذلك حفظه الله من أن يرد أقل موارد اللهو ، إذ لقد كان قلبه منصرفاً منذ نشأ الى الجليل وإلى الجد . ولا يخفى ما فى إيراد القصة على الصورة الثانية من فرق عما فى التصوير السالف . فالرسول عليه الصلاة والسلام منذ طفولته عظيم النفس لا يميل إلا إلى الوقار والجد . ولقد كان جده عبد المطلب يراه وهو صبى يجلس على البساط الذى يفرش له بجوار الكعبة ، لا يجرؤ أحد على أن يقترب من كبير قريش إلا ذلك الصبى الصغير ، فكان عبد المطلب يقول عنه فى كثير من الاعجاب : « إنه يأنس ملكا »

ولقد قال النبى عليه الصلاة والسلام فى وصف حاله العامة : « لست من دد ولا دد منى » أى أنه كان لا يميل بطبعه إلى اللهو فلقد تنزه مقام الرسول عن أن تسول له نفسه الهبوط الى مكة ليصيب من لهوها ويعبث فيها عبث الشباب فى جنح الليل ؛ فلكم كان بمكة من فجور ما أبعد الرسول فى صباه عن أن تحدثه نفسه بشىء منه ، وما أبعد الفرق بين عبث الشباب ولهوه وبين السمر البرىء الذى يسمر به الفتيان . ولقد وصف المؤلف فى عرض حديثه حياة الجاهلية وعلاقة الرجل بالمرأة فيها ، ونرى أنه فى حكمه على تلك الحياة كان دائماً يميل إلى أن يتخذ من الجزئيات أحكاماً كلية ، ولم يكن فى هذا مقتصراً على تعميم نوع واحد من الأحكام ، بل كان أحياناً يعمم فضيلة لم تكن عامة ، وأحياناً يعمم رذيلة لم تكن عامة . فقال مثلاً فى موضع : إن العرب كانوا قبل الاسلام تجتمع فيهم « خلال الكرم والشجاعة والنجدة وحماية الجار والعفو عند القدرة ، وما إلى ذلك من خلال تقوى فى النفس كلما قاربت حياة البادية الخ »

وهذه الخلال وإن كانت مُثلاً عليا عند العرب لا يمكن أن يقال إنها كانت خلالاً عامة للعرب . وقال فى موضع آخر : « إن صلات الرجل والمرأة فى هذه الجماعة العربية لم تكن تعدو صلات الذكورة والأنوثة » وقال فى موضع ثالث « وبلغ من أمر هذه الصلة — أى صلة الاباحة بين المرأة بالرجل — أن لم تأب هند زوج أبى سفيان أن تقول فى أشد مواقف الجد والشدة وهى تحث قريشاً حين الحرب يوم أحد :

« إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق » الخ

وقال بعد ذلك : « ثم إن المرأة كانت إذا ولدت ، ولم يعرف لمولودها أب ، لم تأب أن تذكر من لامسها من الرجال الخ »

وهذه القطع كلها فيها تعميم لا تبرره الوقائع ، يدرك ذلك كل من ألم بتاريخ العرب ، ولا يتسع المجال هنا لنقض مثل هذه العبارات العامة ، وإنما نجتزىء بذكر كلمة صغيرة قالتها هند عند ما جاءت لتسلم عند الفتح إذ قال لها النبى يعلمها قواعد الدين : « وألا تزنى » فقالت « وهل تزنى الحرة »

على أن المؤلف وهو يصف أحوال الجاهلية قد نسى فزاد التعميم حتى جعله يتناول عهد عمر بن أبى ربيعة ، واستدل على ذلك بما يمكن أن نقرأ فى شعره من دلائل علاقات المرأة بالرجل فالحق أننا إذا خرجنا من الوقائع ومنطقها . ومن ذكر

السيرة ومواقفها لم نجد فى وصف الحالات الاجتماعية ما نستطيع الاعجاب به . فان الدكتور قد درس السيرة ، وأسبل المنطق على مواقفها . ولكن الذى يتناول السيرة لا يكفيه مثل ذلك الدرس بل يجب أن يكون كذلك قد سبق له حظ عظيم من العلم بتاريخ العرب وأيامها وأحوالها كما يكون فى استطاعته أن يحسن الحكم على عاداتها ، وأن يحسن تأويل أخبارها . ولعله قد أدرك أن قوله فيه هذه المبالغة فاتهم القارىء وقال « ربما بدا هذا التصوير للقارىء المعجب بالعرب وحضارتهم وللمعجب حتى بعرب الجاهلية ، مشوباً بشىء من الغلو، وللقارىء العذر فى ذلك » ولقد صدق المؤلف فى هذا الاستدراك

على أننا وإن أخذنا هذه المآخذ على الكتاب نرى أنه فتح جديد فى التأليف الحديث ، ونشكر للدكتور الفاضل والمؤلف النابه تلك الهدية الثمينة التى أهداها إلى قراء العربية

ضحى الاسلام

تأليف الأستاذ أحمد أمين

بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

أخرج أستاذنا العلامة أحمد الأمين كتابه فجر الاسلام ، وهو أحد أجزاء ثلاثة بهذا الاسم ، تقسمت بينها تاريخ المسلمين الفكرى والأدبى والسياسى فى الصدر الأول

ثم تقدم أستاذنا ليبلغ بالبحث نهاية العصر العباسى الأول ، فأخرج الجزء الأول من كتابه ضحى الاسلام عام أول ، وامتدّ به البحث فأخرج الجزء الثانى هذا العام ، ومضى ليخرج الجزء الثالث والجزء الرابع إن شاء الله

وقد تلقى الناس كتب الأستاذ بالقبول ، وأوفوه حقه من الثناء ، ونالت الكتب من الذيوع والانتشار ما هى جديرة به ، ولكن هذا الثناء لا يكفينا ولا يجدى علينا كثيراً . فهذه الكتب تتناول تاريخ الحضارة الاسلامية فى أعظم نواحيها أثناء القرنين الأولين ، وفيهما كان نشوء الحضارة الاسلامية ونماؤها ، واختلاف الآراء وتنازعها . ولم تدرس هذه الموضوعات على هذا النسق من قبل ، فواجب على كتاب المسلمين ، وكل من يعنى بتاريخ الحضارة الاسلامية أن يجعلوا هذه الكتب مدار بحث ونقد ، ويشتقوا منها أبحاثاً تبلغ بهم الغاية أو تقاربها ، وتكمل ما يكون فى الكتاب من إيجاز . وفى ذلك معاونة المؤلف فى عمله الشاق . فانا إذا بحثنا فقلنا للمؤلف أصبت أو أخطأت وأدلينا بالحجة فقد أعناه على بلوغ غايته ، وسررناه بالاهتمام بما اهتم به . علينا أن نتلقى هذه الكتب بالبحث المتصل وللنقد المخلص لله والحق ، ونجعلها قطباً لطائفة من المناقشات حتى تنير ، على قدر الطاقة ، ما أظلم من جوانب الحضارة الاسلامية

وقد هممت منذ صدر الجزء الأول من ضحى الاسلام بالكتابة عنه ثم حالت حوائل حتى ظهر الجزء الثانى . ثم لم أفرغ للكتابة عنه فى هذا العدد الممتاز من الرسالة ، فبادرت بدعوة الناس إلى الكتابة واعداً أن أكتب فى الأعداد الآتية ما يتيسر لى فى ضحى الاسلام

وقد قلت فى كلمتى القصيرة التى قلتها فى حفلة تكريم أستاذنا العلامة أنى وبعض أصحابى عزمنا أن نقرأ الكتاب ونكتب عنه فى دار الأستاذ المؤلف ثم عرفت آسفاً أن صفحات الرسالة أقرب الينا من دار الأستاذ وأوسع . فموعدنا الأعداد الآتية

أحاديث جدتى

تأليف الآنسة سهير القلماوى

بقلم الأستاذ محمود الخفيف

تناولت هذا الكتاب الظريف ، فما وضعته حتى أتممت قراءته ، ولكم تمنيت لو طالت تلك الأحاديث الرقيقة وما زخرت به من الصور الطلية ، فشغلت من الصحائف أكثر مما ضمه بين دفتيه ذلك الكتاب ، فان إعجابى بها وشدة تأثرى بأخيلتها الهادئة الساحرة قد جعلانى أشعر عند انتهائها بما كنت أشعر به ليالى الطفولة العذبة حين كانت تنتهى الحكاية الشيقة بغتة وأنا أكثر ما أكون استمتاعاً بها

على أن الشىء الجميل إذا علق بالنفس فانما هو مبعث سرور دائم ، ولقد يتزايد ما يبعثه فى النفس من الغبطة بعد أوانه . ذلك ما أحسه بعد قراءة هاتيك الأحاديث الجميلة ، وهى سلسلة أحاديث دارت بين الكاتبة وجدتها تصف الحياة المنزلية والحياة الاجتماعية للجيل الذى سبق جيلنا ؛ أثارتها الذكريات من نفس الجدة فتحدثت عن الحياة المنزلية ، ثم أعاد الى ذهنها استشهاد

فتاها فى الحرب ذكر الثورة العرابية ، فوصفتها معلقة عليها ثورة أفكارها وخواطرها ، الى أن عادت فى نهاية الكتاب الى وصف الحياة الزوجية وما كان يتخللها من عواطف فى ذلك الجيل

استطاعت الكاتبة النابهة فى غير تكلف أن تقدم بين يدى كتابها جوا خيالياً لطيفاً ، يستهويك فيخيل اليك أنك تسمع ولست تقرأ ، وكأنك تعيش فى هذا المنزل وتراها تستمع الى جدتها ، وترى ما تصف لها من أماكن وأشخاص . نعم كأنك ترى عائشة لاتعرف كيف تلبس البرقع فتضحك صاحباتها ، وكأنك ترى الشيطان يقطع عليها صلاتها بطرطوره الأحمر ، وكأنك ترى اسماعيل معلقاً فى العمود ، وصباح تهش عنه البعوض متألمة باكية ، بل لكأنك أنت الذى تحس لذعات البعوض ، ثم كأنك ترى الحمام وتسمع ما ينبعث منه من أصوات ، وكأنك ترى غير هذا من المناظر المؤلمة ، فترى الجيش المحتـــل يخترق شوارع القاهرة ، وترى الجدة تأخذ سكين المطبخ تدفع بها كيد الضابط الذى يطرق الباب ، وكأنك ترى مذبحة الدراويش فى أحراج الأبيض ، إلى غير ذلك من المواقف القوية المثيرة

وتحت تأثير ذلك الخيال توحى اليك (سهير) أحاديث الوفاء والوطنية والبطولة ، وتعرض عليك طرفاً من انتقاداتها وآرائها الصائبة عن حياتنا الاجتماعية بين الماضى والحاضر . وإن أنس من شيء فلست أنسى أبداً ما كان من نبل الجساس وزوجها ، وما بعثه موقفها فى قلبي من غبطة وما أثار من عاطفة ، ولكن مالى أذكر فصلاً بعينه والكتاب كله حديث لا ينسى ؟

وإنك لتجد فى أسلوب الكتاب ناحية من نواحى جماله ، إذ لا يسعك حين تتذوق تلك السهولة العذبة إلا أن تعترف بما لهذا الأسلوب الرائق من أثر قوى فى تحبيب الكتاب إلى نفسك

لقد آن لنا أن نتجه إلى الأدب الأنشائى الخالد ، وننصرف عما أسرفنا فيه من أدب وصفى لا يمت إلى الحياة بصلة قوية ، نعم آن لنا أن نخلص من أدب المقالة ، ونتجه إلى القصة ، آن لنا أن نرفع المرآة لتنعكس فيها طباعنا وحياتنا ؛ وإنى لأقرر هنا مع مزيد الغبطة أن هذه الأحاديث التى أقدمها إلى القراء من البواكير الطيبة فى هذه الناحية التى نتوق إليها ، وأدعو فتياننا وفتياتنا إلى الاستئناس بتلك الروح اللطيفة ، والاستمتاع بذلك النموذج الصادق ، فيما ينشدون من نهوض ، أو يتوخون من لذة . هذا وإنى أقدم إلى الكاتبة النابهة ثنائى وإعجابى ؟

الخفيف

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
شارع الكرداسى (عابدين) رقم ٩ بالقاهرة